توم فيليبس
TOM PHILLIPS

البشر

موجز تاريخ الفشل
وكيف أفسدنا كل شيء

A BRIEF HISTORY OF HOW
WE F[redacted]D IT ALL UP

تُرجم إلى
26 لغة
عالمية

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

Table of Contents

البشر موجز تاريخ الفشل وكيف أفسدنا كل شيء

البشر موجز تاريخ الفشل وكيف أفسدنا كل شيء

المحْتويَات

تمهيد

1 ما سبب حماقة التفكير؟

2 يا لها من بيئة رائعة

3 الحياة تجد دومًا طريقة للبقاء

4 فلنتبع القائد

5 قوة الشعب

6 الحرب.. ما فائدتها؟

7 حفلة استعمارية رائعة للغاية

8 دليل رئيس غبي لتحقيق الديمقراطية

9 حرارة التكنولوجيا

10 موجز تاريخ قصر النظر

الخاتمة تدمير المستقبل

البشر
موجز تاريخ الفشل
وكيف أفسدنا كل شيء

البشر
موجز تاريخ الفشل
وكيف أفسدنا كل شيء

A BRIEF HISTORY OF HOW

WE F[redacted]D IT ALL UP

TOM PHILLIPS توم فيليبس

ترجمةيارا برازي

مراجعة وتحريرمركز التعريب والبرمجة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

HUMANS: A Brief History of How We Fucked It All Up

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

WILDFIRE AN IMPRINT OF HEADLINE PUBLISHING GROUP

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2018 by Tom Phillips

All rights reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3821-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 1102–2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أب-ج-د غرافيكس، بيروت - هـاتف (+1-961) 785107

الطباع-ة: مط-ابع ال-دار الع-ربية للع-ل-وم، بيروت - هاتف (+1-961) 786233

بعد طول تفكير بمحتوى الكتاب، قررت عدم إهدائه
لعائلتي لأن ذلك سيوّلد كثيرًا من سوء الفهم.
أهديه بدلًا من ذلك، لكل من فشل فشلًا ذريعًا
وخرّب ما خرّب.
أنت لست الوحيد.

تمهيد

فجر عصر الفشل

منذ زمن سحيق، وفيما كانت الشمس تسطع فوق سهول أثيوبيا ووديان نهرها العظيم، كانت هناك قردة فتيّة تعانق أغصان شجرة. لا يمكننا معرفة بماذا كانت تفكر في ذلك الوقت، ولا معرفة ماذا كانت تفعل بالضبط في ذلك اليوم، إلا أنها كانت تبحث غالبًا عن شيء تأكله، أو عن ذكر تصاحبه. ولربما كانت تفكر في القفز إلى الشجرة المقابلة لها لمعرفة إذا ما كانت مسكنًا أفضل لها من الشجرة الأولى. لكنها لم تكن تعرف طبعًا بأن أحداث هذا اليوم بالذات ستجعل منها أشهر فرد في جنسها على الإطلاق. حتى لو كنّا قادرين على إخبارها بذلك، فإن مفهوم الشهرة لا يعني لها أي شيء. كما أنها لم تكن تعلم أنها تعيش في أثيوبيا، لأن هذه الأحداث جرت قبل تسمية المكان بهذا الاسم بملايين السنين، قبل أن يقوم إنسان ذكيّ للغاية برسم خطوط على الخارطة ومنح تلك الأشكال التي رسمها أسماءً نتناحر من أجلها.

كانت هذه القردة - وعشيرتها - مختلفة عن بقية القردة المعاصرة لها بشكل

طفيف، إذ إن الساقين والفخذين كانت غير عادية، مما منحها طريقة مختلفة في المشي. كانت هذه القردة تتخذ أولى خطواتها للنزول من الأشجار والمشي بشكل مستقيم لعبور سهوب السافانا، إنه التحوّل الأولي، التغيير المبدئي الذي أدى لوجودك، ووجودي مع الزمن، لوجود كل إنسان آخر على هذا الكوكب مع مرور الوقت. لم تكن هذه القردة على دراية بأنها كانت تعيش قاب قوسين أو أدنى من لحظة بدء أكثر القصص استثنائية على مرّ التاريخ، قصة فجر الرحلة البشرية العظمى.

ثم سقطت عن الشجرة وماتت.

استخرجَتْ مجموعة من القردة المختلفة بقايا عظامها المتحجرة بعد مرور ثلاثة ملايين ومائتي عام تقريبًا، مع العلم أن بعضًا من أفراد تلك المجموعة المختلفة حازت بالفعل على درجة دكتوراه في مختلف المجالات. ولأنهم كانوا يجرون تلك الحفريات في حقبة الستينيات من القرن الماضي، فقد كانوا يحفرون ويستمعون في الوقت ذاته لأغنية رائجة غنّتها فرقة مشهورة من مدينة ليفربول في ذلك الوقت، فقد قرروا تسميتها لوسي!

كانت لوسي هذه نوعًا جديدًا، صنفًا جديدًا يضاف لسلسلة الرئيسيات، وهي الشاهد الوحيد على النوع الذي ندعوه اليوم بالأسترالوبيثكس أفارينسيس، واعتُبِرت من تلك اللحظة الحلقة المفقودة بين البشر والقردة. استوقف اكتشاف بقايا لوسي العالم أجمع، وأصبح اسمها اسمًا مألوفًا للجميع، وطار هيكلها ليطوف الولايات المتحدة لسنوات لاحقة، وباتت فيما بعد نجمة متحف التاريخ الطبيعي في أديس أبابا.

رغم كل هذا، فإن السبب الوحيد الذي يجعلها شهيرة إلى هذه الدرجة، السبب الوحيد الذي أدى لمعرفتنا بوجود لوسي قبل ملايين السنين، هو أنها فشلت

بشكل أو بآخر. وإذا ما نظرنا لسيرورة الأحداث على مر الزمن لوجدنا أن فشلها هذا هو نموذج واضح لما سوف يتعاقب حدوثه مع الوقت؛ ابتداء من تلك اللحظة، وحتى يومنا هذا.

لقد وضعت كتابي هذا لأحكي فيه عن البشر وقدرتهم العجيبة على تخريب كل شيء، عن كل لحظة امتلأنا بها فخرًا لكوننا بشرًا، أمام عمل فني لا يُضاهى أو إنجاز علمي تفوقنا به على أنفسنا، بينما الحسرة واليأس يملآن قلوبنا لأجل كل تلك الحروب والتلوث الذي لا يضاهيه شيء.

لا بد أنك تأملت يومًا حال العالم - بغض النظر عن آرائك الشخصية أو انتماءاتك السياسية - وفكرت: اللعنة، ماذا فعلنا؟

أكتب اليوم لأساهم بتقديم بعض من الراحة.. لا تقلق، لأننا ما فتئنا نفعل الأمر عينه منذ الأزل، وما زلنا هنا.

وفيما أكتب اليوم، ينتظر العالم في غضون أسابيع عقد اجتماع قمة بين دونالد ترمب وكيم جونغ أون للفصل في القضية النووية، والتي قد تُعقد وقد لا تُعقد، وقد تسير على ما يرام أو لا إذا ما انعقدت، ويؤسفني أن أكتب هنا أنني مضطر للانتهاء من الكتابة قبل تبيان ما سيحدث، قبل معرفة ما إذا كنا سنموت بسبب حرب نووية قريبة أم لا، ولهذا سأكمل الكتابة معتبرًا أنك إذا ما قرأت هذا الكتاب فإننا قد نجونا بأعجوبة لما بعد شهر حزيران المقبل.

تتناول العديد من المؤلفات الإنجازات البشرية الأروع، والقادة العظماء والمخترعين العباقرة والروح البشرية التي لا تقهر. كما توجد العديد من الكتب التي تتحدث عن الأخطاء التي ارتكبناها فرادى وجماعات، عن أخطاء ارتكبتها مجتمعات بأسرها، لكنني لم أجد كتابًا يتحدث عن الكيفية الكارثية والعميقة التي تدبرنا بها

أمرنا للقيام بكل تلك الأخطاء مرة تلو الأخرى.

وفي واحدة من سخريات القدر التي يبدو أن الكون يستمتع بها حقًا هو أن الأسباب ذاتها التي تدفعنا للفشل والتخريب على نطاق واسع هي عين الأشياء التي تفرقنا عن بقية الكائنات، كالحيوانات، وتمكننا من تحقيق العظمة. يرى البشر النماذج في العالم من حولهم، ويمكننا إيصال ما نرى - نقله - للبشر الآخرين، كما نملك المخيلة التي تسمح لنا بتخيل المستقبل الذي لم يقع بعد.. فيهمس الواحد منا لنفسه أو للآخرين: ماذا لو أجريت تغييرًا على هذا أو ذاك، قد يحصل هذا أو ذاك في تلك الحالة، وسيكون العالم مكانًا أفضل عندها.

المشكلة الوحيدة هنا هي أننا لسنا على كفاءة عالية لتغيير أي شيء. سيبدو أي تقييم نجريه للأداء البشري السابق على كل تلك الأصعدة أشبه بتقرير سنوي مريع عن أحد الموظفين، كتبه شخص يكرهه حقًا. نحن نتخيل وجود نموذج مألوف بالنسبة لنا حيث لا وجود لأثر لتلك النماذج، كما أن مهارات التواصل لدينا ناقصة، وسجلّ الإدراك لدينا فقير لدرجة مخجلة، إدراك أننا إذا ما غيّرنا هذا، فإن هذا سيقود لشيء آخر مختلف، وحينها سيحصل ما هو أسوأ، ويعدها سنقف عاجزين مستغيثين.. كيف يمكننا الحدّ من هذا الأمر وإيقافه.

مهما بلغنا ومهما تغلبنا على تحديات ومصاعب، فإن الكوارث قريبة منا أكثر مما نتخيّل. وعلى سبيل المثال التاريخي: تخيّل معي أنك سيغريد العظيم - بطل من أبطال القرن التاسع - تعدو بك فرسك باتجاه منزلك فرحًا بانتصارك على عدوّك مايل برايت ذي النّاب، تندفع مسرعًا باتجاه منزلك حاملًا رأس غريمك المقطوع بسيفك، يتدلى ذلك الرأس من سرجك شاهدًا على ما حققته. ثم تخيّل معي أنك سيغريد العظيم نفسه بعد أيام قليلة من ذلك اليوم، لكنك مستلقٍ على فراش الموت لأن ناب عدوّك مايل برايت البارز من فكّه كان يخدش فخذك بلا انقطاع طوال طريق

الرحلة، مما أدى لإصابتك بالتهاب لا نجاة منه.

هذا صحيح، إن سيغريد العظيم مميز عن جميع الأبطال عبر التاريخ لأنه مات على يد عدوٍ قطع رأسه بيده قبل ساعات من موته. مما يعلمنا دروسًا هامة للغاية عن الغطرسة، وأهمية اختيار أعدائنا، إذ لا بد أن تختار عدوًا يعتني بأسنانه جيدًا. سنتحدث كثيرًا عن الغطرسة وتبعاتها، بينما سيصاب المعجبون بمعايير القدر عبر التاريخ بخيبة أمل كبرى.

يجدر بي هنا أن أذكر لكم بأن سيغريد العظيم ومايل برايت ذا الناب كانا يتقاتلان فقط لأن سيغريد تحدى مايل برايت لخوض معركة قوامها أربعون رجل لكل جانب، فوافقه غريمه. لكن سيغريد حضر ميدان المعركة برفقة ثمانين رجلًا. وفي هذه الحالة، لا بد لي من التنويه لأهمية الدرس هنا.. أهمية ألا يكون المرء حقيرًا. ومن اللافت أيضًا أن هذه النقطة ستتكرر كثيرًا على مر هذه الصفحات.

إن سيغريد هو أحد أولئك التعساء الذين يذكرهم التاريخ لإخفاقاتهم لا لانتصاراتهم. سنرتحل خلال الفصول العشرة المقبلة عبر التاريخ البشري الأشبه بفهرس الفشل.

تبدأ قصة التطور البشري بقدرتنا على التفكير والإبداع، وهذا ما يفرق البشر عن الحيوانات، لكنه نفس السبب الذي يقودنا للمصائب التي صنعناها بأنفسنا.

سنلقي الضوء في الفصل الأول على طريقة تفكير أسلافنا المختلفة عنّا، ثم سنرى كيف ينتهي الأمر بنا ضحايا لأفكارنا الخاصة حينما نحاول تفسير العالم بطريقتنا أو بمقدار ما نرى من هذا العالم، كيف يخذلنا ذكاؤنا ويقودنا مباشرة نحو هاوية القرارات الخاطئة التي نتخذها.

في الفصل الثاني نعود إلى مهد الحضارة البشرية التي بدأت بالزراعة، لحظة

البداية التي استهللناها بإعادة تشكيل العالم من حولنا، لنكتشف الفوضى التي نزرعها أينما حللنا، تمامًا حين لا نسأل أنفسنا قبل البدء بتنفيذ الخطط - على سبيل المثال -: ما هو أسوأ حال يمكن توقعه إذا ما غيّرنا مسار هذا النهر؟

سننظر بعد ذلك في محاولاتنا الحثيثة لترويض الطبيعة والتحكم بها في الفصل الثالث. حيث سنتطرّق فيه إلى العديد من الأمثلة، ومن ضمنها حماس الرئيس ماو المدفوع بأفكار شيكسبيرية خيالية الذي قاده في النهاية للتسبب بكوارث متلاحقة لأنه استهان بذكاء الطيور الفطري بكل بساطة.

تبيّن للبشر مع تطور المجتمعات المبكرة وتشعبها وازدياد تعقيدها أنهم يحتاجون شخصًا ما لاتخاذ القرارات، ولهذا سننظر في الفصل الرابع في أسوأ الشخصيات التي وصلت لتلك المراكز المهمة دون انتخابات. أما في الفصل الخامس فسننظر في أمر الديمقراطية، وفي ما لو كانت أفضل حالًا من الأنظمة الأخرى.

مع أننا تدبرنا أمرنا لإعادة تشكيل العالم من حولنا، إلا أننا لم ندرك مدى بلهنا وغبائنا إلا حين سافرنا حول العالم، حين بدأت الحضارات المختلفة بلقاء بعضها والتعرف على الآخر، حين ارتكبنا الفظاعات بحق أنفسنا وبحق الآخرين لأننا فهمنا كل شيء على نحو خاطئ.

سنستعرض في الفصل السادس تاريخنا الطويل الحافل بالانخراط في حروب بلا جدوى، وسننظر في أغبى الأحداث التي حصلت نتيجة لذلك، بما فيه المعركة التي خسرها أحد الجيوش مع أن جيش الأعداء لم يصل إلى ساحة المعركة أصلًا، على سبيل المثال. بالإضافة لكيفية فشل أحد أهم مخططات المعارك وأكثرها حبكة في تاريخ الحروب لأن القائد لم يأخذ مسألة اختلاف المناطق الزمنية في الحسبان قبل شن هجومه. لقد نسي وجود الفوارق الزمنية.. هكذا بكل بساطة.

أما في الفصل السابع فسنمضي إلى المجهول مع أبطال عصر الاكتشافات والفتوحات، لكننا سنكتشف الآن مدى فظاعة الاستعمار.

وسنتلقّى في الفصل التاسع دروسًا مهمة عن كيفية التواصل مع الثقافات الأخرى - والجديدة بالضرورة - برويّة. حيث سنلقي نظرة على أسوأ قرار سياسي تم اتخاذه في التاريخ من قِبَلِ شاه خوارزم، حينما قرر إضرام النار في لِحى السفراء الدبلوماسيين.

قادتنا الفتوحات العلمية والتكنولوجية في السنوات الأخيرة إلى عصر لا سابق له في مجالات الاختراع والتحوّلات السريعة وابتكار طرق مستحدثة لإفساد الأمور من حولنا. وهذا ما سنركّز عليه في الفصل التاسع، حيث سنرى أن العلم لا يقودنا بالضرورة للأفضل على الدوام، ولا يفسّر لنا الأشياء بشكل صحيح دومًا، كالأشعة الغامضة التي لا يراها سوى الفرنسيين. كما سنذكر في الفصل عينه الرجل الذي اقترف أسوأ خطأين في القرن العشرين وأكثرهما كارثية.

التغيير يحصل الآن بشكل سريع للغاية، مما يجعل العالم الحديث مكانًا مربكًا لسكانه، ولهذا سنتحدث في الفصل العاشر عن تواتر فشلنا في توقع أسوأ ما يمكن حدوثه حين اتخاذ القرارات.

وسنتوقع في الفصل الأخير بشكل منهجي ما سيبدو عليه الحمق البشري في القرون المقبلة، آخذين بعين الاعتبار ما قد يترتب على قراراتنا من أحداث، كالمكوث أسرى في سجن فضائي سنصنعه بأنفسنا من الخردة التي نرميها كل يوم في فنائنا الخلفي.

هذا كتاب عن التاريخ، عن الأخطاء التاريخية، ولهذا يجدر لنا الحديث أيضًا عن أننا غالبًا ما نفهم التاريخ بشكل خاطئ للغاية.

والمشكلة مع التاريخ، هي أنه زلق للغاية، إذ لم يتكبد أحد عناء تأريخ غالب ما جرى عبره، والعديد من الأشخاص الذين دوّنوه، دوّنوه بشكل مترع بالمغالطات، أو أن بعضهم كانوا مصابين بالجنون، وبعضهم الآخر قام بحشوه بالأكاذيب، كما كان هناك من بينهم من تمتع بالعنصرية أو التطرف (وربما كان خليطًا من الاثنين معًا). لقد سمعنا عن سيغرد العظيم لأن قصته ظهرت في مستندين مختلفين، ولكن كيف لنا تحديد مدى دقة أحد المصدرين؟ كيف لنا التأكد من حدوث هذه الواقعة، ومن أنها لم تكن مجرد طرفة حربية دموية إلى حدّ التطرّف، إلى درجة أننا لسنا قادرين اليوم على فهمها؟

لا يمكننا التأكد. لا يمكن ذلك رغم العمل الجبار الذي قام به كل المؤرخين وعلماء الآثار والخبراء في عشرات الحقول الأخرى. الأحداث التي نعتبرها مؤكدة الحدوث قليلة جدًا مقارنة بعدد الأحداث التي لا يمكن تأكيدها. وعدد الأحداث التي نجهل وقوعها يفوق عدد الأحداث التي نعرفها بأشواط بعيدة، ولا يمكننا أن نكون واثقين بكل الأحوال من أي شيء.

ما أحاول قوله الآن هو أن هذا الكتاب ن ينجح دون ضرب أمثلة عن الفشل، ولهذا سأذكر مع كل دليل أسوقه مدى تأكدنا منه كبحّاثة تاريخين، ما هي النقاط المؤكدة وما هي النقاط التي يدعمها بأفضل الأحوال تخمين علمي على سبيل المثال. وعلى صعيد آخر، فقد حاولت أن أتفادى القصص التي تبدو أقرب للخيال منها للحقيقة، كالحكايات الملفقة والقصص البلاغية التاريخية التي يبدو لكل باحث كيف تطورت مع الزمن بوضوح لتزداد خيالًا وبلاغة، متأملًا أني لم أخطأ التقدير.

مما يقودنا رجوعًا إلى لوسي التي وقعت عن الشجرة قبل ثلاثة ملايين ومائتي عام.. كيف لنا أن نعرف أنها وقعت عن الشجرة؟ لقد نشر باحثون أمريكيون بالاشتراك مع باحثين إثيوبيون عام 2016 ورقة بحث علمية في مجلة

Nة الدورية العلمية الأشهر حول العالم تتضمن تحليلهم لصور هيكل لوسي الشعاعية بأحدث التقنيات، حيث تمكنوا من رسم خرائط رقمية ثلاثية الأبعاد لإعادة بناء هيكلها العظمي.

اكتشف العلماء أن الكسور الموجودة في هيكلها هي الكسور التي تحدث للأجسام الحيّة، وأن كسورها لم تشفَ أبدًا، مما يعني أنها كانت على قيد الحياة حين تعرّضت لتلك الكسور، وأنها ماتت بعد فترة وجيزة من ذلك. وقد استشاروا عددًا كبيرًا من الأخصائيين في الجراحة العظمية وتقويم العظام، والذين أجمعوا على رأي واحد، وهو أن هذه الكسور هي كسور تحدث حين السقوط من المرتفعات، كما أن الكسر الموجود في يدها يدل أنها حاولت تفادي السقوط على كامل جسدها بالاستناد على ذراعها لحظة الارتطام بالأرض. وقد علموا أيضًا من الدراسات الجيولوجية أن المنطقة التي عاشت فيها لوسي كانت أرضًا منبسطة مليئة بالأشجار، وأن جدولًا كان يمر بجانبها، دون احتمال لوجود أي هضبة أو مرتفع يمكن السقوط عنه. مما يقودنا لاستنتاج وحيد، وهو أن لوسي وقعت عن شجرة.

إنه بحث علمي استثنائي، واحد من الأبحاث العلمية التي أثنى عليها العديد من الباحثين في نفس المجال، لكن المشكلة الوحيدة هي أن بعض الباحثين الآخرين لم يقتنعوا بهذا الاستنتاج، ومن ضمنهم دونالد جونسون، الباحث الذي اكتشف هيكل لوسي. حيث علّقوا بهذا الخصوص: لا.. عظامها مكسورة لأن هذا ما يجري للعظام حين تُدفَنُ لثلاثة ملايين عام ونيّف، وقد صغت هنا تعليقهم بكلماتي الخاصة بالطبع.

هل وقعت لوسي من الشجرة حقًا؟ ربما، غالب الظن. هذا هو قصدي من تأليف هذا الكتاب، إذ أننا نمتلك في حالة لوسي مقدرة كبيرة على الاستدلال العلمي، لدينا الكثير مما يساعدنا على ذلك، إلا أننا قد نكون على خطأ.

قد يكون الواحد منّا في طليعة مجال عمله، متقدمًا على الجميع في مهنته.. قد ينشر دراسة تهز أركان أحد فروع العلوم في إحدى أهم الدوريات العلمية، مثيرًا لعجب علماء الآثار والفيزياء والطب والحساب وعلم الأحياء والطب الجنائي باكتشافاته، فاتحًا لنا نافذة على الماضي لنشهد واقعة حدثت قبل ملايين السنين، إلا أنك لن تعدم وجود شخص يرفض كلامك من أساسه وينسفه بسخريته.

في اللحظة التي يظن المرء أنه قد رتّب كل أوراقه، وأن كل شيء يوافق هواه، يهاجمه شبح لعنة الإخفاق الأزلي الذي لا يشبع من دماء ضحاياه.

تذكر سيغرد العظيم.

1
ما سبب حماقة التفكير؟

بدأ البشر في إفساد كل شيء قبل سبعة آلاف عام.

حدث هذا حين بدأ أسلافنا في الهجرة خارج أفريقيا وانتشروا في أصقاع الأرض بدءًا بآسيا ثم أوروبا بعد فترة من ذلك. والسبب الذي جعل هذا مدعاة حزن للناس هو أن الذين خرجوا من أفريقيا، وتحديدًا الـ Homo sapiens - لم يكونوا الجنس البشري الوحيد الموجود على الأرض في ذلك الوقت، بل على العكس من ذلك. ولا يمكن لأحد معرفة عدد تلك الأجناس التي كانت تستوطن الأرض حينها، بل يمكننا التكهن فقط. كما أن الأدلة التي تثبت انتماء الرفات واللقى البشرية أو بقايا الدنا إلى أحد الأجناس، أو الأجناس الفرعية أو حتى اللقى التي تحتوي على مجرد انحراف ضئيل عن شكل وتكوين جنس بشري بعينه هي أدلة خادعة للغاية. لكن كيفما صُنِّفت هذه اللقى، فإننا أكيدون من وجود جنس آخر غير أسلافنا في ذلك الوقت، والذين نطلق عليهم اسم إنسان نياندرتال، كما أننا متأكدون من أنهم سبقوا أسلافنا في الخروج من أفريقيا بمائة ألف عام على الأقل، واستعمروا أوروبا ومناطق

واسعة من آسيا. ولا بد من أنهم حصّلوا مقدارًا لا بأس به من التقدم.

من سوء حظّهم أنهم - مع الأجناس الأخرى المجهولة بالنسبة لنا - اختفوا عن وجه البسيطة بعد خروج أسلافنا بعدة آلاف قليلة من السنين، وهي ما يشبه زمنيًا رفّة العين نسبة لمفاهيم التطور الزمنية. وفي صورة مبكرة للمشهد الذي راح يتكرر باطراد مع الزمن والتاريخ البشري.. ما أن نصل إلى مكان جديد ما حتى نبدأ في إنشاء أحيائنا - مستعمراتنا. وخلال آلاف قليلة من السنين بعد ذلك، يختفي إنسان نياندرتال رويدًا رويدًا من السجل الأحفوري، تاركًا خلفه جينات نادرة قليلة ما زالت تطارد شريطنا الوراثي كلعنة. ومن الواضح للجميع أن الجنسين تزاوجا إلى حد ما، حيث يمكن لكل فرد يعود أصله إلى أوروبا أو آسيا أن يجد في شريطه الوراثي نسبة تتراوح من واحد إلى أربعة في المائة من المورثات النياندرتالية الأصل.

ما يزال سبب بقائنا هنا وركوب أبناء عمومتنا قطار الانقراض السريع لغزًا مثيرًا للجدل. وفي الحقيقة، فإن العديد من تفاسير حدوث ذلك تظهر في هذا الكتاب. ربما محونا أثر النياندرتال عن طريق الفيروسات التي اصطحبناها معنا حين هاجرنا، فيروسات لم يتمكنوا من مقاومتها، لأن شطرًا كبيرًا لا يمكن إنكاره من تاريخ البشر هو في الحقيقة تاريخ الفيروسات التي التقطناها في أسفارنا ورحلاتنا ثم نقلناها إلى الآخرين. وربما حالفنا الحظ في امتلاكنا قدرة على التأقلم مع تقلبات الطقس. إلا أن كل الأدلة تشير إلى أن البشر الآخرين كانوا يعيشون في منظومات اجتماعية كبرى، وأنهم تواصلوا مع بعضهم وتبادلوا السلع في حركة تجارية امتدت لمسافات شاسعة بعيدة عن موطنهم الأصلي، مما يعني أنهم كانوا يمتلكون الموارد الكافية والمؤن اللازمة للصمود في ظل أي ضربة عاتية من ضروب الطقس.

وربما قتلناهم.. هكذا بكل بساطة. هذا ما قمنا به مؤخرًا مع الشعوب التي اكتشفناها في العصور الحديثة.

لا يوجد تفسير مقبول للجميع، لا وجود لاحتمال مقبول يقبل به الجميع لأن الأمور لا تسير بهذه الطريقة. لكن التفاسير جميعًا تشترك في نقطة وحيدة، ألا وهي عقولنا والطريقة التي نستعملها فيها. لا أقصد أنا كنّا أذكياء بينما كانوا أغبياء، ليس الأمر بهذه البساطة، لأن النياندرتال لم يكونوا أغبياء حسب تعريفنا للغباء في عصرنا الحديث، بل كانوا يمتلكون أدمغة كبيرة بحجم أدمغتنا الحالية، كما كانوا يصنعون الأدوات وروّضوا النار وأبدعوا في الأعمال الفنية وصناعة المجوهرات في أوروبا قبل أن يقوم خلفهم - نحن، الهوموسابينز (Homo-Sapians) - بذلك بعشرات آلاف السنين، بتحديث كل شيء. لكن الحسنات الممكنة التي تمتعنا بها زيادة على أبناء عمومتنا النياندرتاليين متصلة بشكل مباشر بطريقتنا في التفكير، سواء كان ذلك على علاقة بقدرتنا على التكيف، أو أدواتنا المتطورة والبنى الاجتماعية المعقدة التي تؤسس لمجتمعاتنا، أو الطريق التي نتواصل بها داخل وخارج المجموعات البشرية.

هناك شيء خاص في الطريقة التي نعتقد أننا مميزون بها.. أعني، من الواضح أننا لطالما ظننا أننا متميزون عن الآخرين. وهذا الأمر جليٌّ في الاسم الذي أطلقناه على جنسنا البشري: Homo sapiens، فهي مفردة لاتينية تعني حرفيًا: الرجل الحكيم. ولنتوخى الصراحة هنا.. لم تكن الحكمة يومًا ميّزة جماعية يمكن لنا تعريف جنسنا بها.

أعترفُ أن الدماغ البشري آلة عظيمة بحق إنصافًا لذواتنا، فهذه الأدمغة قادرة على ملاحظة النماذج المتكررة في البيئة المحيطة بنا والبحث عن تفاسير تستند إلى التحصيل العلمي لفهم كيفية حدوث الأشياء. يمكننا أيضًا بهذه الأدمغة تصميم نماذج ذهنية معقدة تحتوي على أثر مما يمكن لنا أن نراه بأعيننا. ثم نبني على ذلك الأساس إنجازات يمكن لنا وصفها بالقفزة الذهنية، يمكن لنا تصوّر تغييرات عالمية قد تُحسّن من وضعنا. ثم ننقل هذه التصورات إلى أفراد آخرين ليتمكنوا من إجراء

تحسينات قد تفوق ما فكرنا به في البداية، محوّلين المعرفة والاختراع إلى جهد جماعي ننقله إلى الأجيال الجديدة أفضل كل مرة. ويمكن لنا بهذه العقول بعد ذلك أن نقنع الآخرين ليعملوا بشكل جماعي لتحقيق خطة لم توجد في البداية سوى في عقل شخص واحد، لتحقيق فتوحات علمية أو غير علمية لا يمكن لشخص فرد أن ينجزها وحده، ثم نكرر هذا بمئات الطرق الأخرى، مجددًا ومجددًا لتتحول اختراعاتنا المجنونة إلى أمور تقليدية مع الوقت، ينتج عنها اختراعات أخرى مع الزمن لينتهي بها الأمر فيما بعد لأن تكون بمجملها ما نطلق عليه اليوم اسم الحضارة.

تلخصت الخطوة الأولى في ملاحظة تدحرج الأشياء الدائرية الشكل بسهولة أكبر على المنحدرات من الأشياء المتفاوتة في الأشكال، أما الخطوة الثانية، فكانت التفكير في استعمال أداة حادّة لمنح الشيء شكلًا دائريًا تامًا ليتدحرج بشكل أفضل. والخطوة الثالثة هي عرض ما صنعته يداك لصديقك، حيث يتفقان على تركيب أربعة من هذا الشيء الدائري الشكل معًا تحت مسطح خشبي لصنع عربة. ثم نصل للخطوة الرابعة، حيث نبني أسطولًا من المركبات الاحتفالية ليرى الناس بأعينهم ويفهموا مدى عظمة حكمك الرشيد وسطوتك التي لا ترحم. وأخيرًا نصل إلى الخطوة الخامسة والأخيرة في هذا المسلسل، حيث نقود واحدة من هذه المركبات على أحد الطرق السريعة ونستمع في الأثناء إلى موسيقى الروك الكلاسيكية ونشير بأصابعنا بحركات بذيئة لسائق الشاحنة المجاورة لنا على الطريق.

إنها طريقة كرتونية غير صحيحة على الإطلاق لوصف اختراع العجلة، والحقيقة المثيرة للعجب هي أن العجلة اختُرعت بشكل متأخر إلى حد بعيد نسبة للمقياس الزمني لتطور الحضارات، لأن الحضارات المبكرة كانت قائمة على قدم وساق قبل اختراع العجلة بآلاف السنين. والحقيقة أيضًا أن العجلة الأولى التي تم اكتشافها في بلاد ما بين النهرين والتي تعود إلى 5500 عام، لم تستخدم لعمليات

النقل، بل كانت تستخدم لتدوير آلة صناعة الفخار. ويبدو لنا أن مئات أخرى من الأعوام مرت قبل أن تلمع في ذهن أحدهم فكرة قلب عجلة صناعة الفخار على جنبها لاستخدامها في النقل، مما سيؤدي في النهاية لمجيء شخص مثل جيرمي كلاركسون مقدّم برنامج السيارات الذي طبقت شهرته الآفاق. وأعتذر في هذا السياق من أي شخص شعر بالإهانة من طريقة عرضي لموضوع العجلة.. فأنا لم أستخدمه هنا إلا لغاية ضرب المثل لا أكثر.

ومع أن الدماغ البشري مبهور استثنائي، إلا أنه غريب إلى حدّ بعيد، ومعرّض لاقتراف أخطاء لا تغتفر في مواقف جسيمة للغاية. فنحن نتخذ قرارات فظيعة باستمرار، ونصدّق أمورًا سخيفة، ونتجاهل أدلة ماثلة أمام أعيننا، كما نرسم خططًا لا معنى لها بأي شكل من الأشكال. عقولنا قادرة على تصوّر وخلق المقطوعات الموسيقية العظيمة، على رسم مدن بكاملها في مخيلتنا، على رسم خطوط نظرية النسبية العامة، لكنها غير قادرة كما يبدو على تقرير أي نوع من رقائق البطاطا المقرمشة يناسبنا أكثر لهذا المساء.

كيف مكنتنا قدرتنا الاستثنائية والنادرة على التفكير من تشكيل العالم على هوانا بطرق عجيبة، وقادتنا في الوقت ذاته من اتخاذ أسوأ الخيارات رغم وضوح عدم ملاءمتها؟ بكلمات أخرى: كيف أمكننا إرسال رجل إلى القمر وإرسال رسائل نصيّة غير لائقة إلى شريك حياتنا السابق؟ يعود كل شيء في أصله إلى الطريقة التي تطورت بها أدمغتنا.

التطور هو عملية غير ذكية، بل غبية إلى حدّ بعيد، فكل ما يهم عملية التطور هذه هو مقدرتك على النجاة من آلاف الأخطار المحتملة التي تنتظرك خلف كل أجمة وكل منعطف إلى أن تتمكن من نقل جيناتك إلى الجيل التالي عبر التكاثر قبل أن تقضي الطبيعة عليك. وإذا ما قمت بذلك، فهذا يعني أنك أتممت مهمتك

بنجاح، إما إن لم تقم بذلك فهذا يعني أن الحظ لم يحالفك. هذا يعني أن عملية التطور تسير بلا هدى، غير ذات بصيرة. إذا ما كنت تمتلك سمة ما فهذا يعني أن الطبيعة ستختار بقاءها، سواء ظهرت على قسمات وجه أحفادك البعيدين أم لا، وستظهر بشكل غريب لأنها لن تنتمي في المستقبل للسمات المعتادة. كما أن أحدًا لن يقدّر بعد النظر في هذا الأمر إذا ما قلت: "هذه السمة في وجهي تعيقني اليوم عن أداء بعض المهام، لكنها ستفيد أحفادي بعد مليون عام من اليوم". لا قيمة لهذا، لأن التطور لا يجني ثماره عبر التخطيط للمستقبل، بل عبر إلقاء أعداد هائلة من المنظومات الحيّة المختلفة والجائعة والتواقة للتكاثر إلى حد الجنون في عالم خطير قاسٍ بلا رحمة، وانتظار النتيجة.. من يفوز في لعبة البقاء.

هذا يعني أن دماغنا ليس نتيجة لعملية بديعة التصميم لإنتاج أعظم آلة تفكير ممكنة، بل مجرد سلسلة لدماغ سلف لنا كان أكثر قدرة على إيجاد الطعام بنسبة 2 بالمئة من أقرانه، أو أفضل بـ 3 بالمئة منهم في التحذير من الخطر حين صاح مرة: انتبهوا.. هناك أسد قادم لافتراسنا.

هذه القدرات الدماغية التي نسميها تقنيًا: القدرة على الاستدلال، مهمة للغاية للعبة البقاء والتفاعل مع الآخرين والتعلم من التجارب لان المرء لا يستطيع اختراع كل شيء من العدم كلما كان بحاجة لاستخدام شيء ما. لو كنا بحاجة لتفسير كل شيء من الصفر وبناء كل شيء من الصفر كل يوم لما توصّلنا لأي شيء كجنس بشري. من الأسهل للدماغ البشري أن لا يصاب بالدهشة لطلوع الشمس من الشرق كل يوم بعد مراقبتها لعدة أيام وهي تشرق على هذا النحو، وعلى المثل من ذلك، إذا ما أخبرك صديقك بأن هذا التوت البري البنفسجي في الغابة القريبة أصابه بمرض شديد كاد يودي بحياته، فمن الأفضل لك أن تصدقه وتستفيد من خبرته بدلًا من تجربة ذلك بنفسك.

ولكن.. هنا تبدأ المشكلات من جديد.. إذ أن دماغنا الذكي، مُتخذًا لطرقه المختصرة السابق ذكرها، سيرتكب الأخطاء ويسلك أحيانًا الدروب الخاطئة. وفي عالم يحتوي على قضايا أخطر بكثير من مسألة التوت البري السام، يمكن للدماغ أن يخطئ كثيرًا، وكي أكون مباشرًا وصريحًا، لا بد من مواجهة الحقيقة، وهي أن الدماغ البشري يتصرف بغباء في معظم الوقت.

أولًا، قدرته على ملاحظة وجود النماذج المتشابهة والمتكررة. المشكلة هي أن الدماغ يبحث على الدوام عن النماذج إلى درجة أنه يراها في كل مكان، حتى في الأماكن الخالية منها، وهذا ليس أمرًا خطيرًا حين يرسم لنا الدماغ الأنظمة والنماذج ما بين النجوم في ليلة مقمرة، لكنه خطير حين يقرر الدماغ أن أغلب الجرائم تُرتكب على أيدي مجموعة مختلفة من البشر، هذه مشكلة عويصة.

لدينا مجموعة كبيرة من العبارات التي يمكن لها وصف هذا السلوك الدماغي الباحث عن وجود علاقة وترابط بين الأحداث أو أي شيء آخر، عن وجود نموذج للأشياء، إذ يمكن لنا تسميته "الرابط الوهمي"، أو "الوهم الجمعي". لقد اعتقد العديد من الناس في لندن خلال الحرب العالمية الثانية أن الصواريخ الألمانية V1 وV2 التي كانت تقنية جديدة مرعبة بالنسبة لهم تنهمر عليهم بعد توجيهها إليهم بشكل متعمد، مما دفع أهل لندن للبحث عن أماكن آمنة خارج مركز المدينة، واللجوء إلى ما ظنّوا أنها مناطق سكنية هادئة يقطنها الجواسيس الألمان. وقد لفت ذلك انتباه الحكومة البريطانية بسبب عدد الناس الهائل الذين انتقلوا بالفعل مما دفع الحكومة لتعيين خبير في الإحصاء للتأكد من صحة الاعتقادات الشعبية.

وإلى ماذا توصّل الخبير الإحصائي؟ توصل إلى أن كل أفكار الناس كانت وليدة لاعتقاداتهم الشخصية، لدماغهم في بحثه عن الروابط والعلاقات الوهمية، حتى في الأماكن التي يستحيل وجود تلك الروابط فيها. لأن الألمان لم يسبقوا غيرهم في

التوصل لتقنية عسكرية تتيح لهم التحكم في مكان انفجار الصواريخ، ولم تكن تلك المناطق السكنية الوادعة مرتعًا للجواسيس الألمان، كما أن الصواريخ سقطت في كل مكان من المدينة ولم تستثنِ شيئًا منها، وأن الناس ربطوا بين الأفكار والأوهام لأن هذا ما ارتأته عقولهم.

يمكن لأعتى العباقرة أن يقع فريسة لمثل هذه الأوهام. وعلى سبيل المثال، كثيرًا ما نسمع من العاملين في المجال الطبّي أن الليالي المقمرة تشهد وفود العديد من الحالات إلى غرف الإسعاف، بجروح غريبة الشكل وسلوك ممسوس، والمشكلة الوحيدة هنا هي أن الدراسات اهتمّت للموضوع ودارت حوله بالفعل ثم اكتشف الخبراء أن الأمر غير صحيح برمته، وأن لا علاقة بين أطوار القمر ومدى ازدحام غرف الإسعاف في المستشفيات بأي حال. ومع كل هذا، يوجد العديد من الأطباء المحترفين من ذوي الخبرة، الذين يقسمون لك بين الحين والآخر بأن الأمر صحيح.

لماذا؟ لم يأتِ إيمانهم بهذا من العدم. لأن فكرة القمر البدر الذي يقود الناس إلى الجنون تعود إلى قرون طويلة، وهي لغويًا مصدر كلمة "Lunacy" التي تعني الجنون، وهي السبب في ظهور أسطورة الرجل الذئب في الليالي المقمرة. كما أنها قد تكون على علاقة بالربط بين أطوار القمر ودورة المرأة الطمثية. أعتقد أن هذه الافتراضات صحيحة إلى حدّ ما، أعتقد أن القمر كان يؤثر بشكل أكبر بكثير على حياة الناس قبل اختراع الإنارة الصناعية، وعلى سبيل الخصوص تلك الإنارة الدائمة ليلًا في الشوارع. تفترض إحدى النظريات أن المشردين الذين كانوا يفترشون الأرض في الشوارع ليلًا، كانوا يتعرضون لنور القمر وخصوصًا في الليالي التي يكون فيها القر بدرًا كاملًا، مما يمنعهم من النوم، وأن هذا الحرمان من النوم كان يفاقم أي اضطراب ذهني يعانون منه. ولأني من عشاق البيرة، فسأقترح نظرية بديلة، أعتقد أنهم كانوا يسرفون في تناول المشروبات الكحولية في تلك الأمسيات لأنهم كانوا يعرفون بأنهم

لن يضلّوا طريقهم إلى البيت بسبب نور البدر، مما يزيل عوامل القلق من احتمال الضياع ليلًا، أو القلق من التعرض للسطو، أو التعثر بسبب السكر والظلمة والموت في بركة وحل.

هذه الفكرة موجودة في ثقافتنا منذ وقت طويل للغاية. ما أن يذكر أحد الموضوع حتى يبدأ الفرد في تذكر الأمسيات التي اختبر فيها مثل تلك الظروف وينسى تمامًا الأمسيات الأخرى التي حصل فيها نفس الأمر دون أن يكون القمر بدرًا. أي أن الدماغ اختلق نموذجًا فكريًا من العدم، دون أن يكون للوعي أي علاقة بذلك.

يعود هذا مرة أخرى للطرق التي يستخدمها الدماغ للتفكير. وأهم طريقتين يستخدمهما دماغنا هما: الاستدلال الأولي، والاستدلال البسيط، وكلاهما لا يفيان بالغرض.

الاستدلال الأولي هو حين يتخذ المرء قرارًا حيال أمر ما - وخصوصًا حين يتخذ قراره دون معلومات كافية حول الموضوع - متأثرًا بأول معلومة وصلته حول الأمر. تخيل أن يطلب منك تقدير سعر شيء ما، لا تملك أدنى فكرة عنه، لتتمكن من الإدلاء برأي جيد، مثل أن تُعرض عليك صورة لمنزل ما دون أي معلومة أخرى، فتتفحص مدى رفاهيته من الخارج وتدلي برقم ما. لكن تخمينك هذا قد يحيد كثيرًا عن الحقيقة إذا ما طُلب منك تقدير سعر للمنزل بعد منحك فكرة عن الحد الأدنى لسعره. كأن يسألك أحدهم: هل تظن أن سعر المنزل في الصورة أكثر أم أقل من 400 ألف جنيه إسترليني؟ أهم نقطة يجب علينا الانتباه لها هي أن السؤال لم يقدم لنا أي معلومة مفيدة، فهو لم يخبرنا مثلًا عن أسعار المنازل المجاورة، لكن الناس الذين طرحنا عليهم هذا السؤال مع رفع الرقم إلى 600 ألف جنيه إسترليني قدروا سعر المنزل بما يزيد بمبالغ طائلة عن الناس الذين طرحنا عليهم السؤال مع تخفيض الرقم إلى مائتي ألف جنيه. أي أن السؤال يؤثر على الإجابة مع أنه لا يقدم أي معلومة

على الإطلاق، لأنه قادك بشكل أو بآخر إلى استدلال أولي، ومنحك فكرة عن رقم، اعتبره ذهنك نقطة بداية لبناء الافتراض عليها وترتّب ما يلي ذلك على ذاك الافتراض.

يقوم البشر بذلك إلى حد كبير وحتى درجة السخف، لأن المعلومة التي نستخدمها للاستدلال قد تكون عديمة الفائدة مثل أي رقم عشوائي نراه في الشارع، لكن الذهن البشري يتمسك به ويتخذ القرارات بناء عليه، وهذا مثير للقلق حقًا. ضرب لنا دانييل كانمان في كتابه "التفكير السريع والتفكير البطيء" مثالًا عن تجربة أجريت عام 2006 على مجموعة من كبار القضاة الألمان المشهود لهم بالخبرة. حيث عُرضت عليهم تفاصيل جلسات لمحاكمة امرأة اتهمت بالسطو على المتاجر، ثم طُلب منهم رمي نرد مزيف لا يمكن الحصول منه سوى على العددين 3 و9 (دون أن ينتبهوا لذلك بالطبع). ثم سُئلوا إذا ما كان يجب الحكم على المرأة بالسجن أكثر أم أقل من الرقم الناتج من رمي النرد، قبل أن يُطلب منهم تقدير حكم مناسب لها حسب القانون.

حكم عليها القضاة الذين حصلوا على الرقم 9 بفترة سجن أطول بكثير من القضاة الذين حصلوا على الرقم 3. أي أن النرد زاد ثلاثة أشهر من السجن للمرأة. وهذا ليس أمرًا مريحًا.

أما الاستدلال البسيط، فهو اتخاذ القرارات بناءً على أول معلومة تخطر في البال دون التطرق للمعلومات المتاحة أو دراستها بعمق، هذا يعني أننا ننحاز عمومًا لآخر المستجدات، أو أكثر الأحداث تأثيرًا، وأن جميع ما يمر علينا من أحداث أخرى تتلاشى ويطويها النسيان.

لهذا، على سبيل المثال، تدفعنا أخبار الجرائم اليومية للاعتقاد بأن مستويات الجريمة أعلى مما هي عليه في الواقع، أو أنها ترتفع مع مرور الوقت، بينما لا تنال

إحصائيات الاستقرار وانخفاض معدلات الجريمة اهتمامنا ولا نلقي لها بالًا لأنها مجرد أرقام مملة. إنه ذات السبب الذي يدفع البعض للخوف من ركوب الطائرات، لأنهم مصابون برهاب الموت في حادث تحطم طائرة، لكنهم لا يهابون ركوب السيارات وقيادتها مع العلم أن احتمال موتهم في حادث سيارة أكبر بكثير من احتمال موتهم على متن طائرة، لأن حوادث السيارات أكثر شيوعًا بأضعاف مضاعفة. لهذا أيضًا يمكن لحادث إرهابي أن يطلق شرارة الرعب بين المواطنين والسياسيين على حد سواء، فيما لا يلقي أحد بالًا لإمكانية الموت بسبب حوادث عادية. لقد لقي عدد كبير من مواطني الولايات المتحدة حتفهم بسبب آلات جزّ العشب ما بين عامي 2007 و2017، لكن الحكومة لم تعلن الحرب على آلات جزّ العشب حتى الآن، مع أن الأمر غير مستبعد مع حكومة بهذه العقلية.

يمكن لطريقتي الاستدلال هاتين أن تساعدانا بشدة حين تعملان معًا لدى اتخاذ قرارات سريعة في أوقات الأزمات، أو في اتخاذ القرارات اليومية غير المؤثرة. لكنهما ستتحولان إلى كابوس حينما تضطرنا الأمور للتفكر بعمق لاتخاذ قرار حاسم في حياتنا. يحاول الذهن اللجوء لطريقته المعتادة في اللجوء إلى آخر ما سمع من أخبار، أو اللجوء إلى أول ما يتبادر إليه من أخبار، أي آخر ما تم تخزينه بمعنى أدق.

يمكنني القول إن هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعلنا غير أكفاء في اتخاذ قرارات خطيرة في حياتنا، أو ما يدفعنا لاختيار أسوأ التكهنات والتوقعات، مما يقودنا غالبًا إلى الكوارث. لدينا في ذهننا نظامان منفصلان للحكم على الأمور. أحدهما سريع وغريزي، والآخر بطيء وميال للتعمق قبل اتخاذ أي خطوة. تنشأ المشكلات حين تتصارع هاتان المنظومتان. يهمس الصوت الأول الحكيم والمتزن: لقد حللت كل الدلائل وأعتقد أن الخيار الأول هو الأسوأ، بينما يصرخ الصوت الآخر مضطربًا: نعم، ولكن الخيار الثاني يبدو مرعبًا للغاية.

هذا يحدث مع الجميع، لكننا أعقل من الوقوع فريسة لهذين الصوتين، أليس كذلك؟ غالبًا ما نتجاهل الصوت الغريزي ونستمع للصوت المتزن وننظر بموضوعية إلى موقفنا.. أليس كذلك؟ لسوء الحظ، عقولنا لا تنحاز إلى صوت المنطق كثيرًا.

لقد خمّنت قبل بدئي في تأليف هذا الكتاب أن نزعتنا للانحياز لآرائنا لاعتقادنا أنها صحيحة على الدوام هي مشكلتنا الكبرى، وقد أثبتت لي أبحاثي هذا. أذهاننا تكره اكتشاف خطئها، إن ميلنا هذا هو تلك العادة الكريهة التي تدفع الذهن للتمسك بأي دليل مهما كان بسيطًا لإثبات وجهة نظرنا وتجهل أكوام الأدلة الأخرى التي تثبت خطأنا. هذا يفسر ميلنا للرغبة في الحصول على المعلومات من الجهات التي توافق هوانا على الصعيد السياسي مثلًا. لهذا مثلًا لا يمكن لنا إجراء مناظرة مع من يؤمنون بنظرية المؤامرة، لأننا نتجاهل كل الأدلة التي تنصف وجهة نظرهم ولا نأخذها بعين الاعتبار، أي أنها غير موجودة بالنسبة لنا.

من نواحٍ عدة، يمكننا النظر إلى هذه النزعة على أنها أمر إيجابي، فالعالم معقد جدًا، إنه مكان تسوده الفوضى، ولا يمكننا الكشف عن مكنوناته عبر استعراض ملف PowerPoint مزوّد بنقاط سريعة مختصرة عن الحياة. يمكنني القول بأن نمذجة العالم المعاصر ومنحه وصفًا من أي نوع يعني تجاهل الكثير من المعلومات والتركيز على قليل منها فقط، لا يمكنني تشبيه هذه الحال إلا بالخوض في مستنقع موحل لأننا لا نعير اهتمامنا سوى للمعلومات التي تناسبنا ونتجاهل الأخرى.

ثم يزداد الأمر سوءًا، لأن عقولنا تقاوم أدلة خطئها كلما كان الخطأ أكبر. قد يظن المرء أن الناس يتراجعون عن قراراتهم ما أن تلوح دلائل الإخفاق في الأفق، وقد تبدو لهم تلك الدلائل في مراحل مبكرة، لكنهم لا يفعلون ذلك. هناك أمر معروف في علم النفس اسمه: الميل لدعم الاختيار. وهو يعني أننا نتمسك بإيماننا بأننا اخترنا

الخيار الأفضل حال اتخاذنا له، حتى أننا نستعيد ذكرياتنا حول الموضوع والأسباب التي دفعتنا لاتخاذ تلك القرارات في محاولة منّا لدعم أنفسنا، لدعم رأينا بأننا اتخذنا القرار الصحيح. إن أبسط مثال على هذا هو البؤس الذي يصيبنا بعد شرائنا حذاءً جلديًا، بينما نؤكد للجميع أن انتعاله يمنحنا شعورًا بالقوة. أما في ما يخص القرارات الكبرى فهو ما يدفع الوزراء للتصريح بأن المفاوضات تسير على خير ما يرام وأن الأمر في تقدم مطرد حتى حين يكون فشل تلك المفاوضات واضحًا كشمس الظهيرة. لقد اتخذوا ذلك القرار، لا بد أن يكون القرار الصحيح.. لأننا اتخذناه.

هناك أدلة تشير أيضًا إلى أن مصارحة الناس بأنهم اتخذوا قرارات خاطئة في بعض الحالات يقودهم للتمسك برأيهم أكثر، حتى لو برهنت لهم خطأهم بكل هدوء. يتمسك الناس بأخطائهم أكثر حينما يواجَهون بخصومهم، لهذا يعتبر أغلب الناس أن مناقضة أقربائهم حول المواضيع العنصرية علنًا على وسائل التواصل الاجتماعي مغامرة لا تُحمد عقباها، تمامًا كخوض موضوع شائك في الصحافة والإعلام، لن ينتج عن تلك المغامرة سوى غضب جميع المراقبين من صاحب تلك التصريحات المناقضة لهم.

لا يعني هذا أن الناس غير قادرين على اتخاذ قرارات منطقية وحكيمة ترتكز على دراسة ودراية وتعمق، بل إنهم قادرون على ذلك بكل تأكيد. هذا ما دفعك لقراءة هذا الكتاب. أهنئك، فأنت شخص قادر على اتخاذ قرارات منطقية، وكل ما في الأمر هو أن أذهاننا تضع الكثير من العقبات في الطريق لأنها تعتبر أنها بهذه الطريقة تساعد في المحافظة على سلامتنا.

وبالطبع، إذا لم نكن قادرين على اتخاذ قرارات صحيحة خاصة بنا، فالأمر يزداد سوءًا حين نشارك الآخرين في صنع القرار. الإنسان كائن اجتماعي لا يحب أن يكون الشخص المختلف في جماعته، لهذا نخالف حدسنا المصيب غالبًا رغبة منّا في

الانضواء تحت لواء المجموعة والبقاء ضمنها، لنكون مقبولين من قِبَل الآخرين.

لهذا نتبع نمط التفكير الجماعي، لأن الشخص المختلف عن الآخرين غالبًا ما يُقصى خارج المجموعة أو يتم إسكاته، إذ لا يجرؤ أحد عمومًا على النطق بتساؤل حول الأفكار التي تسيطر على عقل الجماعة. لهذا تمامًا تغرق المجتمعات بأكملها في وحل أفكارها، لأن إعجاب الآخرين بفكرة ما يزيد من رغبتنا في التماهي معهم واتباعهم، لكي نكون جزءًا من الحشد. إذا سألنا طفلًا في الرابعة من عمره: "ماذا ستفعل إذا ما رمى جميع الأطفال في صفّك بأنفسهم في الماء؟" فإنه سيجيب على الأرجح: "سأفعل مثلهم".

في النهاية، إنها الحقيقة التي تدفعنا للاعتقاد بأننا عظماء، لكننا لسنا كذلك بكل صراحة. يمكن لنا أن نعتبر هذه الفكرة غرورًا أو جنون العظمة.. فقد أثبت لنا الباحثون أننا نبالغ في تقدير قدراتنا. إذا سألنا مجموعة طلاب عن توقعاتهم للامتحان النهائي، فسيجيبون جميعًا بأنهم سيحققون نتائج جيدة جدًا، ولن يجرؤ أحد على توقع نجاحه بدرجة المعدل أو أقل منه، كما لن يجرؤ أحد على التصريح بأنه سينال أرفع الدرجات. بل يجيبون جميعًا ضمن دائرة الحل الأوسط، كمن لا يجرؤ على طلب أغلى الأطباق ثمنًا في المطعم ولا أرخصها.

هناك إشكال إدراكي معروف يطلق عليه علماء النفس اسم: تأثير داننيغ كروغر، وهي الإشكالية التي يمكننا القول بأنها الراعي الرسمي لكتابي هذا، مع العلم بأن اسمها يبدو أشبه باسم فرقة موسيقى روك من سبعينيات القرن الماضي. تحدث عنها عالم النفس ديفيد داننيغ أولًا وكروغر ثانيًا في ورقة بحثهما: "كيف يقود جهل الإنسان وعدم إدراكه إلى تقدير مبالغ به لذاته". يقدم لنا هذا البحث العلمي دليلًا على ما لاحظناه خلال سني حياتنا وتجاربنا. فالذين يتقنون أمرًا ما يكونون أناسًا متواضعين بينما يبالغ غير الخبراء في تقدير أنفسهم. إن الإنسان لا يعرف مدى قلة

خبرته في موضوع ما ليواجه قلة الخبرة تلك، ولهذا يعمينا الجهل، يدفعنا للثقة العمياء بأنفسنا ويضعنا دومًا في موقف المتفائل المتحمس حينما نكون على وشك ارتكاب أشنع الأخطاء وأسوأ الاختيارات.

تتراكم كل تلك المشاكل الإدراكية فوق بعضها لتشكل المجتمع، الذي يدفعنا لارتكاب نفس المشكلات مرة تلو الأخرى.

إن الرغبة لفهم العالم وتمييز النماذج المتكررة يعنيان أننا ننفق الكثير من الوقت في محاولة لإقناع أنفسنا أن العالم يدور بطريقة معينة بينما تكون الحقيقة بعيدة كل البعد عن تصوراتنا. هذا ينطبق على كل شيء، بدءًا من أتفه الاعتبارات الشخصية وصولًا إلى أعظم النظريات العلمية. إنها تفسر وقوعنا فريسة للدعاية المزيفة والأخبار الكاذبة. لكن الأهم، هو حين يتمكن شخص ما من إقناع أعداد كبيرة من الناس بأن نظريتهم المقبولة على نطاق واسع حول أمر ما هي نظرية صحيحة تنطبق على الواقع، مما أنتج لنا، على مر التاريخ البشري، جميع الأيديولوجيات والأديان وكل الأفكار الكبرى.

يخطئ البشر كثيرًا في تقييم المخاطر والتخطيط للمستقبل، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن قدرتهم على توقع ما ستؤول إليه الأمور شبه معدومة، إذ لا يمكن لأحد فعليًا التنبؤ بسير منظومات معقدة كالطقس وأسواق الأوراق المالية أو حتى مصائر المجتمعات البشرية. لكنه يعود بشكل فعلي لتجاهلنا لأي معلومة تدل على شيء يناقض توقعاتنا وخططنا التي تعجبنا وتستهوينا، ونرفض الاستماع لأي شخص يشير لاحتمالية الخطأ في كلامنا أو خططنا، وغالبًا ما نفعل هذا لأن مخططاتنا تتناسب أكثر مع معتقداتنا الراسخة.

إن أقوى دوافعنا لهذا النهج من التفكير حسب الأمنيات هو الجشع بالطبع.

لأن احتمال تحقيق ثروات سريعة هو أمر مضمون لجعل الناس يفقدون كل معانيهم، حيث اتضح أننا سيئون للغاية في إجراء تحليل التكلفة - الفائدة عندما يكون إغراء المنفعة قويًا للغاية. لا يقتصر الأمر على عبور البشر للمحيطات وتسلق الجبال من أجل الحلم بالثروة، والذي غالبًا ما يكون مجرد حلم يقظة آخر، بل أن البشر يستبعدون جانبًا أي فكرة عن الأخلاق أو الاستقامة خلال محاولتهم لتحقيق ما يرومون.

كما يساهم الجشع والأنانية في تخليق مصائب أخرى، فهي أخطاء جماعية تدمر كل ما بناه الإنسان، لأننا نرغب في الحصول على الفضل والمكاسب لأنفسنا. تُسمّى هذه الأخطاء في العلوم الاجتماعية بأسماء مثل «الفخّ الاجتماعي» أو «مأساة العموم»، والتي تعني أساسًا قيام مجموعة من الأشخاص بشكل منفصل بأفعال جيدة على المدى القصير. ولكن الأمر ينقلب لعكسه عندما يقوم به الناس سويًا بشكل جماعي على المدى الطويل. غالبًا ما يعني ذلك تدمير مورد مشترك لأننا نستغله كثيرًا: على سبيل المثال؛ الصيد الجائر في مناطق محدّدة بحيث لا تملك الأسماك وقتًا لتجدد عددها. هناك أيضًا مفهوم ذو صلة في علم الاقتصاد يُعرف باسم «المظهر الخارجي السلبي» - وهو تعامل مالي يستفيد منه كلا الطرفين، ولكن الكلفة الحقيقية تُدفعُ في مكان آخر، من قبل شخص لم يكن حتى جزءًا من الصفقة. والتلوث البيئي الذي نعاني منه الآن هو خير دليل على هذا. إذا اشترى أحد شيئًا من المصنع مباشرة، فهو والمصنع مستفيدان في آن، لكن الخاسر هو كل شخص يعيش على طول النهر الذي يلقي فيه هذا المصنع بنفاياته.

لهذه المجموعة من الأخطاء صلة كبيرة بلعنة البشرية - في النظم جميعها - من الرأسمالية إلى التعاونيات، ومن القضايا التي قد تكون كبيرة مثل تغير المناخ، أو صغيرة مثل تقسيم الفاتورة في مطعم. نحن نعلم أنه من الجيد للجميع التقليل من

أهمية المبلغ الذي يدينون به، لكننا لا نريد أن نكون الخاسرين بأي حال من الأحوال. لهذا نتجاهل مشكلات الآخرين ونقول «ليست مشكلتي يا رفيق».

ويُعدّ التحامل من بين أخطائنا الأكثر شيوعًا، إنه ميلنا إلى تقسيم العالم إلى «نحن» و«هم» وتصديق أسوأ شيء ممكن عن «هم». هذا هو المكان الذي تتجمع فيه جميع تحيزاتنا المعرفية، فنحن نقسم العالم وفقًا لأنماط قد لا تكون موجودة، ونصدر أحكامًا مبكرة استنادًا إلى أول ما يتبادر إلى الذهن، ونختار الأدلة التي تدعم معتقداتنا، ونحاول جاهدين الانسجام مع المجموعات ونؤمن بثقة بتفوقنا دون أي سبب وجيه.

هذا موجود في الكتاب بأكثر من طريقة: فهو تاريخ الإخفاقات البشرية، تاريخ من إخفاقات الرجال؛ وفي كثير من الأحيان، الرجال البيض. هذا لأنهم كانوا غالبًا الوحيدين الذين أتيحت لهم الفرصة للفشل. مع أنه ليس من الجيد عمومًا أن تركز كتب التاريخ بشكل حصري تقريبًا على أفعال الرجال البيض القدامى، ولكن بالنظر إلى موضوعنا، فأعتقد أنه من المحتمل أن يكون طرحًا عادلًا.

وأخيرًا، فإن رغبتنا في الانضمام للحشود تعني أننا سنقع فريسة سهلة لكل البدع وضروب الجنون والهوس بجميع أنواعه؛ هواجس قصيرة وجذابة تسيطر على المجتمع وترمي بالعقلانية من النافذة. ضروب الجنون هذه تأخذ أشكالا مختلفة كثيرة، قد تكون بدنية، كحمّى الرقص التي لم يجد لها المؤرخون والعلماء أي تفسير معقول، وهي حمّى مسعورة أصابت جماعات كبيرة من الناس خلال القرون الوسطى وكانت تدفعهم للرقص بلا توقف حتى الموت في بعض الأحيان.

وقد يكون الهوس ماليًا، حيث تتحد رغبتنا في الحصول على المال مع حرصنا على أن نكون جزءًا من جمهورنا وأن نصدق أي خطة للثراء السريع. فقد أثارت

الاستثمارات في بحر الجنوب في لندن في عام 1720 قدرًا كبيرًا من الاهتمام، حين تمكنت مجموعة من التجار من بيع أسهم شركة ما دون أن يعرف أحد أي شيء عن تلك الشركة. نحصل بهذه الطريقة على الفقاعات المالية؛ حينما تتجاوز القيمة المعلنة لشيء ما قيمته الفعلية. إذ يبدأ الناس في الاستثمار في هذا الشيء ليس لأنهم يعتقدون بالضرورة أن له قيمة مادية كبرى، وهكذا يفقد الكثير من الناس الكثير من المال، وأحيانًا ينهار الاقتصاد بأكمله.

والهوس الآخر المعروف هو حالات الذعر الجماعي، التي تستند غالبًا إلى شائعات تثير مخاوفنا. وقد جرى هذا في مرحلة ما من التاريخ في كل ثقافة تقريبًا في جميع أنحاء العالم (ما يقدر بنحو 50000 شخص ماتوا في جميع أنحاء أوروبا خلال موجات الرعب من الساحرات التي استمرت من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر).

هذه ليست سوى بعض الأخطاء التي تتكرر على مدار تاريخ الحضارة الإنسانية. لكن، بالطبع، قبل أن نبدأ بارتكابها، كان علينا أن نبتكر الحضارة أولًا.

2
يا لها من بيئة رائعة

استهل سكان الهلال الخصيب التاريخ المعروف عنهم قبل ثلاثة عشر ألف عام بالقيام بشؤون حياتهم بطريقة مختلفة، كان لديهم ما يمكننا وصفه بأسلوب الحياة المختلف عن كل ما نعرفه الآن، وما أقصده بعيد كل البعد عن ما نقصده حين نصف طريقة حياة أحدهم الآن بنفس العبارة «أسلوب حياة مختلف»، لأننا نقصد بهذه العبارة في عصرنا هذا الحديث ضمنيًا الآن عن كمية الكربوهيدرات التي نتناولها وممارسة مزيد من النشاطات البدنية، مع أني سأبحث في أمر الحميات الغذائية التي كانت سائدة في ذلك الزمن. أما الآن فأنا أتحدث عن أسلوب حياتهم المختلف الذي ابتدعوه، لقد كانوا أول من فكر بالأمن الغذائي، وأول من زرع المحاصيل.

لن يُسهِّل نهوض الزراعة تناول الغداء فقط؛ بل سيؤدي إلى قلب المجتمع وتغيير العالم الطبيعي من حولنا. قبل الزراعة، كانت المجموعات البشرية معتادة على التنقل مع المواسم لتجد ما تحتاجه من الطعام. وما أن بزغ عصر الزراعة حتى بدا الناس في الاستقرار لرعاية ما ينمو أمامهم من محاصيل، من أرز وقمح. هكذا بدأت أولى القرى والمستعمرات في الظهور، ثم تطورت لتصبح بلدات ثم مدنًا

صغيرة، كما يتصور كل شيء آخر.

بزغ عصر الزراعة بشكل مستقل في أماكن مختلفة خلال فترة قصيرة لا تزيد على بضعة آلاف من السنوات على عرض القارات الخمس، في الهلال الخصيب أولًا والذي يعرف أيضًا ببلاد ما بين النهرين، ثم في الهند والصين وأمريكا الوسطى أخيرًا. مع العلم أن إحدى النظريات تقول إن اختراع الزراعة لم يكن قفزة البشرية الأهم على مر العصور، وأنها في الحقيقة إحدى أسوأ أخطائنا التاريخية على الإطلاق.

ولمن لا علم لديهم حول هذه النقطة.. يمثل بزوغ عصر الزراعة بزوغ عصر «تقسيم الثروات بشكل غير عادل» حيث بدأت النخب بالظهور، وهي المجموعات التي كانت تمتلك أشياء أكثر بكثير من الآخرين مما دعاهم لإلقاء الأوامر على الآخرين، وقد يكون أيضًا فجر عصر الحروب كما نعرفها، لأن لكل قرية مخاوفها من احتمال هجوم القرى الأخرى عليها. كما سببت الزراعة أمراضًا جديدة للبشر لم تكن معروفة لديهم، لأنهم بدأوا في التجمع بأعداد كبيرة مما سبب ظهور الأوبئة. كما أن لدينا ما يكفي من الأدلة التاريخية لنؤكد أن البشر الذين كانوا يعيشون في مجتمعات غير زراعية كانوا يأكلون أكثر من الآخرين، ويعملون أقل وأنهم كانوا يتمتعون بصحة أفضل.

وإذا عدنا إلى أساس الموضوع لوجدنا أن الكثير مما تعانيه مجتمعاتنا المعاصرة يعود في الأصل إلى قيام أحدهم قبل آلاف السنين بزرع بعض البذار وانتظارها لتنمو، وقد استمرت الزراعة منذ ذلك الحين لأنها صعّدت العملية الداروينية، وليس لأنها جعلت حياة الناس أسهل من ذي قبل. فقد أدى امتهانها إلى إمكانيات جديدة في حياة الناس، إذ تمكنوا من إنجاب مزيد من الأطفال لأن الزراعة تعني أنهم قادرون على إطعامهم بدل تجويعهم، لأن الزراعة تطعم عددًا أكبر من الناس الذين كان الصيد يطعمهم، ولأنها تعني الاستقرار بدل التنقل المتواصل، كما

أنها تعني أن الفرد قادر على الاستمرار في إنجاب الأطفال بدل انتظار كل واحد منهم ليكبر حتى يتمكن من إنجاب آخر. كذلك سمحت لكل فرد بوضع يده على مزيد من المساحات للزراعة، والقضاء في النهاية على جميع من لا يمتهنونها، ومن ما زالوا يعيشون حياة التنقل. كما كتب المؤلف جاريد دياموند، مؤيد نظرية «الزراعة كانت خطأ فظيعا»، في مقال نشره عام 1987 في مجلة Discover: "لقد أُجبِرَ الإنسان على الاختيار بين الحدّ من عدد السكان أو محاولة زيادة إنتاج الغذاء، واخترنا الخيار الأخير فانتهى بنا المطاف مع المجاعة والحرب والطغيان". باختصار، فضلنا الكمية على الجودة. إنها فلسفة بشرية كلاسيكية.

ولكن بالإضافة إلى كل تلك الحجج، وضعتنا الزراعة في الحقيقة على طريق يقود إلى الكثير من الأخطاء الكارثية المباشرة والدراماتيكية. لقد بدأ عصر الزراعة حين بدأنا في تغيير البيئة من حولنا، وهذه هي الزراعة في جوهرها، أخذ النباتات ووضعها في أماكن لا وجود لها فيها، إعادة تشكيل المشهد، محاولة التخلص من الأشياء التي لا نريدها حتى نتمكن من الحصول على ما نريد.

وها قد اتضح أننا فاشلون في تقدير ما نحتاجه لنستمر في الحياة.

فالعالم من حولنا مختلف تمامًا الآن عن العالم الذي زرع فيه أسلافنا البذور لأول مرة منذ 13000 عام. لقد غيرت الزراعة المناظر الطبيعية والأنواع المزروعة عبر القارات، بينما غيّرت المدن والصناعة وميلنا الطبيعي للتخلص من أي نفايات لا نريدها في التربة والبحر والهواء. فيما تخذلنا الطبيعة أحيانًا وينقلب علينا أنصار البيئة من جهة أخرى، وأولئك الذين يهذون بلا توقف بعبارة: لا نريد إغضاب الطبيعة الأم!

هذا ما حدث للسّهول الوسطى في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف

الأول من القرن العشرين. كما هو الحال في كثير من الأحيان، بدأ كل شيء يسير بشكل جيد. كانت أمريكا تتوسع غربًا، وكان الناس يعيشون الحلم الأمريكي. حيث شجعت السياسات الحكومية الناس على التحرك غربًا وامتهان الزراعة، مع منح المستوطنين قطعًا مجانية من الأرض عبر السهول الكبرى. ولسوء الحظ، ومع حلول بداية القرن، طالب الكثيرون بمعظم الأراضي الزراعية الجيدة، وبصفة أساسية المساحات التي تحتوي على إمدادات مياه مناسبة. كان من المفهوم أن الناس أقل حماسًا للتوجه إلى الأراضي الجافة والمغبرة، فقررت الحكومة مضاعفة مساحة الأراضي الجافة المتربة التي سيتم منحها لهم. وقال المستوطنون "يبدو الأمر وكأنه صفقة جيدة".

بدا هذا للناس في ذلك الوقت أعظم فكرة في العالم، وكانت لديهم مجموعة كبيرة من الأسباب التي جعلتهم يعتقدون أن الأمور ستسير دومًا على ما يُرام. كانت الفكرة تحتوي على الكثير من الجاذبية والرومانسية والحاجة البراغماتية الأساسية لبلد متنام بحاجة إلى الغذاء. ولكن كان هناك أيضًا بعض العلوم المراوغة للغاية، والتي تقتصر على الدين: النظرية القائلة بأن "المطر يتبع المحراث"، أن الفعل البسيط المتمثل في زراعة الأراضي سوف يستدعي الأمطار الغزيرة، مما سيجعل الصحراء خصبة وخضراء. في ظل هذه النظرية، كان الشيء الوحيد الذي يوقف التوسع في الزراعة في أمريكا هو الافتقار إلى الإرادة، كما حصل في فيلم Kevin Costner الشهير، لكن مع محاصيل الحبوب بدلًا من الأشباح (كما جرى في الفيلم).. إذا قمت بزراعتها، فستأتي الأمطار.

لقد آمنوا بهذا حقًا، وقد بدأ هطول الأمطار بمجرد انتقال المزارعين إلى المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر حينما تم تطوير النظرية، لكنها كانت ببساطة فترة ممطرةً بشكل غير عادي، لكن تلك الأمطار، ولسوء الحظ، لم تهطل على

الدوام.

ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى وبدا للجميع فجأة أن كل تلك الأراضي الزراعية فكرة عظيمة: إذ توقف إنتاج الغذاء في أوروبا بسبب الحرب، لكن أمريكا كانت قادرة على البقاء على قدميها رغم الركود. كانت الأسعار مرتفعة، لكن الأمطار كانت تهطل باستمرار، فبدأت الحكومة في تقديم بعض الإعانات السخية للمزارعين لزراعة القمح، كما فعل المزارعون بشكل طبيعي، مما أدى إلى اتساع المراعي الطبيعية مع توسع المزارع.

انخفضت أسعار القمح بعد انتهاء الحرب بشكل كبير. إذا كنت تزرع القمح، ولم تكن تجني ما يكفي من المال من زراعته، فالحل واضح: أنت بحاجة إلى زراعة المزيد من القمح. فاستثمر المزارعون في المحاريث الميكانيكية الجديدة، ومزّقوا التربة أكثر. لأن المزيد من القمح يعني انخفاض الأسعار، والتي ستعيد الحياة إلى سابق عهدها لكنها ستؤدي إلى ما ستؤدي إليه... وهلم جرّا.

ثم، وعلى حين غرّة.. لم تهطل الأمطار. جفت التربة واختفت جذور الأعشاب التي منعت التربة السطحية من الانجراف خلال فترات الجفاف السابقة. فتحولت التربة إلى غبار، والتقطت الرياح تلك الغبار وحملتها إلى الغيوم وشكلت بها عواصف غبارية لم يسبق لها مثيل.

طمست هذه العواصف الغبارية التي أطلقوا عليها اسم (العواصف السوداء) نور الشمس وخنقت الهواء وقللت من الرؤية إلى أقدام قليلة - أصبحت رمزًا للغبار. هبت تلك الرياح المحملة بالغبار يوميًا في أسوأ الأعوام اللاحقة لتلك الحادثة. وحتى عندما تلاشت الرياح، فإن السحب الترابية ظلّت معلقة في السماء. كان السكان لا يرون الشمس خلال بضعة أيام سوى لمدة ضئيلة. وكان للعواصف

الترابية مدى مذهل، حيث سافر بعضها آلاف الأميال، وغطى مدنًا مثل واشنطن العاصمة ونيويورك بضباب كثيف محمل بالغبار، وكسا سفنًا على بعد مئات الأميال قبالة الساحل الشرقي بطبقة من الغبار الناعم.

استمر الجفاف والعواصف الترابية حوالي العقد من الزمن وكان لهما آثار مدمرة على الاقتصاد، بينما اضطر عدة ملايين من الناس للنزوح من مناطق سكنهم، ولم يعد بعضهم أبدًا بعد أن استقروا في الغرب، وعلى الأخص في كاليفورنيا. كما أن بعض الأجزاء من تلك المساحات لم تتعافَ حتى الآن، حتى مع رجوع الأمطار إلى سابق عهدها.

يُعد American Dust Bowl أحد الأمثلة الأكثر شهرة للعواقب غير المقصودة للتلاعب ببيئتنا. ولكن من الهندسة الجيولوجية على نطاق واسع إلى الحبيبات البلاستيكية الصغيرة.. من إزالة الغابات إلى الأنهار التي تقوم بأشياء لا يجب أن تفعلها الأنهار، فهي ليست الوحيدة.

عاصفة غبارية في ولاية كولورادو خلال العصر الغباري الأمريكي الكبير

.American Dust Bowl, 1936

لنأخذ بحر آرال كمثال، على الرغم من أنه سيتعين عليك البحث عنه بسرعة، لأنه تلاشى تقريبًا. بحر آرال، على الرغم من الاسم البارز الذي يشتمل على كلمة «البحر»، فهو في الواقع ليس بحرًا. بدلًا من ذلك، هو بحيرة مالحة، على الرغم من أنها بحيرة كبيرة جدًا، على مساحة تزيد على 26000 ميل مربع، أو هي واحدة من أكبر البحيرات في العالم، أو على الأقل كانت كذلك. المشكلة، كما ترى، هي أن مساحتها لم تعد 26000 ميل مربع.

تبلغ مساحتها الآن حوالي 2600 ميل مربع، على الرغم من أن مساحتها تزداد وتنقص مع الوقت. وما أن تصبح مساحتها بمساحة إيرلندا حتى تصل إلى عشر حجمها السابق، أي أنها فقدت أكثر من 80 في المائة من المياه. كما أنها لم تعد بحيرة ضخمة واحدة. إنها تتألف الآن من أربع بحيرات أصغر بكثير. «تقريبًا»، لأن إحدى البحيرات ربما اختفت تمامًا. أي أن ما تبقى من بحر آرال قد مات فعليًا، إنه بحر شبح لا حياة له تحيط به الهياكل العظمية المتحللة والمتآكلة للسفن التي تقطعت بها السبل منذ وقت طويل، والتي أصبحت الآن على بعد أميال من أي مياه.

هذا ما يدفعنا لطرح السؤال: كيف يمكن لنا أن نفقد بحرًا بكامله؟ (حسنًا، بحيرة كبيرة بأكملها.) الجواب ببساطة: نقوم بتحويل مجريي النهرين اللذين كانا يتدفقان إليه، لأن فكرة لامعة عن زراعة القطن في الصحراء خطرت لنا. هذا ما فعلته السلطات السوفيتية في الستينيات، لأنهم أرادوا مزيدًا من القطن. فقاموا بإعداد مشروع ضخم لإعادة توجيه المياه من نهر آمو داريا (التي تدفقت إلى بحر آرال من أوزبكستان) وسير داريا (التي وصلت إلى البحر عبر كازاخستان) بحيث يمكن تحويل السهول الجافة في صحراء كيزيلكوم إلى مناطق زراعية أحادية من

شأنها توفير احتياجات الاتحاد السوفيتي من القطن.

وكي نتناول قضيتنا بموضوعية، حققت خطة ري المزارع الإنمائية في تركمانستان وكازاخستان وأوزبكستان نجاحًا جزئيًا - مع الأخذ بعين الاعتبار بان هدفها كان طموحًا للغاية، باعتبار أن الصحارى جافة للغاية، فقد امتصت رمالها 75 في المائة من مياه النهر المحولة قبل بلوغها المزارع. كما عانوا أيضًا من مشكلة المواد الكيميائية المستخدمة لريّ القطن، والتي تسببت في ارتفاع معدلات وفيات الرضع والعيوب الخلقية. ولكن في حين كانت المحاصيل نصرًا كبيرًا بالنسبة لصناعة القطن في آسيا الوسطى، إلا أنها كانت مدمرة بالنسبة إلى بحر آرال والمناطق المحيطة بها. إذ لم يخطر في بال أحدهم - أو أنهم لم يهتمّوا ببساطة - أنه عندما نقوم بإيقاف المياه المتدفقة إلى بحيرة، فسينتهي بنا الأمر مع بحيرة أصغر بكثير، وبسرعة شديدة.

بدأ بحر آرال بالتقلص منذ الستينيات، ولكن بوتيرة متسارعة من أواخر الثمانينيات وحتى يومنا هذا. كان يستمد خمس مياهه من مياه الأمطار من قبل، وترفده الأنهار بالبقية. لذلك، وبمجرد قطع مياه الأنهار عنه، راح يتقلص باضطراد. بدأ منسوب المياه في الانخفاض، وظهرت جزر وأراض جديدة؛ ومع حلول مطلع الألفية، كانت البحيرة قد انقسمت إلى قسمين: قسم شمالي صغير وقسم جنوبي أكبر مع جزيرة ضخمة في منتصفها. لكن المياه لم تتوقف عن النقصان، فاستمرت الجزيرة في النمو إلى أن وصل شريط صغير فقط من المياه بين النصفين الشرقي والغربي من البحر الجنوبي. وفي النهاية انفصلا أيضًا، وفي صيف عام 2014، كشفت صور الأقمار الصناعية أن القسم الشرقي قد جف تمامًا، ولم يتبق في مكانه سوى الرمال. هذه البحيرة الشرقية الآن تظهر وتختفي حسب الطقس والهطولات.

إن هذا لأمر سيئ بما فيه الكفاية، لكن الأسوأ، هو أن جميع الأشياء التي كانت موجودة في الماء تبقى رغم اختفائه. وعلى وجه الخصوص، يبقى الملح. انحسر

بحر آرال، لكن الملح بقي هناك، مما جعل المياه أكثر ملوحة وأقل قدرة على دعم الحياة. ارتفعت كثافة الملح عشرة أمثالها، مما أدى لقتل كل الكائنات الحية تقريبًا في البحيرات، وتدمير صناعة الصيد المزدهرة التي عمل فيها أكثر من 60 ألف شخص. ليس ذلك فحسب، بل تفاقمت نسبة ملوثات الصناعة والزراعة وأصبحت موادها أكثر تركيزًا، ثم ترسخت على سطح الأرض المكشوفة من الأراضي الجديدة الناشئة مع تراجع المياه. ونظرًا لأن المنطقة صحراوية بالكامل، فقد التقطت الريح أطنانًا وأطنانًا من الغبار السام والملح من المساحات القاحلة الحديثة، وألقت بها في القرى والبلدات المحيطة بالبحيرات السابقة حيث كان يعيش الملايين، فارتفعت نسبة الإصابة بأمراض الجهاز التنفسي والسرطان.

لكن قضية بحر آرال لم تنتهِ بالضرورة؛ فقد أدت الجهود الأخيرة (المكلفة للغاية) لتحويل بعض المياه إليه إلى تحسن طفيف في البحر الشمالي الصغير، مع عودة الأرصدة السمكية تدريجيًا، على الرغم من أن البحر الجنوبي اختفى إلى حد كبير، لكنه لا يزال يمثل شهادة على قدرتنا على التفكير بأننا قادرون على إجراء تغييرات واسعة النطاق في جغرافية بيئتنا والظن بأن التبعات لن تدمرنا.

ومما يثير العجب، هو أن هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك لأحد الأنهار. لست متأكدًا مما إذا كان هناك رقم قياسي عالمي لـ «أكثر أنواع الأنهار التي يتم تحويلها باستمرار»، ولكن يجب أن يكون نهر Amu Darya الفائز الوحيد في تلك المسابقة. لقرون عديدة، غيّرت تدخلات الطبيعة وسلسلة من الأنظمة البشرية مسارها مرارًا وتكرارًا من تدفق ذلك النهر من بحر آرال إلى بحر قزوين (أو كليهما في بعض الأحيان) والعودة مرة أخرى. في القرن الثاني الميلادي، كان يُعتقد أنه تدفق إلى الصحراء، حيث تبخر، قبل أن ينتقل في مرحلة ما إلى بحر آرال. ففي أوائل القرن الثالث عشر، غيّر تدخل الإمبراطورية المنغولية مساره بشكل جذري، فأرسلوا

جزءًا منه ليصبّ في بحر قزوين، قبل أن يعود إلى بحر آرال في وقت ما قبل القرن السابع عشر. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، قبل فترة طويلة من ظهور الاتحاد السوفيتي، درست الإمبراطورية الروسية تحويله إلى بحر قزوين بجدية، معتقدين أنهم يهدرون المياه النهرية العذبة حين يسمحون لها بقطع الصحراء لتصب في بحيرة مالحة.

دفعتنا الزراعة في البداية إلى تغيير البيئة بطرق دراماتيكية، وغالبًا ما كان لهذا عواقب غير متوقعة، ولكنها ليست دافعنا الوحيد الآن. فقد تفوقت الصناعة على الزراعة وسبقتها في نواحٍ كثيرة في كيفية تدمير البيئة، بالإضافة لرغبة البشر في صناعة الأشياء ثم التخلص منها عبر رميها في الطبيعة دون التفكير في العواقب.

وكمثال على هذه العواقب أذكر هنا اندلاع النار في نهر كوياهوغا في وقت متأخر من صباح أحد أيام الصيف الحارة في عام 1969.

والأنهار، لكي نكون واضحين، لا تفعل ذلك. بالنسبة إلى القراء الذين لا يعرفون ماهية الأنهار، فهي قنوات مائية طبيعية، متوسطة أو كبيرة، ولا يعتبر الماء الجاري فيها مادة قابلة للاشتعال. وتؤدي الأنهار الكثير من المهام الجبارة، كنقل المياه من الأرض المرتفعة إلى الأراضي المنخفضة، وتوفير الوقت، وتشكيل بحيرات حتى يتمكن الأطفال على الأقل من تذكر شيء ما من دروس الجغرافيا الخاصة بهم. لكن لا يمكن للأنهار على الإطلاق أن تشتعل بالنيران.

وقد فعلها نهر كوياهوغا رغم ذلك في ذلك العام، مع العلم أنها لم تكن المرة الأولى. في الواقع، كانت مياه كوياهوغا - الذي يتعثر ببطء عبر شمال ولاية أوهايو الصناعية قبل انقسام مدينة كليفلاند وانزلاقها إلى بحيرة إيري، والتي وصفها أحد رؤساء بلدية كليفلاند في القرن التاسع عشر بأنها "مجاري مفتوحة عبر وسط المدينة"

وملوثة لدرجة أن النيران اشتعلت فيها ما لا يقل عن 13 مرة خلال المائة سنة الماضية. إذ احترقت مياه النهر في أعوام 1868، 1883، 1887، 1912 (حين توفي خمسة رجال في الانفجارات الناتجة عن النيران). وفي أعوام 1922 و1930. وفي عام 1936 كان الحريق مهولًا للغاية إلى درجة أنه بقي مشتعلًا لمدة خمسة أيام، وأكرر وأقول.. هذا سلوك غير تقليدي بالنسبة للأنهار. ثم اشتعلت النار فيه مرة أخرى في عام 1941 وعام 1948، وتبع ذلك الحريق الأكثر تدميرًا في عام 1952، حين اشتعلت بقعة النفط التي يبلغ سمكها 2 بوصة على سطحه، مما أدى إلى اندلاع حريق هائل دمّر الجسر وحوض بناء السفن وتسبب في أضرار بلغت قيمتها 1.5 مليون دولار.

وبالمقارنة مع حريق عام 1952، كان الحريق عام 1969 من الحوادث الصغيرة نسبيًا، بسبب الاشتعال بمزيج متخثر من النفط، والنفايات الصناعية والحطام التي امتزجت لتشكيل نوع من القمامة القابلة للاشتعال العائمة أسفل النهر، لكنها قدّمت عرضًا مثيرًا للإعجاب، فقد ارتفعت ألسنة اللهب حتى خمسة طوابق، ولكنها أصبحت تحت السيطرة بعد نصف ساعة واحدة. ومن الواضح أن دائرة إطفاء كليفلاند خبيرة بإطفاء الحرائق في هذه المنطقة. كما أنه من الواضح أيضًا أن سكان المدينة اعتادوا هذا النوع من الأشياء لدرجة أن نهر غودام الذي اشتعلت فيه النيران لم يستحق سوى خمس فقرات مقتضبة في منتصف رواية (تاجر كليفلاند).

ولكن إذا كان سكان كليفلاند الذين عانوا طويلًا من "هذه المشكلة من جديد" عام 1969، فإن الأمة ككل لم تكن كذلك. لقد تغيرت الأمور منذ آخر مرة احترقت فيها مياه كوياهوغا. حصل هذا في الستينيات من القرن الماضي، وكان المجتمع يهتز في صميمه بسبب سلسلة من الأفكار الثورية الجديدة، مثل "عدد أقل من الحروب"، "أن لا نكون عنصريين تمامًا" و"ربما من المستحسن أن نحاول عدم

تخريب الكوكب برمته".

ولذلك، حين فتحت مجلة تايم ملف النيران التي تلتهم الأنهار بعد ذلك بأسابيع قليلة، ساقتها ضمن قصة عن حالة أنهار البلاد بعنوان "نظام الصرف الصحي في الولايات المتحدة وثمن التفاؤل"، تضمنت وصفًا لا يُنسى لنهر الكوياهوجا، البنيّ الملوث بالزيوت المختلطة بغازات باطن الأرض، والتي تتدفق فيه كمجاري مياه مفتوحة تصب في بحيرة إيري بلا توقف.

شدت تلك المقالة انتباه سكان البلاد وأدت إلى مطالبات شعبية واسعة النطاق، بسبب الصور المذهلة البائسة التي رافقت المقال، فقت صورت إحدى اللقطات الدرامية مركبًا تأكله نيران النهر الملتهبة بينما يحاول فوج الإطفاء احتواء ألسنة اللهب. لكن الحقيقة هي أن الصورة لم تكن تعود للحريق الذي اندلع عام 196، بل كانت صورة مستخرجة من الأرشيف من حريق عام 1952، لأنهم تمكنوا من السيطرة على حريق عام 1969 قبل وصول أي مصور إلى موقع الحادث. كما أن الصورة تم نشرها من قبل بالفعل عام 1952، لكن الموضوع لم يستوقف أحدًا، وها هي اليوم محط أنظار الجميع.. التوقيت في بعض الأحيان هو أساس أي معادلة رابحة.

الصورة المنشورة عام 1969 لحريق نهر كوياهوجا في كليفلاند في ولاية أوهايو، الذي التهم القارب عام 1952.

انتعشت الصناعة في ولاية أوهايو مع بداية القرن التاسع عشر، وكانت هناك منتجات ثانوية ومنتجات رئيسية، وكانت جميع المصانع محيطة بنهر كوياهوجا. مما أدى إلى هبّات دورية من وسائل الإعلام والسياسيين والكلام الكثير من قبيل «آه، ربما ينبغي لنا أن نفعل شيئًا حيال ذلك؟»، ثم لا يفعل أحد أي شيء حيال الأمر. وعلى مر السنين، نفذّوا بعض التدابير غير الواضحة في الأعوام التي تلت الحرب، لكنهم كانوا مهتمين في الغالب بجعل النهر آمنًا للشحن بدلًا من جعل النهر غير قابل للاشتعال بطبيعة الحال.

لكني أعتقد أنه من غير المنصف لهؤلاء القوم أن نعتبر نهر كوياهوجا رمزًا

لتدمير البيئة المنظم وعدم اكتراث الأمة بأكملها بذلك، لأن مجلس المدينة قرر قبل عام واحد من الحريق الأخير اتخاذ تدابير احترازية لمنع تلك المصيبة من التكرار، ولتنظيف النهر من كل تلك المخلفات. وبدت الدهشة على عدد قليل من المسؤولين المحليين من حقيقة أنهم أصبحوا مشهورين على طول البلاد وعرضها بأنهم المشرفون على أقذر نهر. ووصل الأمر بالبعض إلى تأليف الأغاني عن الموضوع أو ذكره في الأعمال الفنية كمضرب للمثل عن لامبالاة الأمة بالبيئة. وقال أحدهم بصراحة: «لقد قمنا بالفعل بالأمور التي نحتاجها لتنظيف النهر، لكن النار اندلعت رغم ذلك».

بكل الأحوال، لم يكن نهرهم هو النهر المشتعل الوحيد في البلاد في ذلك الوقت، إذ اندلعت النيران في نهر بوفالو عام 1968، فيما اشتعل نهر روج في ميتشيغان عام 1969 بعد أشهر قليلة من الحادثة الشهيرة. وقد علقت جريدة ديترويت على ذلك قائلة: حين تشتعل النيران في الأنهار، هذا يعني أننا في مشكلة كبيرة. إذًا.. لم يكن نهر كويهوجا النهر الوحيد القابل للاشتعال في الولايات المتحدة، لكنه حصل بالفعل على جائزة أكثرها اشتعالًا في قارة أمريكا الشمالية، رغم النيران الملونة التي اجتاحت نهر شيكاغو عدة مرات خلال القرن التاسع عشر، والتي كانت تبدو للناظر إليها من بعيد كاحتفال يوم عيد الاستقلال، من فرط الانفجارات الملتهبة والملونة.

لكن المقال الصحفي ذاك قام بعمله على أكمل وجه، لأنه لفت نظر الأمة للموضوع، فبدأ الناس يقرأون عن الموضوع، وألفت العديد من الكتب حوله، مثل كتاب رايتشل كارسون الذي طبع عام 1962 بعنوان: الربيع الصامت. مما دفع الكونغرس بالقوة للتدخل وتمرير قانون مياه الأنهار النظيفة عام 1972.

تحسنت أحوال مياه الأنهار في أمريكا مع الوقت، إذ قلما تشتعل فيها النيران الآن. وهذا يعني أن هذه القصة هي من القصص القليلة التي تحظى بنهاية سعيدة

في هذا الكتاب، لأن البشر قاموا تمامًا بما يجب عليهم فعله لتحسين الأمور، ولا يمكن لإدارة ترامب اليوم أن تتلاعب بمعايير المياه النظيفة، كما أن الصناعات مهما ألقت من قاذورات في هذه الأنهار، فلا يمكنها أن تلوثها بالمقدار الذي يرغب فيه ترامب وحاشيته.. إنها لعبة خاسرة بالنسبة له، وقد سمعت أنهم فكروا بالأمر بالفعل، لكنهم علموا أنهم لم ينجحوا بذلك، فأقلعوا عن الفكرة.

قد يكون اندلاع النيران في الأنهار العذبة أحد أقسى الأمثلة المعبّرة عن إهمال البشر ولامبالاتهم بالبيئة ورغبتهم الغبية في تطويع الطبيعة وترويض العالم من حولهم لجعله أسوأ مما كان عليه، لكنهم ليسوا وحدهم. فالتاريخ مترع بقصص تخريبنا للطبيعة أينما حللنا، هل تعرف أن خليج المكسيك يحتوي على منطقة ميتة مهولة؟ إنها منطقة ساحلية كبيرة للغاية، مخربة بالكامل وميتة عن بكرة أبيها، وتبدأ من النقطة التي تنتهي عندها الأسمدة الكيماوية التي تفيض عن الأراضي الأمريكية جنوبًا، مما يجعلها تبدو للناظر إليها من الجو كوردة طحلبية عظمى، تزدهر فيها الطحالب التي تمتص الأوكسجين من الماء وتقتل كل ما يعيش في البحر غيرها. أحسنتم.. لقد قمتم بعمل رائع.

وماذا عن ولعنا برمي النفايات أينما طاب لنا؟ رميها دون التفكير بالمكان المناسب لرميها.. وهذا ما أدى لتشكل الأرض الإلكترونية اليباب في غويا في الصين، إنها مقبرة من عشرين ميلًا مربعًا، مخصصة لرمي نفايات العالم الصناعية، الأجهزة التي لم نعد نستخدمها.. مكدسة فوق بعضها.. أجهزة حاسوب محمول ذهبت موضتها إلى جوار أعداد لا تحصى ولا تعد من هواتف الموبايل النقالة والحديثة، لكنها تعود للعام المنصرم، فرموها مع القمامة. إن مقبرة غويا الصناعية هي ساحة الخردة الخاصة بإعادة التدوير، وهذا شيء جيد في أساسه تقنيًا، لكنها أيضًا جحيم على الأرض، بسبب الأدخنة السوداء المرعبة التي تنبعث منها ليل نهار، مع احتراق

كل تلك المعادن وإطلاقها لتلك الأبخرة السامة من بلاستيك ذائب محترق وحمض الكلوريك لينتهي بها الأمر في الجو أو التربة أو على الجلد البشري. ثم تدخلت الحكومة الصينية وأجبرت مالكيها على التقيد بقوانين السلامة العامة ومعايير البيئة النظيفة، فانخفضت الأدخنة بشكل كبير، وقد علقت جريدة الصين الصباحية على الأمر بقولها إن نوعية الهواء تحسنت بالفعل في الصين، لأن الناس القريبين من المنطقة الآن فقط هم من يشعرون بتلك الرائحة.

تلة من نفايات الحواسيب النقالة في مقبرة غويا الإلكترونية في الصين.

ولعل عملنا الأكثر إثارة للإعجاب هو دوامة القمامة الكبرى في المحيط الهادئ. ومن الشاعري أيضًا أنها تقع في وسط المحيط، إذ يوجد مكبّ نفايات ضخم ملتف على نفسه كدوامة من الفضلات التي تخلصنا منها بشكل عرضي، وهي

مساحة بحجم ولاية تكساس حيث تحافظ تيارات المحيط في شمال المحيط الهادئ على منتجات النفايات الخاصة بنا في جميع أنحاء البحر في مكان واحد. معظمها مصنوع من جزيئات مجهرية من البلاستيك وشظايا من معدات الصيد المهملة، وهو غير مرئي للعين المجردة، ولكن بالنسبة للحياة البحرية فهو شيء ملموس ومرعب للغاية. فقد قدّر العلماء مؤخرًا أنه منذ أن بدأنا في استخدام البلاستيك على نطاق واسع في الخمسينيات، صنعنا أكثر من 8.300 مليون طن منه. وألقينا من هذه الكمية 6300 مليون طن في المهملات، وهي الآن معلقة حول سطح الأرض، عائمة على مياه محيطاته.

ولكن، إذا أردنا تحديد أكثر الأمثلة تأثيرًا وشرًّا على الإطلاق على مقدرة البشر على تدمير مسكنهم الطبيعي وبيئتهم الأصلية دون قصد منهم، فلا بد لنا من إلقاء النظر على جزيرة مغطاة برؤوس حجرية عظيمة الحجم.

أصيب البحارة الأوروبيون بالذهول حين حطّوا الرحال لأول مرة على جزيرة الفصح عام 1972، وكانت بعثة هولندية تبحث عن قارة جديدة غير مكتشفة حتى ذلك الحين. إذ كيف أمكن لسكان هذه الجزيرة البولينيزية الصغيرة المنعزلة، التي تفتقر لأدوات الحضارة الحديثة ناهيك عن الأشجار - إذ لا توجد شجرة واحدة على الجزيرة بكاملها - أن تنحت وتبتكر هذه التماثيل الهائلة والمعقدة، والتي يصل طول بعضها إلى سبعين قدمًا وتزن 90 طنًا، والتي تغطي سطح الجزيرة أينما وليت وجهك فيها.

من الواضح أن حالة الذهول الهولندية لم تستمر طويلًا، لأنهم باشروا نشاطاتهم الأوروبية المعتادة فيها بعد فترة وجيزة، إذ أطلقوا النار على مجموعة من السكان المحليين وقتلوهم بعد سلسلة من الحوارات التي شابها عدم الفهم المتبادل. وعلى مر العقود التالية، زار العديد من الأوروبيين الجزيرة سالكين سلوكهم المعهود

حين اكتشافهم أراضي جديدة كليًا، كنقل الأمراض المميتة إلى السكان الأصليين، واختطاف من تبقى منهم على قيد الحياة لبيعه في سوق النخاسة وتعريفهم على الجحيم الحقيقي على الأرض. (بإمكانك النظر في الفصل المقبل لمزيد من هذه القصص).

درس الباحثون في القرون التالية لغز تلك التماثيل الغامضة وتساءلوا وما زالوا يتساءلون عن كيفية نحتها وحقيقتها ورمزيتها والهدف منها على جزيرة لا يسكنها سوى البدائيين، ووضعوا العديد من النظريات التي تراوحت ما بين نقل التماثيل من منطقتها الأصلية على بعد محيطات من الجزيرة بطريقة لا يعلمها أحد وصولًا حتى نظرية سكان الكواكب الأخرى الذين بنوا تلك التماثيل لغرض ما، وكانت نظرية سكان الكواكب الأخرى أقرب للتصديق من قبل أكثر الناس، لأنهم غير قادرين على التفكير بأن قبيلة بدائية من غير البيض قادرة على بناء تماثيل لا يتصورها عقل الرجل الأبيض. وهكذا وضعوا إجابة للسؤال، وهي الإجابة الوحيدة المعقولة بالنسبة لنا: لقد نقل أحدهم هذه التماثيل إلى هنا من مكان بعيد.. ها هي، إنه الحل.. بكل بساطة. لكن البولينيزيين الأصليين لم يبنوها بالطبع، ربما ساعدوا على تثبيتها ليس أكثر.

وحين وطئت قدم المستكشفين أرض رابا نوي، كما يسميها أهلها، كان البولينيزيون أحد أعظم شعوب العالم، كانوا أمة أرست دعائم استقرارها على جزر تمتد آلاف الأميال وسط المحيط الهادئ، فيما لم يخرج الأوروبيون من فنائهم الخلفي إذا جاز لنا التعبير عن الأمر بهذه الطريقة على مر العصور إلا في حالات قليلة شهيرة، مستثنين منهم بالطبع شعب الفايكنج الذي غزا الأرض بسفنه قبل أن يخترع الأوروبيون كلمة للتعبير عن السفينة أو الاكتشاف.

كانت جزيرة رابا نوي موطنًا لحضارة متقدمة تعتمد على مجتمع متكافل

متعاون ومجموعة من الزراعات الكثيفة وروابط أسرية قوية، حيث لا توجد بطالة ويخرج الجميع إلى العمل معًا، أي أنها كانت مكانًا تسوده كل الترهات والأكاذيب التي نهذي بها حول مجتمعنا ونعتقد أننا نعيشها في مجتمعنا المترف واللائق. والتماثيل في بولينيزيا هي تعبير مشرف عن شكل من أشكال الفنون المألوفة بالنسبة للسكان الأصليين في تلك الجزر، وكانت تحظى بأهمية روحية وسياسية لدى السكان، لتكريمها للأجداد الذين رحلوا وخلدتهم هذه التماثيل التي حملت صور وجوههم، ومنحت من يتمكن من تمويل بنائها منزلة اجتماعية عليا لأنها كانت تدل على ثرائه.

بما معناه أن الأحجية أخذت منحى آخر.. لم يعد السؤال هو كيف وصلت التماثيل إلى الجزيرة، بل أين ذهبت الأشجار التي كانت تغطي الجزيرة؟ لا بد أن السكان استخدموا أعدادًا لا تحصى من الأشجار ليتمكنوا من تثبيت التماثيل في أماكنها. بالإضافة لتساؤل آخر في محلّه.. ما الذي جرى حتى انتكست الحضارة العظيمة وتراجعت إلى مجموعة من الفلاحين البسطاء الذين لا يملكون سوى بعض القوارب، والتي ركبوها لتحية المستكشفين الهولنديين؟

والجواب هو أن أبناء تلك الحضارة العظيمة قد وقعوا فريسة للحظ السيء وخرّبوا كل شيء.

لقد أصابهم سوء الحظ لأن الجغرافيا وبيئة جزيرتهم كانت عرضة بشكل غير عادي لإزالة الغابات كما اتضح. كما يشرح جاريد دايموند (مؤلف كتاب «الزراعة كانت أكبر خطأ ارتكبناه») في كتابه «الانهيار»، الذي يضع أهل رابا نوي في مقدمة سكان جزر بولينيزيا، جزيرة الفصح صغيرة وجافة ومسطحة وباردة عن أي مكان مأهول آخر مقارنة بالجزر الأخرى، وهي العوامل التي تجعل نمو الأشجار بعد التخلص منها أمرًا غير مرجح على الإطلاق.

وقد خرّبوا كل شيء لأنهم قطعوا كل شجرة على مرأى العين في سعيهم لبناء منازل أفضل وقوارب أقوى وبنية تحتية أكثر تطورًا ولتحريك التماثيل إلى أماكنها. ربما لم يخطر في بالهم أن تلك الأشجار لن تعوّض بأخرى، إلى أن قطعوا آخر شجرة. إنها مأساة الأراضي المشاع. لا أحد مسؤول عن المشكلة مهما قطع من الأشجار، إلى أن تأخر الوقت وفات الأوان وبات الجميع مسؤولين عن المأساة.

دمرت الآثار مجتمع رابا نوي، لأنهم لم يعودوا قادرين على بناء القوارب التي تسمح لهم بالصيد من المحيط، وحملت الرياح والأمطار التربة وشتتتها في الأصقاع لأنها باتت بلا جذور تحميها من عوامل الحت والتعرية، مما أدى لافتقار التربة وجعلها أرضًا غير خصبة لا ينمو فيها شيء، فاختفت قرى بأكملها، فيما دفعتهم الشتاءات الباردة التالية إلى حرق كل ما تبقى لديهم للحصول على الدفء.

ومع ازدياد ظروفهم سوءًا ازدادت حدة المنافسة للسيطرة على المصادر الطبيعية المتبقية، مما أدى لنتيجة مأساوية لكنها متوقعة مهما بدت غريبة، آخذين في الاعتبار سلوك البشر المعتاد في المواقف الصعبة، حين تدفعهم الرغبة لموقف اجتماعي أو أخلاقي أو لمجرد الدفاع عن عنادهم رغم معرفتهم بأنهم ارتكبوا أشنع الأخطاء. لم يتوقفوا، بل تابعوا بناء التماثيل بلا كلل، لأن هذا هو ما يفعله البشر حين تواجههم مشكلة لا حل لها. وفي الحقيقة.. لم يغادر آخر تمثال نحتوه مقلع الحجارة، بينما نجد بعضها الآخر ملقى على جانب الطريق إلى المقلع، لأنه لم يجد ما ينقله لبقية الطريق.

لم يكن سكان تلك الجزيرة أقل ذكاء منك ومنّي، لم يكونوا بدائيين أو جهلاء بوضع بيئتهم، وإذا ما كنت تعتقد بأن تجاهل أي مجتمع لكارثة بيئية ماثلة أمام الأعين ومتابعة الحياة دون التوقف عن ارتكاب مسببات الكارثة يبدو تفكيرًا غبيًا، فلا بد أنك تحتاج إلى إلقاء نظرة حولك.

يطرح جاريد دايموند في كتابه الانهيار السؤال التالي: ماذا همس المواطن البولينيزي لنفسه حين قطع آخر شجرة نخيل؟ وهو سؤال ممتاز وصعب، ومن المرجح أن إجابته قد تكون نسخة بولينيزية من: لا يعيش المرء سوى حياة واحدة.

لكني أظن أن السؤال الأهم هو ما الذي طرحه الشخص الذي كان على وشك قطع شجرة من ثلاثة أشجار أو شجرة من آخر شجرتين على نفسه. إذا ما اتخذنا من التاريخ البشري أي عبرة، فيمكننا تخمين أنه همس لنفسه: هذه ليست مشكلتي.

سبع معالم مدهشة لن نراها بعد الآن لأن البشر أتلفوها

البارثينون

أحد درر الحضارة اليونانية القديمة، استخدمه العثمانيون حتى عام 1687 كمستودع للبارود خلال حربهم مع مدينة البندقية، وقد اختفى بلمح البصر حين استهدفته مدافع العدو للتخلص من البارود المترع داخله.

معبد أرتميس

أحد عجائب العالم السبع الحقيقية، وكان موجودًا حتى عام 356 ميلادية، إلى أن أحرقه رجل يدعى هيروستراتوس لجذب انتباه المواطنين إليه.

بحيرة بويونج كاك

أكبر وأجمل بحيرة في عاصمة كمبوديا بنوم بنه، إلى أن قرروا ردمها بالرمال لبناء شقق فاخرة في مكانها. نرجو منك أن تصفق لهم.

تماثيل بوذا باميان

تماثيل غوتاما بوذا العظيمة في وسط أفغانستان، والتي يزيد طولها عن المائة قدم، والتي فجرتها طالبان في عام 2001 لأنها «أصنام» حسب تعبيرهم الخاص.

نوهمول

هرم كبير بنته حضارة المايا، وهو أفضل آثار المايا في جزيرة بيليز، فككه عمال البناء عام 2013 لاستعمال حجارته في أعمال بناء الطرق.

نهر سليمز

اختفى نهر عظيم في مقاطعة يوكون في كندا تمامًا خلال أربعة أيام عام 2017 لأن النهر الجليدي الذي كان يغذّيه غير مساره بسبب التغيرات المناخية.

شجرة تينيرا

أكثر الأشجار انعزالًا على وجه الأرض، وقفت وحيدة وسط صحراء الصحارى إلى أن صدمها سائق مخمور وأوقعها أرضًا بسيارته عام 1973 رغم أنها الشجرة الوحيدة على مسافة أميال من الأرض المقفرة.

3
الحياة تجد دومًا طريقة للبقاء

إلى جانب تطوير زراعة المحاصيل، قام المزارعون الأوائل قبل آلاف السنين بشيء آخر له أكبر الأثر في تغيير عالمنا، وبتغييره بطرق غريبة لا تخطر في البال، إذ أنهم بدأوا بتدجين الحيوانات.

في الواقع، يعود تاريخ تدجين أول الحيوانات إلى ما قبل تطوّر الزراعة بآلاف السنوات، رغم أني أشك بأن الموضوع حصل بناء على خطة، المرجح أن الأمر كان مجرد حادثة سعيدة، مسألة حظ لا أكثر. وكانت الكلاب هي أول الحيوانات المدجنة، ويعود أول آثار تدجينها إلى ما بين 15 ألف و40 ألف سنة، في كل من أوروبا وسيبيريا والهند والصين وأي مكان آخر. وقد نتجت هذه الفوضى في تأريخ الحدث بسبب الاختلاط والغموض في السلاسل الوراثية للكلاب نفسها، لأن الكلاب تتزاوج مع أي كلب يلوح في الأفق، هكذا بكل بساطة. من المحتمل أن أحد أسلافنا الصيادين استيقظ يومًا وقرر أن يصبح صديقًا لأحد الذئاب التي كانت تلاحقه، لأني اعتقد شخصيًا أن الكلاب دجّنت أنفسها بأنفسها بالبداية، حين كانت تلاحق

الصيادين والعشائر المهاجرة لأن البشر يحملون معهم الطعام ويرمون ما يفيض عنهم أو ما لا يأكلونه. ومع الوقت، بدأت تلك الذئاب البرية في التأقلم مع الحياة إلى جانب البشر، فيما أدرك البشر أن معيشة بعض الذئاب الأنيسة معهم أمر مفيد للحياة والصيد على حد سواء، كما أنهم كانوا يزدادون لطفًا مع الوقت ويدفئون الليالي الباردة بفروهم الكثيف.

ولكن، ما أن بزغ عصر الزراعة حتى أدرك البشر أنهم قادرون على تهجين الحيوانات واستئناسها كما فعلوا مع النباتات، وأن ذلك سيوفر عليهم عناء الخروج للصيد. وهكذا، عملوا على تدجين العنز والنعاج والخرفان قبل 11 ألف عام في بلاد ما بين النهرين، لأن هناك ما يدل على وجود قطعان من تلك الحيوانات بعد ذلك التاريخ بخمسمئة عام في تركيا والمناطق المحيطة بها، وظهرت نفس الأدلة في نفس الوقت تقريبًا في مناطق في باكستان. كما تم تدجين الخنازير مرتين، قبل 9 آلاف عام في الصين، ومرة أخرى بعد ذلك بفترة في تركيا. وفي الفيافي الأوراسية المترامية الأطراف، تم تهجين الخيول في حوالي الألف السادسة قبل الميلاد في مكان ما في ما يعرف اليوم بكازاخستان. بينما قام البشر بتدجين خنازير غينيا البرية في البيرو قبل سبعة آلاف عام، وهو أمر أقل أهمية من تدجين الخيول وحيوانات المزارع لكنه كان خطوة أخرى على الطريق.

كان لهذه الخطوة تأثير كبير ومنافع كبيرة على حياة البشر، فقد أمنت لهم مصدرًا ثابتًا للبروتين للطعام، والصوف لصناعة الملابس والسماد الطبيعي لتخصيب التربة. إلا أنها أدّت إلى نتائج سلبية على بعض الأصعدة الأخرى كما ذكرنا في الفصل السابق، فالاحتفاظ بالحيوانات على هذه المسافة القريبة من البشر، كان يؤدي في معظم الأحيان لانتقال أمراض غريبة إلى أبناء البشر، بينما أدى تدجين الأبقار والخيول إلى بدء عصر الاستبداد المبني على الثروة وتركزها في أيدي القلة، أي أنها

مرتبطة بشكل مباشر بانعدام العدالة الاجتماعية، كما كان للاستعانة بالخيول والفيلة في الحروب أكبر الأثر على ترجيح الكفة نحو من يملك منها أكثر من الطرف الآخر.

بالإضافة لذلك.. دفعنا تدجين الحيوانات إلى الظن بأننا أسياد الطبيعة، وأن الحيوانات والنباتات موجودة لخدمتنا. لكن تصوراتنا لم تكن في محلها كما سنرى في هذا الفصل، فقد ارتدّ علينا اعتقادنا الثابت بأننا قادرون على تسخير الكائنات الحية لتفعل لنا ما نحتاجه منها بأبشع الطرق.

على سبيل المثال، دعنا نعد إلى عام 1859، حين شعر توماس أوستن بأن صحته ليست على ما يرام.

وصل أوستن، المواطن البريطاني، إلى المستعمرة الأسترالية في سني مراهقته، وها هو الآن أحد ملاك الأراضي الأثرياء وأصحاب قطعان المواشي الكبرى، إذ أنه كان يملك أكثر من 29 ألف هكتار من الأرض إلى جانب مدينة فكتوريا. حاول أوستن تحقيق أحلام أجداده ومساعيهم القديمة بحماس منقطع النظير، فكان رجلًا رياضيًا، وكان ينهمك معظم وقته في استيلاد الخيول والعمل على تحسين سلالاتها، كما عمل على تدريب خيول السباق وحوّل معظم أرضه إلى محمية للحياة الطبيعية والصيد المنظم، فحازت ملكيته على شهرة كبيرة في مجتمعات أستراليا المخملية إلى درجة أن دوق إدنبرة كان من زواره المداومين كلما زار الأخير المستعمرة الأسترالية. وحين مات أوستن بعد ذلك بعقود طويلة، كُتِبَ في نعيه أنه كان ممثلًا حقيقيًا للسيد البريطاني النبيل، وأن هذا المثال كان نادرًا في أستراليا وفي بريطانيا على حد سواء.

قاده تصميمه لممارسة حياة ريفية تقليدية في منطقة هائمة على أطراف العالم إلى محاولة تقليد ومحاكاة بريطانيا القديمة، وفي هذه النقطة تمامًا كمنت

مصيبته.

فقد قرر أوستن أن الصيد في مقاطعته سيتطور كثيرًا إذا ما استورد بعضًا من الحيوانات البريطانية الكلاسيكية إلى ملكيته، لأن حيوانات الكنغر وأشباهها لم تكن ترضي غروره، ولم تكن تكفيه. فطلب من ابن أخيه شحن عدد كبير من الأرانب البرية وطيور الحجل والعديد من حيوانات البرية البريطانية. وقد خطب في ضيوفه حين أولم لهم على شرف ذلك التطور قائلًا: أقدم لكم قليلًا من أرانب الوطن، لن تؤذي أحدًا وسيشعرنا بوجودها بأننا نصطاد في بلادنا، إنها لمسة من أرض الوطن.

وقع أوستن في خطأ كبير حين قال لضيوفه بأن هذه الأرنب لن تؤذي أحدًا، لكنه كان على حق حين قال أنها ستسعدهم في ساعات الصيد.

لم يكن أوستن أول شخص يأتي بالأرانب إلى أستراليا، لكن أرانبه هي المسؤولة عن الكارثة التي جرت. مشكلة الأرنب هي تكاثرها السريع، فقد أوجز صديقنا أوستن المشكلة بنفسه حين كتب في أحد خطاباته لصديق له بعد مرور عامين على خطابه الأول في ضيوفه، أنه لا يعرف ماذا يفعل الآن بأرانبه، لأنه يملك منها الآن آلافًا مؤلفة.

لكن عددها لم يبقَ على ما هو عليه، لأن الإحصائيات تقول بأن الناس اصطادوا ما مجموعه مليوني أرنب بعد مرور عشر سنوات على ذلك على أطراف مدينة فكتوريا وحدها. ثم انتشر جيش الأرانب في المدينة واجتاح ما يزيد على 80 ميلًا مربعًا من الأراضي كل عام، وقد شاهدها الناس في عام 1880 في مقاطعة نيوساوث ويلز، وشاهدوها في كوينزلاند وجنوب أستراليا عام 1886، ثم وصلت أخيرًا إلى غرب أستراليا عام 1890 والمقاطعة الشمالية عام 1900.

وفي أوج الطاعون ذاك، تم تقدير عدد الأرانب بعشرة مليارات أرنب، أي أنها

كانت منتشرة بمتوسط 3 آلاف أرنب في كل ميل مربع.. لقد غطت الأرانب أستراليا وزاحمت البشر.

لكن الأرانب لم تتكاثر فقط، بل تناولت كل ما شاهدته أمامها. وقفت السلطات عاجزة أمام ذاك الاجتياح، ولم تتمكن من ردع الأرانب عن تناول جميع المزروعات مما أدى لانقراض بعضها تمامًا من تلك المناطق، كما أن نضوب الأعشاب والمزروعات ذاك دفع العديد من الكائنات الأخر إلى حد التضور جوعًا وقارب بعضها من الانقراض أيضًا، فيما اختفت طبقة التربة السطحية بسبب الحت والتعرية بعد التهام الأرانب لكل النباتات التي كانت جذورها تمسك بالتربة وتحفظها من التطاير مع الرياح.

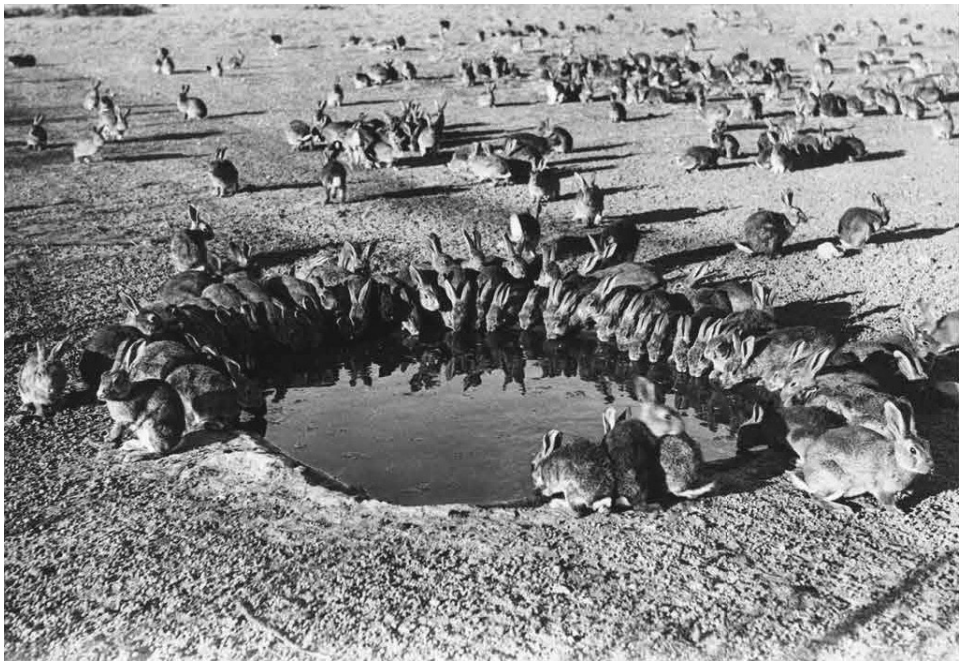

قطيع من الأرانب يشرب الماء قرب مدينة أديلايد في

أستراليا عام 1961.

اتضح حجم المشكلة بحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، واتضح أيضًا أن السلطات عجزت عن فعل أي شيء لمواجهة الكارثة، وبدا واضحًا للجميع أن أحدًا لا يستطيع أن يحيل بينهم وبين الأرانب. فوضعت حكومة نيو ساوث ويلز إعلانًا يائسًا إلى حد ما في جريدة سيدني مورنينج هيرالد، ووعدت فيه بدفع مبلغ 25000 جنيه إسترليني لأي شخص أو أشخاص يقدمون طريقة أو حلًا لم تكن معروفة من قبل لإبادة الأرانب.

حاول الأستراليون على مدار العقود التالية إطلاق النار على الأرانب وحبسها وتسميمها... حاولوا حرقها وخنقها في أنفاق مخصصة لذلك. وبنوا في القرن العشرين سياجًا طوله أكثر من ألف ميل لمحاولة إبعاد الأرانب عن غرب أستراليا، لكن ذلك لم ينجح لأنه اتضح أن الأرانب يمكنها حفر الأنفاق، وعلى ما يبدو تعلم تسلق الأسوار أيضًا.

تعد مشكلة الأرانب في أستراليا واحدة من أشهر الأمثلة على حقيقة لم نتوصل إليها إلا بعد فوات الأوان: أن النظم الإيكولوجية هي أمور معقدة، وأن عواقب العبث بها تقع على مسؤوليتنا وحدنا. فالحيوانات والنباتات لن تلعب اللعبة حسب قوانيننا عندما نقرر نقلها من مكان إلى آخر. «الحياة»، كما قال فيلسوف عظيم ذات مرة، «تجد سبيلًا للبقاء والهرب من أي سجن، إنها قادرة على الظهور في مناطق جديدة وبعيدة مما يصيبها بالكثير من الضرر ولربما الألم، لكنها تبقى موجودة». وأعني هنا بالفيلسوف العظيم شخصية العالم في فيلم الحديقة الجوراسية التي قام بها الممثل جِف غولدبلم.

ومن المفارقات المثيرة للسخرية أنه بعد فشل محاولة إدخال الأرانب في أستراليا في المقام الأول، وجد أصحابنا أن الحل النهائي هو المتابعة في استخدام الطبيعة لتحقيق مآربهم. فجرّب العلماء الأستراليون على مدى عدة عقود استخدام الحرب البيولوجية على الأرانب: كإدخال الأمراض على أمل أن يتم القضاء عليها في الخمسينيات. وقد حققت هذه الفكرة بعض النجاح لفترة من الوقت، مما قلل من عدد الأرانب بشكل كبير، لكنه لم يستمر. فقد اعتمدت طريقتهم على البعوض لنقل الفيروس، لذلك لم تكن فعالة في المناطق التي لا يتكاثر البعوض فيها. طوّرت الأرانب الباقية في نهاية المطاف طريقة لمقاومة المرض وبدأت أعدادها في الازدياد مرة أخرى.

لكن العلماء تابعوا البحث عن عوامل بيولوجية جديدة لمساعدتهم. فعملوا في التسعينيات على اختراع فيروس النزيف الذي يصيب الأرانب. لطالما كان تجريب الأمراض عمل خطير، ولهذا قام العلماء بتجاربهم على جزيرة قبالة الساحل الجنوبي، للحد من خطر تفشي الفيروس وانتشاره إلى البر الرئيسي. ولكن، احزر ما الذي حدث!

تسرب الفيروس في عام 1995 وانتشر إلى البر الرئيسي. وجدت الحياة طريقة للهرب من الجزيرة، عن طريق ركوب أول رحلة مغادرة على متن بعض من الذباب. وبعد أن أطلقت الحكومة بطريق الخطأ قاتلًا بيولوجيًا للأرانب في البراري، أسعد العلماء إلى حد ما بملاحظة أنه يعمل بالفعل. في السنوات العشرين التي انقضت منذ أن تم إطلاق فيروس نزيف الأرانب عن طريق الخطأ في الحياة البرية، تراجعت أعداد الأرانب في جنوب أستراليا مرة أخرى، في حين عادت النباتات والحيوانات التي دُفعت إلى حافة الانقراض بالظهور وعادت أعدادها إلى الارتفاع. دعونا نتمنّ فقط أن نصطدم في المستقبل بأي أعراض جانبية لهذا الفيروس القاتل.

والأرانب الاسترالية ليست المثال الوحيد الذي يجب أن يقنعنا بعدم التلاعب بمواطن حياة الحيوانات والنباتات، وأننا يجب أن نتركها وشأنها في نفس المكان الذي

اعتادت أن تعيش فيه.

كما جرى اصطياد سمكة وحش نهر النيل، الكائن المتوحش الذي يمكنك أن تتخيل حجمه وموطنه الطبيعي من اسمه وحده. إلا أن حكومة المستعمرة البريطانية التي كانت تحكم شرق أفريقيا في ذلك الوقت قررت التخلص من ذلك المستوطن الأصلي، وإرساله ليعيش في بحيرة فكتوريا، أكبر بحيرة في أفريقيا. احتوت تلك البحيرة في ذلك الوقت على العديد من الأنواع من الأسماك، وكانت حركة الصيد في أوجها، لكن السلطات البريطانية رأت أن نقل تلك الأسماك الهائلة المتوحشة قد يساعد على تطوير الوضع نحو الأفضل. كانت أكبر مجموعة من الأسماك في البحيرة في ذلك الوقت هي أنواع مختلفة من سمك القشيش الصغيرة نسبيًا، وكانت أنواعها تُعَدُّ بالمئات، وهي أسماك صغيرة ذات مظهر جميل محبّب لهواة تربية الأحياء المائية. لسوء حظّ تلك الأسماك، شعرت السلطات الاستعمارية البريطانية بالكراهية تجاهها، ووصفتها بأنّها «سمكة قمامة».

قررت السلطات أن بحيرة فيكتوريا ستكون أفضل بكثير مع أسماك أكبر حجمًا وأكثر جمالًا فيه، مما من شأنه أن يزيد من حركة صيد الأسماك. وقد حذرهم الكثير من علماء الأحياء من فكرتهم هذه، ولكنهم لم يكترثوا وأحضروا الوحش بالفعل في عام 1954 إلى البحيرة. فقام الوحش بما تفعله بقية الوحوش، أكل كل ما وقعت عليه عيناه.. وقضى على كل الأجناس الموجودة في تلك المياه، جنسًا تلو الآخر.

كان المسؤولون البريطانيون على صواب حيال أمر واحد، فقد ازدهرت حركة الصيد بالفعل. إذ أثبتت وحوش النيل شعبية كبيرة كصيد تجاري للطعام وصيد متعة لقضاء وقت الفراغ على حد سواء. ولكن، بينما ارتفعت قيمة صناعة الصيد بنسبة 500 في المائة، ودعمت مئات الآلاف من الوظائف، انخفض عدد الأنواع في بحيرة فيكتوريا، وانقرض أكثر من 500 نوع آخر من الكائنات البحرية، بما فيه أكثر

من 200 نوع من الأسماك الرخيصة التي كانت مصدر الغذاء الوحيد للفقراء الذين يعيشون حول البحيرة.

سمكة وحش النيل بوزن 80 كيلوغرام على ظهر أحد الصيادين في أوغندا.

والحقيقة المرّة، هي أن الحيوانات ليست الكائنات الوحيدة التي تخرج عن نطاق السيطرة حين نقلها من مكان إلى آخر، فكرمة الكودزو هي نوع من أنواع الكروم الشائعة في أنحاء آسيا، تم تقديمها على نطاق واسع في الولايات المتحدة الأمريكية في الثلاثينيات في محاولة لحل مشكلة ذكرناها بالفعل: Dust Bowl. وكان المسؤولون يأملون في أن تساعدهم الكرمة سريعة النمو على التخلص من تعرية التربة ومنع حدوث المزيد من التآكل. وكانت تلك النباتات جيدة جدا في فعل ذلك. ولكن، لسوء الحظ، كانت الكرمة تجيد أيضًا خنق النباتات والأشجار الأخرى، وكذلك

المنازل والسيارات وأي شيء آخر تصادفه. فانتشرت بلا توقف على نطاق واسع في جميع أنحاء جنوب الولايات المتحدة بحيث أن السكان لقبّوها بالكرمة التي أكلت الجنوب.

وكي نكون منصفين لتلك النباتات البريئة التي اقتلعت من موطنها الطبيعي لاستعمار منطقة أخرى، إنها لا تبدو كنبات الشيطان الشبيه بالثعبان كما وصفها الناس. وقد وجدت الدراسات الحديثة أنها تغطي مساحة أقل من المتوقع. ومع ذلك، يتواجد الكثير منها في أماكن جديدة لم تكن تنمو فيها قبل 80 عامًا، وما زالت الحكومة الأمريكية تدرجها رسميًا ضمن قائمة "الأعشاب الضارة".

قد يكون الوقت مناسبًا الآن للبدء في الشعور بالأسف لتدخلنا في شؤون الطبيعة، فقد انقلبت الأمور على عقبيها حتى بالنسبة للأنواع الغازية التي نقلها البشر من مكان آخر، وأصبح لديها أعداء طبيعيون يقضون عليها باضطراد. في وقت ما في عام 2009، تمكنت حشرة آكل كرمة الكودزو اليابانية من شق طريقها عبر المحيط الهادئ، وحط بها الرحال في ولاية أتلانتا الأمريكية لاكتشاف وجود كرمات كودزو لا نهاية لا. وفي غضون ثلاث سنوات فقط، انتشرت عبر ثلاث ولايات وقضت على ثلث الكرمات التي انتشرت بلا هوادة في السابق. انتهينا من أمر الكرمات لحسن الحظ، لكن الحشرات ما زالت تقضي على محاصيل أخرى، كفول الصويا، الذي يعد أهم مصدر دخل لمزارعي تلك الولايات. مما يعني أن الحلول التي تجد طريقها إلينا عبر الصدف وحدها قد تشكل مصائب أخرى لا يمكننا تخيلها.

لم ينتهِ بنا المطاف بحمل أجناس من مكان إلى آخر لفرضها في بيئات جديدة فقط، بل قمنا أيضًا باختراع أجناس جديدة لم تكن موجودة من قبل. هذا ما حصل عام 1956، حين استورد العالم البرازيلي كير بعض ملكات النحل الأفريقية من تنزانيا في محاولة منه لمزاوجتها مع النحل الأوروبي، طمعًا في الحصول على جنس مطوّر

متلائم مع الطبيعة والبيئة البرازيلية.

لسوء الحظ، بعد مرور عام على تزاوج النوعين في المختبر، حدث الشيء الذي كان يحدث دائمًا. كان مربي النحل يعمل في مختبر كير في ريو كلارو، وهي مدينة تقع إلى الجنوب من ساو باولو، حين هربت ستة وعشرون من ملكات النحل التنزانية، تلاها عن كثب جيوشها الشخصية من النحل الأوروبي، ليستقر بها الأمر في البرازيل. بدأت الملكات تتكاثر بشكل عشوائي مع أي من ذكور النحل الذين صادفتهم، وأنتجت سلالات هجينة مع أنواع مختلفة. انتشر النحل "الأفريقي" بسرعة في جميع أنحاء أمريكا الجنوبية، ثم أمريكا الوسطى ثم وصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إنها أصغر حجمًا من النحل المألوف وتحتوي على سمّ أقل، لكنها أكثر عدوانية في الدفاع عن خلاياها، وهي تنتج عددًا يصل إلى عشرة أضعاف عدد النحل الذي تنتجه الخلايا الأخرى. وقد مات ما يصل عدده إلى ألف شخص نتيجة لهذه اللدغات، وهذا هو السبب في أن النحل انتهى به الأمر لحمل لقب "النحل القاتل". وهو لقب غير عادل بعض الشيء، إننا لا نفهمها فقط.

إذا أردنا الحديث عن غباء البشر وعدم مقدرتهم على فهم أن الطبيعة ليست مجالًا مناسبًا للتلاعب بالأشياء على هوانا، وأنها نظم معقدة تعتمد على توازن دقيق للغاية لتستمر على شكلها الحالي، وأن أي تدخل سيعود علينا بالضرر، لوجدنا أنفسنا أمام أهم قصتين على الإطلاق في هذا المجال. فقد ارتكب شخصان تفصل بينهما أزمنة مختلفة ومحيطات شاسعة خطأين متشابهين وكأنهما ينظران لبعضهما في المرآة رغم الفرق الزماني والمكاني ما بينهما. كان أحدهما دكتاتورًا مهووسًا والآخر عاشقًا للفنون والأدب. إلا أن هذين الخطأين كان لهما أكبر الأثر على ما جرى بعد ذلك، كما أن خطأيهما نبعا من نفس المصدر، فقد استهان كل منهما بقدرات الطيور.

احذر من الاستهانة بقدرات الطيور الجزء الأول: الوباء بعيد جدًا من هنا

يجب أن تصنف حملات ماو تسي تونغ الأربع للقضاء على الآفات على أنها الأكثر نجاحًا في تدمير الصحة العامة على الإطلاق. فقد تكاتفت جميع كوادر المجتمع وعناصره لتحقيق الهدف، وتخطته بدرجة مذهلة.. إذ أنه من المؤكد أن نصف هذه الأهداف قد أدت بالفعل إلى تحسينات واسعة النطاق في صحة الأمة، فتحقيق اثنين من أربعة ليست أمرًا سيئًا على الإطلاق، كما يعتقد الدارسون. لكن المشكلة هي أن الهدف الرابع أدى إلى مقتل عشرات الملايين.

نشأت المشكلة من فشلنا ذاته في إدراك أن النظم الإيكولوجية هي أمر معقد لا يمكن التنبؤ به أو تسييره حسب رغباتنا. آه.. نعم، لم نتوقف عن اقتراح تعديل ما هنا أو هناك، وربما التخلص من نوعين من الأحياء هناك.، معتقدين أن هذا سيجعل كل شيء أفضل. عند هذه النقطة، تتلاحق العواقب غير المقصودة مع بعضها، ويقع المحظور.

كانت البلاد في حالة صحية حرجة حين أمسك الزعيم ماو بزمام السلطة في الصين في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين. فقد كانت الأمراض السارية في أوج انتشارها.. من الكوليرا إلى الطاعون والملاريا. وإذا ما كان ماو يهدف إلى تحويل بلاده الزراعية بسرعة من النظام الإقطاعي إلى بلاد صناعية حديثة، فلا بد أنه كان بحاجة لبناء محطات توليد الكهرباء لتزويد تلك المنشآت الصناعية بالكهرباء.

كانت أحد الجلول المقترحة من علمائه والمعقولة طبعًا هي حملة لقاحات واسعة النطاق والعناية بالنظافة العامة والتعقيم على أعلى المستويات وإلى ما هنالك. لكن المشكلة بدأت فعليًا حين ألقى ماو بلائمة الأمراض والأوبئة على

الحيوانات.

ينشر البعوض الملاريا، وتنشر الفئران الطاعون. كان هذا أمرًا واضحًا لا يمكن إنكاره. وهكذا تم وضع خطة وطنية للحد من أعدادهم. لسوء الحظ، لم يتوقف ماو عند هذا الحد. إذا كانت مجرد حملة لمكافحة الحشرات، لكن ماو قرر (دون أن يكلف نفسه عناء القيام بأي شيء مثل طلب رأي الخبراء أو أي شيء آخر) إضافة نوعين آخرين أيضًا. إذ قرر القضاء على الذباب، باعتباره حشرة مزعجة هي الأخرى. أما الآفة الرابعة، فقد كانت عصافير الدوري.

اعتقد ماو وعلماؤه أن العصافير تلتهم الحبوب، إذ يمكن لعصفور واحد أن يأكل ما يصل إلى 4.5 كجم من الحبوب خلال عام واحد، والحبوب يمكن استخدامها بدلًا من ذلك لإطعام شعب الصين. حسب العلماء حساباتهم تلك وقرروا أنه يمكن إطعام 60000 شخص إضافي مقابل مليون عصفور يتم القضاء عليه.. من يمكنه رفض فكرة كتلك؟

بدأت حملة القضاء على الآفات الأربعة في عام 1958، وقد بذل المسؤولون عنها مجهودًا رائعًا. إذ طالبوا عن طريق الملصقات الموزعة في جميع أنحاء البلاد بأن يقوم كل مواطن - من صغيرهم إلى كبيرهم - بواجبه المتمثل بقتل أكبر عدد ممكن من الطيور. أعلنت السلطات للأمة أن «الطيور كائنات مطلوبة للعدالة». كان الناس مسلحين بكل شيء بدءًا من قاذفات الذباب إلى البنادق، ودربوا أطفال المدارس على كيفية إسقاط أكبر عدد ممكن من العصافير. خرجت الحشود المبتهجة بالإذن بقتل العصافير إلى الشوارع وهم يلوحون بالأعلام أثناء انضمامهم إلى المعركة ضد الطيور، وبدأوا بتدمير أعشاش عصافير الدوري وتحطيم بيضها، بينما أخرج المواطنون الذين يقرعون الأواني والمقالي ما بقي منها بين أغصان الأشجار كي لا تشعر مجددًا بالأمان وتحط على غصن أي شجرة. طارت العصافير حتى شعرت بالتعب، ثم راحت

تتساقط من السماء ميتة من الإنهاك. قدرت الإحصائيات فيما بعد أنهم قضوا على مائتي ألف عصفور دوري في اليوم الأول من الحملة في شنغهاي وحدها. وعنونت جريدة الشعب اليومية مقالاتها في ذلك اليوم بالآتي: لا نترك منها عصفورًا واحدًا على قيد الحياة، إلى أن تنتهي المعركة.

ربح البشر المعركة ضد العصافير بالفعل، وكانت نصرًا مبينًا نظرًا لأهدافها المنشودة، كانت انتصارًا ساحقًا للبشرية ضد أضعف المخلوقات. وهكذا قضت هذه الحملة على مليار ونصف من الجرذان وأحد عشر مليون كيلوغرام من البعوض ومائة مليون كيلوغرام من الذباب، بالإضافة لمليار عصفور دوري.

لسوء الحظ، سرعان ما اتضحت نتائج الحملة السلبية، فتلك المليارات من العصافير لم تكن تتناول الحبوب فقط، بل كانت تأكل الحشرات أيضًا، والجراد منها على وجه الخصوص. وهكذا.. تحرر الجراد من جميع الكائنات التي كانت تزاحمه على حياته، مما كان يمنعه من التكاثر بلا حساب، فراح يتكاثر ويتكاثر بلا توقف. وإذا ما وضعنا مقارنة بين الجراد وطيور الدوري التي كانت تتناول بعضًا من الحبوب هنا وهناك، اجتاح الجراد الفيافي والسهول والمزارع الصينية وحامت أسرابه كالغمام فوق المحاصيل بلا نهاية. وفي عام 1959، حين سبق السيل العذل، أنصتت حكومة ماو تسي تونغ لأحد العلماء الذي كان يحذر من كل تلك المخططات من البداية، واسمه تسو هسن شنغ، فأحضروا طيور دوري من أماكن أخرى لتحل مكان تلك التي قضوا عليها. لكن الأوان كان قد فات بالفعل، لأن المرء لا يستطيع استبدال مليار عصفور بألف منها حين يحتاجها.

وكي نكون منصفين.. لم يكن القضاء على العصافير سبب المجاعة الوحيد، والتي ضربت الصين بعد هجوم الجراد لثلاث سنوات تالية بين عامي 1959 و1962، بل كانت مجموعة من القرارات الحكومية الحمقاء التي قادت برمتها لتلك النتيجة.

فقد حاولت الحكومة فرض الأساليب الجديدة على الفلاحين المعتادين على أساليب الزراعة التقليدية مثلًا، إذ حاولوا تطبيع أساليب الزراعة الحديثة المستوردة من الاتحاد السوفيتي، كما حاولوا تطبيق خطة حمل المحاصيل وإرسالها إلى المناطق البعيدة عن أماكن زراعتها الأصلية لزيادة انتشارها كما زعموا.

أدت الدوافع النفسية وغرور المسؤولين على جميع المستويات للإبلاغ عن نتائج إيجابية إلى إيهام قادة البلاد بأن «كل شيء كان على ما يرام» وأن الأمة تحصل على ما يكفي من الغذاء. وهكذا.. حين توالى الطقس السيئ لسنوات متلاحقة، كالفيضانات في بعض أجزاء البلاد، والجفاف في مناطق أخرى، لم يجد الشعب ما يأكله، وحلت المجاعة.

كان قتل العصافير وطمس المحاصيل الأصلية واستبدالها بأخرى واستبدال الأدوات ثم القضاء على المحاصيل بسبب الجراد أسبابًا دفعت جميعها بالمأساة إلى أوجها، فقد توفي ما يقدر عدده بخمسة عشر مليار إلى ثلاثين مليار إنسان. وأعتقد شخصيًا أن عدم قدرتنا على معرفة عدد الموتى، واحتمال أن خمسة عشر مليونًا منهم وربما أكثر يدخل في خانة التقدير هو أمر مرعب لا يمكن تصوره.

يمكن لنا أن نأمل بأن نتعلم من درس بهذه القسوة، ألّا نتدخل بالطبيعة لأننا لا نعرف أبدًا تبعات أفعالنا. لكننا لم نتعلم، إذ أمرت الحكومة الصينية في عام 200 بإبادة أنواع معينة من القطط المنتشرة في البلاد استجابة لتفشي فيروس السارس، مما يشير إلى أن قدرة البشر على التعلم من أخطائهم لا تزال هشة كما كانت دائمًا.

لا تستهن بالعصافير الجزء الثاني: شكسبير في الحديقة

ارتكب يوجين شيفلين نفس الخطأ الذي ارتكبه الرئيس ماو، إلا أنه ارتكبه في الاتجاه المعاكس. وحيث أن خطأ ماو كان مدفوعًا بمجموعة من أهداف الصحة العامة والديكتاتورية، فإن الفوضى التي سببها شيفلين في نظامه الإيكولوجي - وهي كارثة طبيعية من صنع الإنسان ما تزال مستمرة حتى يومنا هذا - كانت مدفوعة بالكامل بأهوائه.

انتهى الأمر بأحد أفعال شيفلين الهوائية في صباح يوم بارد من ربيع عام بانتشار وباء دمّر ما قيمته مئات الملايين من الدولارات من المحاصيل كل عام، وقتل 62 شخصًا في تحطم طائرة. وهذا كثير جدًا على أضرار لحقت بنا لأن أحدهم كان يحاول فقط إظهار مقدار إعجابه بشكسبير.

كان شيفلين صاحب شركة تصنع الأدوية في مدينة نيويورك. ولكن، على الرغم من «مخاطر» احتمالات إلحاق الضرر الكبير بالناس في هذه المهنة، إلا أن إسهامه في الفوضى البيئية لم ينتج من مهنته، بل من هواياته. لقد كان شغوفًا للغاية بموضتين سائدتين في عصره، وهما الإخلاص المطلق لأعمال شكسبير، وزرع النباتات في مناطق جديدة لم تدخلها من قبل. في ذلك الوقت، كانت الثقافة الغربية تمر بمرحلة من الوقوع في حب شكسبير من جديد، مما أدى إلى حصوله على مكانة في الثقافة الشعبية وصلت إلى مستويات شعبية الفنانة بيونسي اليوم تقريبًا. وفي الوقت نفسه، وبناءً على فكرة فرنسية، بدأت مجموعات تسمى «جمعيات التأقلم مع النظم البيئية الجديدة» بالانتشار في جميع أنحاء العالم الغربي، وكانت عبارة عن مجموعات تطوعية تتألف برمتها من رجال الأعمال الأثرياء الذين كرسوا أنفسهم لإدخال الأنواع الأجنبية من النباتات والحيوانات إلى بلدانهم. حصل هذا قبل سنوات عديدة من قيام الناس بالتفكير بفظاعة هذه الأفكار.

بدأ خطأ شيفلين برئاسته لتلك الجمعية في نيويورك، وبحقيقة أنه كان معجبًا

بشكسبير إلى حد الجنون. فقرر أمرًا غريبة، ما هي أفضل طريقة لتكريم أعظم شاعر في اللغة الإنجليزية، على حدّ وصفه، من إحضار كل نوع من الطيور المذكورة في مسرحيات شكسبير إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعيش فيها؟ وهكذا بدأت الجمعية بتنفيذ مخططه.

واجهت الخطة بعضًا من معالم الفشل في البداية، إذ فشلت طيور القبّرة والسمّان في الاستقرار حين أطلقوها لأول مرة في المدينة، مما أدى لوفاتها جميعًا بعد فترة وجيزة حين وجدت نفسها في بيئة غريبة كليًا. فقرر شيفلين الوقوف في سنترال بارك مع عدد من مساعديه في السادس من آذار عام 1890 وراح يفتح العديد من الأقفاص لإطلاق 60 طائرًا من الزرزور.

لا يمكننا لوم شكسبير على ذلك بالطبع، ولكنه لو اختار طائرًا آخر بدلًا من الزرزور المذكور في المشهد الأول من الفصل الثالث من مسرحية الملك هنري الرابع، لكانت الأمور قد اتخذت مسارًا مختلفًا. تصف الشخصية التي تحمل اسم هتسبر في ذلك المشهد عزمه على الضغط على الملك لدفع فدية شقيق زوجته مورتيمر، رغم حظر الملك للفظ اسم المخطوف علنًا، ويقول في ذلك المشهد:

لا..

سأعلّم طائر الزرزور الكلام..

سأعلمه أن يلفظ اسم مورتيمر، وسأهديه الطائر..

ليبقى غيظه كما هو.

كانت هذه المرة الوحيدة التي ذكر فيه شكسبير طائر الزرزور، ولم يرد اسمه في أي عمل آخر، لكن هذه المرة الوحيدة كانت كافية لشيفلين ليطلقه في سماء الولايات المتحدة.

أطلقت الحملة أول طيور الزرزور الستين تلك في عام 1890، وفي عام 1891 أطلق شيفلين سراح 40 طيرًا آخر. في البداية، لم تكن الأمور على ما يرام بالنسبة إلى طيور الزرزور الأمريكية الأولى، وفي غضون بضع سنوات توالت فيها فصول الشتاء المريرة في نيويورك، بقي 32 طيرًا فقط من أصل المئات منها على قيد الحياة، وبدا للجميع أنها ستقع صريعة الموت أيضًا كالتي سبقتها من الطيور غير المحظوظة.

لكن طيور الزرزور مخلوقات قوية الشكيمة ومرنة قادرة على التكيف في أصعب الأماكن، بارعة في الانخراط في بيئات جديدة والتنمر على الكائنات الأخرى لتجد طريقة للبقاء على قيد الحياة. وفي مفارقة مثيرة للإعجاب، وجد سرب صغير منها ملاذًا من البرد والثلوج والصقيع تحت أحجار الزخارف المحيطة بسقف متحف التاريخ الطبيعي الأمريكي؛ وهو مبنى مخصص للحفاظ على التاريخ الطبيعي للأمة، وقد ساعد عن غير قصد في تغيير هذا التاريخ بشكل كبير، لأن أعداد طيور الزرزور بدأت بالازدياد تدريجيًا، وراحت تنمو وتنمو. وقبل انتهاء ذلك العقد، كانت قد انتشرت في جميع أنحاء مدينة نيويورك. ومع حلول عشرينيات القرن العشرين، انتشرت في جميع أنحاء البلاد. وبحلول الخمسينيات، وصلت إلى كاليفورنيا. هناك 200 مليون منها في يومنا هذا، تعيش في جميع أنحاء أمريكا الشمالية، ويمكننا العثور عليها في كل مكان من المكسيك إلى ألاسكا.

تحوّلت طيور الزرزور، على حد تعبير صحيفة النيويورك تايمز، إلى «واحدة من أغلى الطيور وأكثرها ضررًا في قارتنا» - أو، كما وصفتها صحيفة واشنطن بوست ذات مرة، «يمكن القول إنها أكثر الطيور المكروهة في أمريكا الشمالية». تعيش هذه

العصافير الآن معًا في أسراب ضخمة يمكن أن يصل عدد أفرادها إلى مليون طائر، تدمّر المحاصيل على نطاق واسع، وتمزق حقول القمح وحقول البطاطا على حد سواء وتطمس مخازن الحبوب. فهي طيور عدوانية، تقوم بطرد أنواع الطيور الأصلية من أعشاشها، وتساعد على انتشار الأمراض التي تصيب كلًّا من البشر والماشية، من الالتهابات الفطرية إلى السالمونيلا. إنها تنشر القرف في كل مكان، كما تمتاز برائحةٍ مروعة.

شكلت أسرابها الضخمة خطرا على حركة الملاحة الجوية في بوسطن في عام 1960، فقد اندفع ما قُدَّر عدده بعشرة آلاف طائر منها داخل طائرة أثناء انطلاقها من مطار لوغان، فحطمت محركاتها ورمتها أرضًا مما أدى إلى وفاة 62 راكبًا من أصل 72 كانوا على متن الطائرة.

تعتبر طيور الزرزور اليوم آفة وخطرًا على الصحة، كما تتطلب محاربتها مقدارًا ماليًا كبيرًا يتم دفعه من مال الاقتصاد الزراعي في أمريكا الشمالية. السبب الوحيد لوجودها في القارة هو أن مجموعة لطيفة من الطبقة الوسطى العليا كانت ترغب في ممارسة هواياتها ولم تفكر في عواقب أهوائها المحتملة. لو كانت الموضة السائدة في تلك الأيام إحدى الرياضات كالركض أو تغيير ألوان المنزل أو الرسم بالألوان المائية بدلًا من الوقوع في حب شكسبير لما حدث أي من هذا.

ومن ناحية أخرى، يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار بأن طيور الزرزور تساعد على إبقاء أعداد الحشرات في حدّها الأدنى.

خمسة أنواع أخرى من الكائنات، وضعناها في أماكن غير مناسبة

لها

القطط

كل الناس يعشقون القطط، إلا في نيوزيلاندا، لأن تلك البلاد لم تكن تحتوي على أي من أنواع القطط حتى أحضرناها معنا حين استعمرنا تلك الجزر. وهناك، تضررت طيور الببغاء الملون التي تستطيع الطيران من تكاثر القطط إلى أن بات ذلك الببغاء على شفير الانقراض.

ضفادع القصب

كما كانت الحالة مع أرانب أستراليا، أدخل البشر هذه الضفادع بنيّة حسنة للتخلص من الحشرات وخنافس القصب على وجه الخصوص، لكن الضفادع أكلت كل شيء آخر، وتركت خنافس القصب المطلوبة.

الضفادع الرمادية

حين وصلت السناجب الرمادية الأمريكية إلى بريطانيا وإيرلندا بسبب البشر بالطبع، راحت تنافس السناجب الأصلية على مقومات الحياة ثم دفعتها إلى شفير الانقراض.

بعوضة النمر الآسيوية

حشرة مزعجة ناقلة للأمراض لا تلتزم بوقت الليل أو الظلام لممارسة نشاطها، بل تعيث فسادًا في كل الأوقات خلاف جميع أنواع البعوض الآخر، ولا بد لنا من الإشارة إلى شجاعتها في الانتقال من قارة إلى

أخرى عبر التعلق بسفن البشر المتنقلة بين أصقاع الأرض، وقد وصلت إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى قادمة من اليابان عام 1985 على متن عابرة محيطات مخصصة لشحن الإطارات.

سمكة الأفعى الشمالية

كان يجب على من فكر بإحضار أكثر سمكة نهرية مفترسة آكلة للحوم بالتفكير ألف مرة قبل نقلها من بيئتها الأصلية إلى أمريكا، فهي السمكة المفترسة الوحيدة القادرة على التنقل على اليابسة خارج الماء والبقاء على قيد الحياة لأيام بدون ماء. أتساءل شخصيًا بِمَ كان ذلك الشخص يفكر بالضبط.. لماذا قام بذلك؟

4
فلنتبع القائد

مع تطور المجتمعات البشرية، وتحوّل القرى إلى بلدات ثم إلى مدن مع مرور الوقت، اضطر أبناء البشر لمواجهة مشكلة تصادف أي جماعة تريد التصدي لأحد التحديات الصعبة والمعقدة، وهذا يشمل كل شيء من أصعب الأمور كالعمل على إنشاء حضارة معقدة بكل مقوماتها وصولًا حتى أتفه الأمور كاختيار مكان مناسب لتناول العشاء. الأمر الوحيد الذي يجمع بين جميع تلك التحديات والحيرة ما بين الاختيارات، هي أن البشرية تحتاج دومًا لشخص يقوم بالاختيار، بتقرير ما يجب فعله.

نحن لا نعلم الكثير عن كيفية قيام المجتمعات البدائية بتنظيم نفسها، لكن الطبيعة البشرية تحتم علينا افتراض وجود أفراد يتمتعون بإعطاء الأوامر للآخرين، يتمتعون بشخصية قيادية منذ بدء الأزمنة، لكننا لا نعرف متى بدأ البشر في اعتبار أن هذا الشخص الذي يقع عليه عاتق اختيار وتقرير ما يجب تقريره، هو شخص يفعل ذلك بدافع المهنة أو العمل الحقيقي وليس على أنه يقوم بذلك لأنه يحب القيام بذلك، أو بدافع الهواية.

كل ما نعرفه، هو أن البشرية اخترعت نظام عدم العدالة الاجتماعية بعد استقرار الناس والبدء بممارسة الزراعة على أسس منتظمة. وقد قاموا بذلك بكل إتقان. وقد أثبت علماء الآثار هذا بناء على حجم منازل الناس في تلك الآونة. في البداية، أثبتت لنا الحفريات أن أقدم المجتمعات كانت تتمتع بالمساواة، وأن جميع المستوطنات والمساكن كانت متشابهة، إلى أن مرت عدة آلاف من الأعوام على تعلم الزراعة والاستقرار، حين بدأ الإنسان بزراعة المحاصيل بانتظام، بدأت نخبة من الناس بالظهور، وكان هؤلاء هم الناس الذين يملكون أكثر من غيرهم، فكانت منازلهم أكبر حجمًا ورفاهية من منازل الآخرين. وقد أمكن لعلماء الآثار أن يحددوا نهوض عصر الظلم في الأمريكتين بحدود 2500 عام بعد بزوغ عصر الزراعة المنظمة، لكن الأمر بقي على هذا الحال هناك ولم يتطور إلى أبعد من ذلك. أما في العالم القديم، فقد سار الأمر على نحو مختلف بسبب وجود حيوانات الجرّ على الغالب، كالأحصنة والحمير وغيرها، مما جعل الإنسان يسخرها في النقل وحرث الأراضي، وهذا هو تمامًا ما سهّل نشوء الثروات الشخصية والتي تم توريثها إلى الأجيال اللاحقة مع مرور الوقت. وهكذا.. نشأت نسبة الواحد في المئة من تعداد البشرية، والتي تملك كل شيء تقريبًا.

في مرحلة ما، توقفت هذه النخب عن مجرد كونها أكثر ثراءً من أي شخص آخر، وبدأت بالحكم بالفعل، ولربما كان الزعماء الروحيون أو الدينيون أقرب ما يكون لأولى الطبقات الحاكمة. ولكن بعد ذلك، تغير شيء ما قبل حوالي 5000 عام في كل من مصر وبلاد سومر (العراق في العصر الحديث)، فقامت أنظمة الحكم التي كانت الأجيال تتوارثها، وولدت السلالات الحاكمة، وهي كما اتضح للجميع، أكثر أسلوب حكم مفضّل لدى الناس.. أسرة حاكمة مطلقة. هناك لوحة حجرية سومرية تسرد أسماء جميع الملوك، وملكة مفردة واحدة، ومن المحتمل أن يكون هذا أول وأقدم سجل للملوك الأوائل في تاريخ البشرية. لكن هذه السجلات لا تساعدنا كثيرًا

لأن الكثير من الأحداث التي تحتويها تنتمي لأسرة اللامعقول من الكلام.. فأول ملك مذكور في تلك السجلات واسمه ألوليم، حكم مدينته لمدة 28800 عام، مما يعني أنه بحاجة لاثنين وعشرين ألف عام أخرى ليورث الحكم للملك التالي، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن الحضارة السومرية بدأت قبل ستة آلاف عام من اليوم.

لماذا نهجت البشرية هذا النهج مرارًا وتكرارًا حتى اليوم، لماذا يصر البشر على وضع شخص واحد على كرسي الزعامة، وإسناد مهمة اتخاذ القرارات له وحده؟ من الواضح أن الجماعات البشرية لم تكن تملك خيارات كثيرة، فقد استولى الحكّام الأوائل على كرسي الحكم بالعنف أو أي طريقة أخرى مشابهة كالإكراه والقسر والإجبار، ويمكننا أن نرى بوضوح عبر الدلائل التاريخية أن الموضوع مرتبط بالحروب على وجه الخصوص، فقد بدأت السلالة الحاكمة الأولى في مصر الفرعونية القديمة حين اتحد المصريون القدماء لمواجهة الغزو الخارجي، بينما بدأ عصر الملوك السومريين خلال فترة من النزاعات على السلطة لحكم الممالك - المدن. بعد عدة مئات من السنوات، وفي عام 2334 قبل الميلاد بالتحديد، غزا الملك سرجون الأكادي منطقة سومر، لأنه كان يريد التوسع بحدود مملكته لتأسيس أول إمبراطورية في التاريخ. وفي وادي أواكساكا في المكسيك، وجد علماء الآثار ما يدل على أن نفس الأحداث جرت في موقع واحد. فقد نشأت مستوطنة سان خوسيه موغوت كمجتمع صغير، تسوده المساواة ولا وجود للنظام الهرمي الاجتماعي فيه، وقد نشأت تلك القرية الصغيرة بعد تبنّي النظام الزراعي قبل 3600 عام. تصاعدت خلافات أهل هذه القرية مع سكان القرى المحيطة خلال الألف عام التالية، وبرزت علامات تدل على نشوء ثروات وبروز مشكلة عدم المساواة بين أفراد الجماعة، إلى أن وقعت المنطقة بالكامل في حالة مستمرة من الحروب قبل 2400 سنة، فما كان من سكان تلك القرية إلا أن قرروا الانتقال إلى أعلى الجبل وبناء جدار دفاعي لحمايتهم.

إن السؤال البارز هنا: ما الذي سبق الآخر.. هل سبقت الحروب نشوء القيادة الفردية أم العكس، أم سبقت القيادة الفردية الحروب. إنه سؤال أشبه بسؤال البيضة والدجاجة الفلسفي. لكننا متأكدون من أن القيادة والحروب عاملان مترافقان دومًا، كما أنهما العاملان الرئيسيان المطلوبان للحفاظ على الجماعة التي لا تملك حرية الاختيار في البقاء كجماعة تسودها المساواة الاجتماعية. سنتحدث عن المزيد من تاريخ الحروب في الفصول المقبلة، دعني هنا أركز أكثر على مسألة القيادة الفردية.

أعلم أنه من الصعب علينا أن نصدق بأننا محظوظون للحياة اليوم في زمن كهذا، لكننا يجب أن نقرّ بأن الأشخاص الذين قادوا الجماعات والدول لم يكونوا على الدوام ملائمين للوظيفة الموكلة إليهم. في الواقع، هذا ليس مفاجئًا على الإطلاق: إذ يجب على المرء أن يكون غريب الأطوار بما يكفي ليرغب في قيادة شعب ما. إذ يواجه البعض منا مشكلة في اختيار الجوارب التي يجب ارتداؤها في الصباح، فتخيل أنك مسؤول عن اختيار الجوارب التي يجب على الأمة بأكملها أن ترتديها.

بالطبع، هناك أنواع مختلفة من القادة، وكثير من الطرق التي تسمح لهم بالبقاء في سدة الحكم إلى الأبد، هناك نكهات مختلفة لهذا الأمر كالشاي تمامًا: هناك حكم السلالات، والحكم بموجب الحق الإلهي، والاستيلاء على السلطة بالعنف، وأنواع عديدة من الحكم الديكتاتوري. كما لدينا شيء اسمه الاقتراع الديمقراطي، وسنتحدث عن الأمور التي أخفقت فيها الديمقراطية في الفصل القادم، بينما سأتحدث في هذا الفصل عن أسوأ الحكام الذين استولوا على زمام السلطة في بلادهم، واستبقوها لأنفسهم.

لنبدأ الحديث مع كين شين هانغ، أول إمبراطور للصين، رجل ترك بصمة لا تُمحى على عالمنا الحديث عبر بعد النظر الذي تمتع به وطريقته العنيفة والحاسمة

لتنفيذ الأمور. ولسوء حظه، فقد فشل ذلك الإمبراطور في الاستمرار بحكمه بسبب تصوراته المغالية والمغرقة في الشر.

وحد كين الممالك المتحاربة السبع في الصين وجعل منها دولة واحدة عبر تكتيك دبلوماسي أشبه بالدهاء، حين غزا الممالك جميعها، إذ لم يتمكن أحد قبله من فعل هذا. لقد أرسى كين دعائم مملكته السياسية في عام 222 قبل الميلاد، حين كانت روما تتلمس أولى خطواتها للتوسع خارج حدود إيطاليا لتتحول يومًا ما إلى إمبراطورية، وتمكنت إمبراطورية كين من البقاء حتى زمن بعيد فاق جميع تلك الإمبراطوريات القديمة.

لم يكن هذا إنجازه العظيم الوحيد، بل إنه وضع عدة تعديلات وإصلاحات لتنظيم شؤون الدولة، فقلل من سلطة اللوردات والأمراء ووضع أسس البيروقراطية المركزية، واضعًا القدرة على الكتابة والقراءة والحساب وأنظمة القياس كأسس للانخراط في تلك المنظومة، وانشغل أيضًا في بناء بنية تحتية وطرق المواصلات، كشبكة الطرق التي رسمها مهندسوه وأنشأوها في حكمه وخدمة البريد المبكرة التي ابتكرها، كما أنه وضع حجر الأساس وبدأ العمران لما يعرف اليوم بسور الصين العظيم.

ولكن.. ما الذي يعيب هذا الحاكم؟ لقد فعل كل ذلك عبر قمع المقاومة والمخالفين له بالرأي، وحظر مخالفة أوامره، وإعدام الناس الذين لا يوافقون على أوامره وإجبار العوام على العمل كالعبيد في إنشاء مشاريعه الضخمة. الأمر لا يفاجئنا الآن بعد دراستنا للتاريخ والأخذ بعين الاعتبار أن كل تلك الأفعال كانت عادية في تلك الأزمنة.

لكن ما يفاجئني هو الهدف الذي أنشأ من أجله شبكة الطرق والبريد

مستخدمًا سلطته المركزية في القمع، فقد كان يريد من جميع مواطني دولته أن يخرجوا جميعًا إلى البراري والقفار ليبحثوا له عن إكسير الخلود.

كان كين الطموح مهووسًا بفكرة الخلود، وكان مؤمنًا بأن استخدامه لسلطته بهذا الشكل سيسمح له بالعثور على سر الخلود والحياة الأبدية، فأرسل المنادين في جميع أنحاء البلاد، وطالب الجميع من الأطباء والجنود إلى التجار في المناطق النائية من البلاد للمساهمة في بحثه، وأدار مسعاه الشخصي كمبادرة حكومية كبرى، حيث كانت محكمته المركزية تتلقى تقارير مرحليةً عن تطور البحث في مختلف المواقع، وعينات من الأعشاب والجرعات التي يتم إرسالها للنظر فيها. وكجزء من هذا البحث، كان على جميع الأطباء التسجيل لدى الدولة بشكل رسمي، مما أدى بشكل أو بآخر إلى وضع شكل مبكر من النظام الصحي. لكن الأمر لم يكن كذلك بالفعل.

من المحزن بالنسبة إلى كين أن تلك الطريقة لم تنجح كنظام صحي رائع من وجهة نظره، وكان بحثه عن الخلود سببًا مباشرًا لسقوطه. إذ يُعتقد أن العديد من جرعات إكسير الحياة المزعومة التي تناول عينات منها كانت تحتوي على الزئبق، مما قتله. ومن المحتمل أن يكون الزئبق قد أدى إلى جنونه قبل موته، وهو العامل المشترك بين جميع الحكام المستبدين المتعطشين للسلطة.

ومع حلول الوقت الذي توفي فيه، كان جميع الناس غاضبين من كين.. حتى أنهم تمردوا فورًا تقريبًا بعد مغادرته المسرح، وأطيح بوريثه بعد بضع سنوات من وفاته. لم تستمر أسرة كين، حتى لو كانت الدولة التي أسسها قوة عظمى حتى يومنا هذا. لم يجد مواطنوه سر الحياة الأبدية أبدًا.

سنبقى في الصين، لكننا سننتقل 17 قرنًا إلى الأمام، وتحديدًا إلى عام 1505، إذا كنا نرغب في الحصول على دليل مفيد حول سبب عدم تعيين شخص له مزاج

طفل مدلل في موقع المسؤولية عن بلد ما، فإن إمبراطور تشنغده (من مواليد تشو هوزاو) هو المثال أفضل على الإطلاق.

كان نفوره من القيام بأي شأن من أعمال الحكم، وتفضيله البقاء بعيدًا عن القصر وقضاء وقته في صيد النمور، أو النوم مع أعداد كبيرة من النساء مجرد ناحية واحدة من مشكلته.

أمام مشكلته الحقيقية فقد برزت حين اخترع شخصية خيالية لا وجود لها في الحقيقة، أسماه الجنرال زهو شو، وبدا يعطيه الأوامر لشن الحروب في الشمال، وكان يعطي من يراقبه فكرة بأن الجنرال يطيعه تمامًا.

أليس هذا غريبًا؟

لكن هذا ليس بغرابة أنه أمر ببناء نسخة عن سوق شعبية داخل جدران القصر وأمر جميع مرؤوسيه وقادة جيشه بأن يرتدوا ملابس الباعة ويلعبوا دور التجار وأصحاب المحلات، ليتمكّن هو من ارتداء ملابس العامة والتجول في الأسواق لشراء ما يرغب. وكان يقطع رأس كل قائد أو موظف تبدو عليه علامات الامتعاض لدى تمثيل تلك المسرحية.

بالإضافة للحادثة التي أمر فيها بتخزين جميع البارود الموجود لديهم داخل جدران القصر قبل مهرجان الفوانيس الشعبي مباشرة. وانتهى الأمر تمامًا كما تصورتم.. بانفجار مهول لا يوصف. نجا الإمبراطور من الانفجار، لكنه مات في سن التاسعة والعشرين بسبب مرضٍ معدٍ التقطه أثناء السباحة.

مشكلة أنظمة الحكم الوراثية أن الشخص الذي يجلس على كرسي الحكم يكون غالبًا آخر شخص مهيأ لذلك في العالم. كانت هذه مشكلة إمبراطور الزهنج، ولودفيج الثاني ملك بافاريا، وخلافًا لجميع الحكّام المعروفين الآخرين، فإن لودفيج

المسكين كان شخصًا مسالمًا للغاية، لكن مشكلته هي أنه كان بعيدًا كل البعد عن أي من شؤون الدولة والحكم، عن كل ما يتوقع الآخرين من الملك فعله. وقد فضّل أن يكرس حياته لتجميل الأشياء من حوله.

حينما يبحث المرء في تاريخ الملوك المجانين، فمن الصعب عليه ألا يلاحظ أمرًا مشتركًا بينهم جميعًا. ويبدو أن الناس الذين كانوا مسؤولين عن تدوين أحداث التاريخ فضلوا استعمال كلمتين لوصف هؤلاء الملوك: المجنون وغريب الأطوار، في محاولة منهم للالتفاف على حقيقة أنهم كانوا مختلفين جنسيًا عن الحالة البشرية التقليدية. يمكننا الإشارة هنا إلى كريستينا ملكة السويد التي رفضت الزواج وفضلت ارتداء ملابس الرجال وعدم تسريح شعرها واحتفظت لنفسها بعشيقة على الدوام. وحين ضغط عليها رجال دولتها لتتزوج، تخلّت عن العرش وغادرت السويد بملابس الرجال المعهودة منها وسافرت إلى روما حيث استقرت حتى مماتها، ودخلت المدينة ممتطية صهوة حصانها بملابس أشبه بملابس الأمازونيين.

لا يمكننا إلا أن نتخيل حقيقة التوجه الجنسي الفعلي للشخصيات التاريخية (وعلينا أن نتذكر أن فكرة «المثليين» باعتبارها هوية محددة ومميزة أصبحت هوية راسخة وشبه مقبولة في المجتمعات الغربية خلال الـ 150 عامًا الماضية أو نحو ذلك فقط). ومع ذلك، لا يزال يبدو لي أن لودفيج الثاني كان مثلي الجنس للغاية، مما دعاهم لوصفه بالجنون.

كان لودفيج حالمًا خلاقًا ومبدعًا، ولم يكن مهتمًا بالسياسة أو بقيادة الجيش. بدلًا من ذلك، عندما أصبح ملكًا في عام 1864م في سن التاسعة عشرة، انسحب من الحياة العامة وكرس حكمه ليصبح راعيًا للفنون، وقد كان جيدًا جدًا في ذلك. قام بإغداق الموارد على المسرح، وتوظيف المواهب العليا وتحويل ميونيخ إلى عاصمة ثقافية لأوروبا. كان أحد المعجبين المخلصين بفاجنر وأصبح راعيه الشخصي، حيث قام

بتمويل ودعم الملحن لإنتاج روائعه المتأخرة بعد أن حاول الجميع إبعاده عن المدينة لكونه مختلفًا. وأهم من أي شيء آخر، لا يمكننا أن ننسى القِلاع.

أراد لودفيج لبافاريا أن تمتلئ بالقلاع الأشبه بتلك الموصوفة في الحكايات الخيالية. ولهذا قام بتوظيف مصممي المسرح بدلًا من المهندسين المعماريين للتخطيط لها، وأنفق ببذخ على سلسلة من القصور المزخرفة، كقصور شلوس ليندرهوف، وهيرنيشيمسي، وخاصة شلوس نويشفانشتاين، التي ترتفع حتى اليوم على جبال الألب الصخرية بالقرب من منزل طفولته.

كان كل هذا الإسراف في غير محله بالنسبة لخيرات بافاريا ومصلحتها. لم يكن لودفيج غافلًا عن واجباته فقط، فقد كان يسرع في الانتهاء من أعماله الورقية ومسؤولياته حتى يتمكن من العودة إلى شغفه الحقيقي، كما تراكمت عليه الديون لتمويل مساعيه الفنية، مما جعله يكره الظهور في الأماكن العامة، وبدا واضحًا للجميع بأن اهتمامه بالمسائل العسكرية يعود إلى شغفه الآخر بالرجال الفاتنين.

واجهته قضية إنجاب وريث، كما كان الملوك يفعلون عادة. فتعرّض لودفيغ لضغط مستمر للزواج وإنجاب الأطفال. فأعلن خطبته على دوقة شاركته حبه لفاجنر. ولكنه أرجأ الأمر مرارًا وتكرارًا مع اقتراب موعد الزفاف قبل أن يعلن انفصاله عن خطيبته. ولم يعاود الكرّة أبدًا بعد ذلك.

في نهاية المطاف، ومع تفاقم ديونه وتعاظم خططه المستقبلية لبناء مزيد من القلاع، قرر أعداؤه في البلاط الملكي أن يتصرفوا، وحذوا حذو العادة المتبعة عبر الزمن للتخلص منه، فأعلنوا جنونه. والحقيقة أن شبهة الجنون لم تكن بعيدة عن عائلته، فعمته ألكسندرا كانت تظن أن بطنها يحتوي على بيانو زجاجي، ولم تمنعها تلك الفكرة من الانخراط في الأدب وتأليفه. لكن الثابت لدينا أن أيًا من الأطباء الأربعة الذين وقعوا على ورقة تشخيصه بالجنون بناء على رغبة المتآمرين، لم يفحصوه أبدًا، وأن واحدًا منهم التقاه قبل اثني عشر عامًا من توقيع تلك الورقة. ونقرأ في حججهم التي أوردوها لإثبات جنونه أنه لا يسمح مثلًا للخادم بأن يضع بعضًا من الحليب في فنجان قهوته.

لكن الحيلة نجحت، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها بارونة صديقة له، حين ضربت المفوضين الحكوميين بمظلتها، إلا أن لودفيج عُزِلْ، وتم احتجازه في قلعة جنوب ميونيخ. ساورت الشكوك جميع الباحثين في الأمر بعد ذلك بسبب العثور على لودفيج وطبيبه ميتين في بحيرة ضحلة بعد ثلاثة أيام من احتجازه، في ما يمكن وصفه فقط بـ «ظروف غامضة».

ومن ناحية أخرى، انتصر لودفيج على جميع أعدائه رغم تعرضه لتلك

المؤامرات والاتهامات، فجميع القلاع التي أنفق على بنائها ببذخ أصبحت مشهورة عالميًا الآن، وقلعة شلوس نويشفانشتاين هي أعظم ما يمثل قلاع بافاريا في جميع أنحاء العالم، وهي القلعة الوحيدة التي تجذب ملايين الزوار سنويًا، مما يعود بالنفع على الاقتصاد البافاري. لو لم يوقف المتآمرون خطط لودفيج المستقبلية، لكان لدى البافاريين الآن الكثير من الآثار الفريدة الأخرى. لم يكن لودفيج الثاني هو من أخفق هنا، بل المتآمرون ضدّه.

حتى إذا لم تكن قد سمعت عن شلوس نويشفانشتاين، فلا بد أنك رأيتها مائة مرة. كانت أبراجها الرومانسية مصدر إلهام مباشر للقلاع التي رسمها والت ديزني في أفلام سندريلا وبياض الثلج والجميلة النائمة، والتي أصبحت أكبر شركة ترفيه في العالم. كلما شاهدنا غبار النجوم المتساقط فوق أبراج القلعة في بداية أفلام ديزني شاهدنا حلم لودفيج الخالد رغم أنف الفاشلين الذين أحاطوا به.

لم يكن لودفيج القائد الوحيد الذي تراقصت أحلامه ومواهبه في اتجاه مختلف عن أعمال الحكم. كان حبه لبناء القلاع مفهومًا وعاديًا بالنسبة للملوك، لكن الإسراف عليها هو ما دفع أعداءه لاتهامه بالمغالاة.

فاروق الأول، ملك مصر (1920- 1965)

لو كان الشيء الوحيد المهم الذي قام به فاروق الأول ملك مصر في حياته هو نشل ساعة وينستون تشرشل أثناء مشاركته في اجتماع حاسم خلال الحرب العالمية الثانية، لذكرناه اليوم بشكل مختلف بعض الشيء. لكان اختفى في غياهب التاريخ في أسوأ الأحوال باعتباره ملكًا غريب الأطوار وحسب. وفي أحسن الأحوال كان ليُذكر باعتباره ملك المزاح والمزاج الطيب.

لكن فاروق لم يتوقف عند هذا الحد.

رغم أنه كان أغنى من أي شخص آخر في ذلك الوقت، وأن ثروته كانت أشبه

بالثروات التي لا يراها المرء سوى في أحلامه، إلا أن فاروق، ثاني وآخر ملك لمصر، كان يعشق سلب الأشياء من الأشخاص، من الأشخاص الجيدين والأشرار على حد سواء، كما كان يسلب العامة ممتلكاتهم. وقد أخرج أحد أمهر النشالين من السجن ليعلمه كيفية نشل المحافظ من جيوب الناس بخفّة. وتخبرنا المصادر أن فاروق سرق سيفًا مرصعًا بالجواهر وممتلكات ثمينة أخرى من نعش شاه إيران حين وصل جثمانه ليدفن في مصر. وقد أدى هذا لحدوث أزمة دبلوماسية بين البلدين.

لم تكن السرقة العامل الوحيد الذي أدى للشعور بأنه شخص غير مناسب لكرسي الحكم، بل كان مشهورًا بشغفه بالطعام وشهيته المفتوحة وحياته الباذخة، وقد وصفه أحد الصحفيين يومًا بأنه «معدة تمتلك رأسًا»، بعد أن انتفخ كالبالون حين أصبح ملكًا رغم أنه كان شابًا نحيلًا ووسيمًا حين وصل إلى سدة الحكم. كان مولعًا بسيارته الرسمية، سيارة البنتلي الحمراء الشهيرة، التي أصدر مرسومًا ملكيًا يقضي بحظر امتلاك أي شخص آخر لشبيهتها لونًا وشكلًا في مصر. كما جمع الصور الخلاعية وأحاط نفسه بمجموعة من الأشخاص الاستغلاليين والفنانين المخادعين والموظفين الفاسدين. وقد استيقظ في إحدى الليالي على أثر كابوس، حيث كانت الأسود تلاحقه، وأمر بطانته بمرافقته مباشرة إلى حديقة الحيوانات الوحيدة في القاهرة، ليرمي جميع الأسود بالرصاص ويقتلها.

ربما كان فاروق ليفلت من العقاب على كل تلك التصرفات لو لم ينفر كل الأشخاص الجيدين منه. غادرت القوات البريطانية مصر في عام 1922 وأقرت باستقلال مصر لكنها احتفظت بوجود عسكري غير مرغوب به هناك، وكان الكثير من أفراد الشعب والبلاط الملكي يعتقدون بأن فاروق دمية في يد البريطانيين والغرب عمومًا. بينما كان البريطانيون غاضبين من فاروق في الحقيقة لأنه لم يكن ألعوبة يسيرة في يدهم بما فيه الكفاية، كانوا يريدون المزيد من الطاعة من قِبَله. وسنتحدث

عن هذا بشكل موسع أكثر في فصل الاحتلال اللاحق.

وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية، لم يقف الجميع ضد فاروق لأنه كان يريد سرقة ساعة تشرتشل فقط، بل ساعدتهم على ذلك أمور أخرى، مثل رفضه لإطفاء الأضواء في قصره في الإسكندرية بينما غرقت المدينة بالظلام بسبب الغارة الألمانية عليها، والبرقية التي أرسلها لهتلر والتي يرحب فيها بغزو ألماني لبلاده إذا ما خلصوه من الإنكليز.

نجح فاروق في البقاء وسط الحرب بلا قتال، وأعلن الحرب على قوى المحور متأخرًا جدًا، حين انتهت المعارك تقريبًا، لكن عهده لم يدم طويلًا بعد ذلك. تم خلعه في انقلاب عسكري في عام 1952 (أصبح ابنه البالغ من العمر ستة أشهر ملكًا لمدة لم تتجاوز العام الواحد قبل إلغاء الملكية نهائيًا في مصر) وعاش سنواته المتبقية في موناكو وإيطاليا، حيث «ازداد وزنه أكثر من أي وقت مضى وشغل وقته في ملاحقة النساء» كما كُتِبَ في مجلة التايم الأمريكية. ثم توفي في النهاية بسبب نوبة قلبية وتم تكريمه كما يليق بالملوك المنفيين دون أن يتجاوز الخمسة والأربعين عامًا، وهو يتناول سيجاره الكوبي الفخم بعد عشاء خرافي في مطعم في روما.

ولا بد لنا هنا من ذكر أن تشرتشل لم يجد مزاحه خفيفًا بأي حال من الأحوال، وطالب السلطات المصرية باستعادتها من بين أغراض الملك فاروق التي تركها في قصره في مصر.

يأمل الإنسان والدارس على حد سواء بأن تتحسن جودة الحكام الذين يستلمون سدة الحكم مع مرور الوقت، ولكن هناك الكثير من القادة من العصر الحديث الذين يمكنهم منافسة نظرائهم التاريخيين على مركز أسوأ الحكام على مرّ التاريخ. فلنأخذ على سبيل المثال الرئيس نيازوف الذي حكم تركمانستان لأكثر من

20 عامًا، حين كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي، وظل رئيسًا لها بعد الاستقلال إلى أن توفي في عام 2006. إنه مثال حقيقي على عبادة الدكتاتور، حتى لو كانت شخصية هذا الدكتاتور غبية للغاية.

حكم نيازوف بلاده مدى الحياة لمدة عقدين من الزمن وفقًا لأهوائه الشخصية، وكانت كلها أهواءً غريبةً تمامًا. وأصر على أن يُشار إليه باسم «زعيم التركمان»، وقام بحظر الكلاب من العاصمة عشق أباد لأنه لا يحب رائحتها. كما حظر اللحى والشعر الطويل والاسنان الذهبية على الرجال، وكان يصدر أحكامًا شديدة جدًا على الشخصيات التلفزيونية الشهيرة، كما منع مقدمي نشرة الأخبار من وضع مستحضرات التجميل لأنها كانت تمنعه من التمييز بين الرجال والنساء على حدّ قوله. حظر الأوبرا ومسرحيات الباليه والسيرك ومنع الأغاني المسجلة على أسطوانات في حفلات الأعراس كما حظر الاستماع إلى الراديو في السيارات بشكل تام.

تمثال نيازوف الذهبي في عشق آباد

ثم بنى تمثالًا يشخصه من الذهب الخالص في أهم ساحات عشق آباد ووضع له قاعدة متحركة تدور بالتمثال ليواجه الشمس على الدوام. كما كان يعشق وضع اسمه على الأشياء، فقد سمّى أول شهر من العام والذي نعرفه جميعًا باسمه العالمي كانون الثاني باسمه، وأطلق اسم أمه غوربانسلطان على شهر أبريل أو نيسان. ثم أطلق اسمه على إحدى المدن الكبيرة في البلاد واسم أمه على مدينة بريد، وأطلق اسمه أيضًا على مطار العاصمة واختتم الأمور باستحداث عطلة رسمية على شرف ثمار البطيخ وقام بتسمية أحد أنواعها باسمه أيضًا.

كما قام بتأليف كتاب باسم «روح ناما» يحتوي على الشعر في قسم منه وعلى قصة حياته في قسم آخر وعلى درس تاريخي حسب كلماته وقسم أخير للتنمية البشرية. وكانت السلطات تعاقب كل من لا يحب الكتاب بالتعذيب في أقبيتها، وأصدر أمرًا بتقرير الكتاب كمقرّر رئيسي للحصول على شهادة في قيادة السيارات، ثم أغلق جميع المكتبات العامة وقرر أن كتابه والقرآن هما الكتابان الوحيدان اللذان يحتاج الإنسان لقراءتهما، وأمر ببناء تمثال عظيم لكتابه في العاصمة، وكان التمثال يدور أيضًا على قاعدة متحركة ويصدر أصواتًا مسجلة لمقاطع منه بصوت القائد بين الحين والآخر. وانتهى به الأمر بإعلان أن قراءة كتابه شرط أساسي لدخول الجنة بعد الموت.

كما أنفق الكثير على مشاريع حمقاء، كبناء قصر من الجليد وسط الصحراء وهرم عظيم كأهرامات مصر ودفع 60 مليون جنيه إسترليني كنفقات لبناء جامع يحمل اسمه. كما أمر ببناء درج مهول من الإسمنت المسلح لتسلق جبل أجرد مهجور وأجبر جميع الموظفين في مؤسسات الدولة على اجتياز تلك الرحلة وصعود ذلك الدرج كل عام. وفي عام 2004، قام بالاستغناء عن خدمات 15 ألف موظف في

القطاع الصحي واستبدلهم بجنود عسكريين، وأغلق جميع المستشفيات خارج العاصمة على أساس أن تستقبل العاصمة جميع المرضى من البلاد. ثم ألغى القسم الدستوري معللًا ذلك بانه يحتوي على الكثير من النفاق، وألّف بنفسه قسمًا جديدًا يقسم فيه الشخص على الإخلاص له وحده. كان نيازوف يوقف شحنات المخدرات المهربة ويحتفظ بها لنفسه، ويطلق النار على أعداء وهميين في سكنه الخاص. لم تتمتع الصحافة بالحرية في عصره، قُمِعَت المعارضة بوحشية ووجب على جميع الجماعات المدنية والعامة والأحزاب السياسية والدينية تسجيل نفسها في وزارة العدل. أمام مبنى تلك الوزارة انتصب تمثال شامخ للمرأة التي تمثل العدالة، والتي كانت تشبه أمه بشكل ملحوظ للغاية.

لا يمكننا تعلم درس من سنوات حكم نيازوف الطويلة والموحشة إلا أن نتوقف حين نلاحظ أن أعمالنا بدأت تشبه أعماله.

وعلى رغم سوء وضعه كحاكم، وعلى رغم حظ بلاده العاثر لتمر بعشرين عامًا مظلمةً من ذلك الحكم الدكتاتوري الغاشم، إلا أنه لا يتربع على عرش أسوأ الطغاة عبر التاريخ، فقد كان هناك قادة أكثر شرًا، وربما قادة أقل كفاءة، ولكن إذا كنت تريد مثالًا جيدًا على أسوأ ما قد يصل إليه الحكم الديكتاتوري، فلا بد لنا من ذكر الإمبراطورية العثمانية، التي أثبتت أن الأمور السيئة تأتي معًا وبشكل جماعي في بعض الأحيان.

القفص الذهبي

حظي عدد قليل جدا من الأماكن حول العالم بسلسلة من القادة الرهيبين تماما كالتي عانت منها الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن السابع

عشر. إذ أضاف المؤرخون لقب «المجنون» على أسماء اثنين منهم، وهي ليست علامة جيدة أبدا. والأسوأ من ذلك هو أن الأشخاص الذين لم يحملوا لقب «المجنون» كانوا يستحقونه أكثر من غيرهم.

كان اثنان من هؤلاء المجانين أخوة، والثالث كان عمًا لهما، مما يجعل من الصعب علينا اليوم أن لا نفكر بوجود مرض وراثي في تلك العائلة، ولكن.. ما الذي يمكننا توقعه من أنظمة كتلك؟ لم يكن بإمكان أحد توقع نتائج أفضل من تلك بعد المحاولات الحثيثة من أفراد تلك السلالات لإنتاج ملوك وسلاطين بعقول كهذه.

لم يكن قصر توبكابي مكانًا آمنًا في تلك الفترة، وخصوصًا إذا كان الشخص أحد أبناء السلطان. كانت المشكلة في الأخوة، أو على الأقل، كان الأخوة هم المشكلة حين يموت الأب ويهرع الجميع لاستلام زمام السلطة.

تحولت الصراعات الوحشية على السلطة حين وفاة الملك إلى تقليد عائلي طبيعي في ذلك الزمن، قبل قرون عديدة من الآن. مما أدى كل مرة تقريبًا إلى قيام حروب أهلية. ولم تكن تلك الصراعات على العرش مفيدة لأحد، وخصوصًا حين يملك المرء أحلامًا توسعية، ولهذا.. كان يبدو لأبناء السلطان أن قتل أخوتهم هو أسهل طريقة لإخلاء الطريق لهم إلى كرسي الملك.

وكان الجانب السلبي الوحيد لهذه الطريقة التي تعتمد على إبادة الأخوة هي احتمال موت الملك الجديد دون وجود وريث، إذا ما كان صغيرًا في السن مثلًا، مما يعني زوال السلالة الحاكمة تمامًا. لا يمكن لأحد أن ينسى ما حصل عام 1595، حين قتل أنصار والدة الأمير محمد أخوته التسعة عشر حين توفي والده، ليتمكن هو من الصعود إلى سدة الحكم بلا منازع ويتحول إلى السلطان محمد الثالث. لكن الأمر كان صعبًا ووحشيًا أيضًا في ذلك الزمن، ولهذا اخترع ابن السلطان أحمد الأول

ما بات يعرف عبر القرون باسم القفص الذهبي، لاحتجاز عدد من أخوته، والاحتفاظ بهم كملوك محتملين إذا ما تعرض الملك الجديد للقتل أو الموت بلا وريث.

لم يكن القفص الذهبي قفصًا بالمعنى الحرفي للكلام، بل كان برجًا فخمًا مزخرفًا إلى جانب الحرملك داخل قصر السلطان، لكنه كان يشبه القفص في جوانب عديدة، لأن ساكنه لم يكن يتمكن من مغادرته.

كسر أحمد الأول قاعدة إبادة الأخوة حين استلم الحكم عام 1603، وسمح لأخيه الأصغر مصطفى بالبقاء على قيد الحياة، كان أحمد في الثالثة عشرة من عمره، ومصطفى في الثانية عشرة، مما لعب دورًا هامًا في اتخاذ ذلك القرار، لأن أحمد لم يكن لينجب وريثًا قبل سنوات أخرى، وربما بسبب تعاطفه مع أخيه الأصغر الذي كان ضعيف البنية هش الجسد. وربما كان أحمد شخصًا رحيمًا.. بكل بساطة.

بأي حال.. بدلًا من قتله، أُرسِلَ مصطفى إلى البرج ليعيش في القفص، فيما بدا أحمد حياته كسلطان، وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن توفي أحمد بمرض التيفوس عام 1617.

أنجب أحمد في هذه الأثناء عديدًا من الأبناء الذين كان يمكن لأحدهم أن يستلم زمام السلطة، لكن صغر سنّهم جميعًا والصراعات التي كانت تتم في الخفاء من قبل الحريم أدت لتغيير في مسار الأحداث (لأن محظية السلطان الأخيرة لم ترغب بأن يُقتل أبناؤها كما جرت العدة ليتمكن أخوهم الأكبر غير الشقيق من استلام السلطة)، وهكذا تدخلت القوى الحاكمة من وراء الستار وغيّرت الخط الوراثي في العائلة، وقضت بانتقال السلطة من الأخ لأخيه بدلًا من تسليمها لابنه البكر عثمان، ولهذا.. تحول مصطفى الأسير، إلى السلطان مصطفى الأول.

لكن الأمور لم تجرِ على ما يرام.

لم تكن طينة مصطفى من طينة الملوك، لم يُخلق ليكون سلطانًا، ولا يبدو أنه كان حريصًا على مركزه الجديد، كما أن قناعته بأن شقيقه سيقتله في أي لحظة خلال الأعوام الاثنتي عشرة الأولى من حياته، وسجنه لأربعة عشر عامًا بعد ذلك دون فعل أي شيء سوى تناول الأفيون والتسكع مع المحظيات لم تساعده على تبوؤ العرش. وقد تأمل أفراد البلاط الأقوياء بأن تلعب مكانته الجديدة دورًا في تغيير نمط حياته وشخصيته وتسمح له باختراع شخصية جديدة يقدم بها نفسه من جديد إلى المجتمع، ولكن.. هذا لم يحدث.

فتحولت مهام مصطفى الرئيسية في الحكم إلى الضحك على الناس، وشدّ لحى الوزراء، ورمي عمائمهم أرضًا حين يكلمونه حول أشياء حكومية مهمة. وكان يميل لتعيين أشخاص عشوائيين - مثل المزارع الذي قابله أثناء الصيد - في وظائف رسمية قوية. ولاحظ المحيطون به أيضا أنه كان يأمر عبدتين عاريتين تمامًا بمرافقته في جميع أنحاء القصر، وأنه كان يستعمل العملات الذهبية والفضية لصيد السمك.

ضاق أفراد البلاط ذرعًا به بعد أقل من ثلاثة أشهر على توليه الحكم، فخلعوه بمؤامرة أخرى ووضعوا على العرش الفتى عثمان ذي الأربعة عشر ربيعًا، فتدبر مصطفى الأول أموره وتمكن من العودة إلى القفص الذهبي مرة أخرى ونجا بأعجوبة من محاولة قتله المحكمة.

كان يمكن للأمر أن ينتهي عند هذا الحدّ، إلا أن الأيام بيّنت بأن عثمان الثاني المبكّر كان شخصًا طموحًا وسلطانًا غير تقليدي يتمتع بحماسة للإصلاح ورفضٍ تامٍ للالتزام بالتقاليد. حيث نجح في الضغط على أفراد البلاط لمنع قتل أيٍّ من إخوته خلال فترة حكمه. ثمّ ارتكب الخطأ الحاسم حين أزعج وحدات النخبة في الجيش العثماني، وهم الإنكشاريون، حين ألقى اللوم عليهم لفشله في الفوز في معركة قادها، وعاقبهم بإغلاق المقاهي ومنعهم من التدخين أو الشرب، قبل التخطيط أخيرًا لحلهم

تمامًا وتأسيس جيش بديل في سوريا.

ومع أن عثمان كان على حقّ في ما يتعلق بقدراتهم العسكرية، إلا أنهم كانوا معارضين تمامًا لأفكاره وخططه تلك، ولا عجب في ذلك. وهكذا كان عثمان الثاني السلطان الأول في التاريخ الذي قتله جيشه الخاص بإجماع تام من جميع أفراده، وقد قتلوه خنقًا بالأيادي.

وهكذا.. حين لم يجد البلاط وريثًا للعرش من نسل عثمان الثاني، اضطروا لإحضار مصطفى من القفص الذهبي مرة أخرى لاستلام زمام الأمور، لكنه لم يكن على ما يرام.

لا يمكننا تخمين أفكارهم حول وضعه النفسي والعقلي خلال سنواته الأربع الإضافية التي قضاها في السجن بعد توليه الحكم في المرة الأولى، لكن ظنّهم خاب خلال فترة وجيزة من توليه الحكم للمرة الثانية لأن وضعه لم يتطور نحو الأفضل، بل تدهور نحو الأسوأ. في البداية.. حين حضروا لمقابلته لزفّ نبأ توليه العرش مرة أخرى، قام بتقييد نفسه بالسلاسل إلى أحد الجدران ورفض مغادرة الغرفة صائحًا: «لا أريد أن أصبح سلطانًا». وبعد أن قاموا بهدم جدران الغرفة لاستخراجه منها، قضى مصطفى شطرًا كبيرًا من وقته في الركض في أنحاء القصر بلا هدى، وبكل أسى ويأس، بحثًا عن أخيه عثمان الثاني لأنه كان يعتقد أن أخاه مختبئ في إحدى الخزائن لملاعبته، وأنه سيسلمه زمام السلطة حين يجده، ليتمكن من العودة لقفصه من جديد.

استمر الحال على هذا المنوال سبعة عشر شهرًا، قام مصطفى خلالها بالقضاء في أمور لا تصدّق، كتعيين أحد حمير الجرّ والنقل مسؤولًا عن أحد المساجد، إلى أن قرر الجميع بأن الأمور زادت عن حدّها واجتمعوا على الرأي لإحالته إلى القفص من

جديد، بمن فيهم أمه التي ناضلت من قبل لوضعه على العرش، مع وعد من المتآمرين بألّا يقتلوه مهما جرى. تمكن مصطفى بهذه الطريقة من أن يجلس على العرش مرتين، وأن يكون السلطان الوحيد في السلالة العثمانية الذي لم يُقتل على يد أحد أخوته أو أقاربه.

تميّز السلطان الجديد مراد الرابع بناحيتين مفيدتين للغاية للبلاط العثماني، إذ أنه لم يكن مجنونًا من ناحية، كما أنه كان في الحادية عشرة من عمره من ناحية أخرى. وتمكنت أمّه قوسم، المرأة الذكية الداهية، واللاعبة الرئيسية خلف الستار في تلك المسرحيات السابقة جميعًا، من الحكم لسنوات نيابة عن ابنها الصغير، الألعوبة التي استخدمتها لمصالحها إلى أن مرّت الأعوام وكبر مراد الرابع وأدرك ما كان يدور من دون علمه، لكنه تكشّف عن شخص سيئ للغاية بدلًا من الحاكم العادل الذي كانت الإمبراطورية في انتظاره.

عقد مراد الرابع عزمه على تأكيد سلطته وتعزيزها، فتجاوز أخاه عثمان في قراره لحلّ الجيش الانكشاري، ومنع التدخين والخمر والقهوة على وجه الخصوص، منع الجميع في مملكته من شرب القهوة.

وإذا ما أردنا تشبيه منع الشعب من تناول القهوة في تركيا لمبادئ حياتنا اليوم لكان الأمر أشبه بمنع الفرنسيين من تناول الأجبان مثلًا، ومنع الأمريكان من اقتناء الأسلحة، ومنع البريطانيين من انتقاد الآخرين وتنميطهم ووضعهم في قوالب جاهزة. لكنه كان عاقد العزم ومصممًا على تنفيذ أوامره، فوضع دوريات تجوب الشوارع في الليل متخفّين بملابس العامة للتأكد من عدم تناول القهوة هنا أو هناك، ومنحهم الإذن بقتل أي شخص يضبط متلبسًا وهو يشرب القهوة.

وقضى بقية وقته في إعدام أي شخص لأي سبب، كعزف نغمة غير صحيحة،

أو رفع الصوت أثناء الحديث، أو المشي بجانبه أقرب من اللازم، أو الإبحار إلى جانب قصره، أو لأن ذلك الشخص امرأة.. هكذا بكل بساطة.. فقد كان يكره النساء كره العمى.

تشير الآثار إلى أن مراد قتل حوالي خمس وعشرين ألفًا من البشر خلال خمس سنوات من أصل سنوات حكمه السبع عشرة، أي أنه ذبح وسطيًا ثلاثة عشر شخصًا يوميًا خلال تلك السنوات الخمس، ولم يتوقف عند هذا الحد، لكنه توقف عن إعدام الناس للأسباب الآنفة الذكر، وقرر قتل أي شخص لأي سبب، وكان يتجول في الأنحاء رافعًا سيفه في وجه أي شخص لا يعجبه شكل رأسه مثلًا. لكن مراد الرابع هذا لم يكن رغم كل تلك الأسباب الحاكم الذي نعته التاريخ بالسلطان المجنون.

كما قام مراد الرابع أيضًا بقتل جميع الأخوة الباقين الذين لم يقتلهم سلفه عثمان الثاني. وحينما مات عام 1640 بسبب تشمع الكبد من كثرة شرب الكحول، أثار سبب موته الكثير من السخط والاستغراب بين صفوف العامة لأنه منع الجميع من شرب الخمر، وأمر على سرير موته، وقبل وفاته بخمس دقائق بقتل الأخ الوحيد (إبراهيم) الذي بقي محتجزًا طوال سنواته الخمس والعشرين داخل القفص الذهبي، مفضّلًا اندثار الحكم العثماني على استلام أخيه هذا لزمام السلطة. قضى إبراهيم حياته كلها داخل القفص، محاصرًا بالخوف من الموت على يد حراس أخيه، ولنا أن نتخيّل صحّة توقعاته مهما طال الزمن. ومن جديد.. لم يُقتل إبراهيم بسبب تدخل والدته الداهية قوسم.

لكن الناس والبلاط لم يتنفسوا الصعداء طويلًا بعد فرحتهم بالخلاص من الطاغية مراد، لأن إبراهيم لم يكن مجنونًا حين دخل القفص رضيعًا، لكنه خرج منه مجنونًا بلا أدنى شك.. بعد قضاء عمره كله بين جدران لا خروج منها.

وكسلفه مصطفى، كان رافضًا تمامًا لفكرة مغادرة القفص معتقدًا أنها مؤامرة تُحاك ضده لقتله، ولم يقتنع إلا حين أحضروا له جثمان أخيه المتوفى إلى غرفته.

وما أن تمكنوا من إخراجه حتى اقترحت والدته عليه شغل وقته بالجواري، لأنها كانت تعلم تمامًا بأنه لا يصلح للحكم. لكنه لم ينفذ اقتراح والدته فقط، بل بالغ كثيرًا في تنفيذ اقتراحها.

وإلى جانب ولعه الغريب بارتداء الفراء على الدوام، والذي دفعه للأمر بفرش وتغطية غرف القصر جميعها بالفراء، فقد كان مهووسًا بالجنس إلى حدّ مرضي، مما منح أمه الوقت الذي تحتاجه للحكم بدلًا عنه. حيث قامت بتزويده بعدد مهول من الجواري وتركته محاطًا بحلم خرافي عن آلهة الجنس مما أنهكه وأبعده عن غرفة العرش.

شملت عادات إبراهيم الجنسية أمورًا رهيبة (وأنا دقيق للغاية هنا، ويمكن للجميع الاطلاع على المصادر)، فقد وصف ديميتري كنتمير أمير مولدافيا ما رأته أم عينيه في ذلك الحرملك قائلًا: «كان السلطان يجمع العذارى من الجواري بين الحين والآخر في حديقة القصر، ويأمرهن جميعًا بالتعري أمامه، ثم يصهل كجواد في سباق ويمتطيهن واحدة تلو الأخرى في فرحة عجيبة، ويأمر بعضهن بالصراخ والمقاومة كما لو أن الأمر عملية اغتصاب وليس جنسًا بين السلطان والجارية».

ثم باتت الأمور أسوأ، حسب وصف أمير مولدافيا، فقد شاهد إبراهيم بقرة في أحد المراعي في إحدى جولاته وشعر مباشرة بأنها فاتنة للغاية، أثارته أعضاء البقرة التناسلية، فأمر برسمها ونسخ الرسم وتوزيعه على أنحاء الإمبراطورية بحثًا عن امرأة لها عضو تناسلي ضخم كتلك البقرة.

نعم.

من الجدير بالذكر أن مصدرنا هذا قد لا يكون عادلًا تمامًا، قد يكون متحيزًا بشكل أو بآخر، إلا أنه درس في القسطنطينية وتكلم اللغة التركية وقام بكتابة هذه التفاصيل بعد عقود من حدوثها. وقد سجل جميع تلك التفاصيل في كتاب سمّاه: تاريخ صعود وانحطاط الإمبراطورية العثمانية، وقد كتبه بعد انتهاء حلف مولدافيا مع تركيا وتحولها للولاء لروسيا، وبعد خسارته الفادحة أمامهم وحبسه ونفيه، مما يعني بأنه لم يكتب كتابه بلا تحيّز أو أحقاد. وبقاء الإمبراطورية العثمانية على قدميها لقرنين بعد كتابة كتابه يؤكد لنا أنها لم تكن في مرحلة انحدار حين كتب ما كتبه وأطلق ذلك الاسم على الكتاب.

أسفر بحث إبراهيم عن امرأته الموعودة ذات الأعضاء التناسلية العظيمة كالبقرة عن فتاة في أرمينيا، اسمها مكعب السكر، وسرعان ما أصبحت محظيته، وسرعان ما خرجت الأمور عن السيطرة، فقد أخبرته في إحدى المرات أن إحدى جواريه ليست مخلصة له فاستعر غضبه بجنون مما حدا به إلى ضرب ولده بسكين في وجهه لأنه مازحه بهذا الشأن، ولأن جاريته لم تتمكن من تأكيد هوية الخائنة، قام بتقييد جميع الجواري المتواجدات في الحرملك في ذلك اليوم، والبالغ عددهم مائتين وثمانين جارية، وتعبئتهن في أكياس ورماهن في مياه البوسفور. وخوفًا من سلطان مكعب السكر المتعاظم مع مرور الوقت وتأثيرها على السلطان، قامت قوسم في أحد الأيام بدعوتها إلى العشاء وقتلتها، وأخبرت ابنها أن محظيته ماتت بسبب مرض مفاجئ غريب.

ومع حلول هذا الوقت، كانت نزوات إبراهيم وأهواؤه قد أبعدت عنه جميع المحيطين به ونفّرتهم منه. كما أن ولعه بالفراء والنساء كان يقود الخزينة إلى الإفلاس بخطى حثيثة، لكنه حظي بالعديد من الأولاد مما يعني أن الإمبراطورية لم تعد مهددة بالاندثار. وقد اتفق الجميع على التخلص منه، بمن فيهم والدته قوسم

نفسها، فانتفض الجيش الانكشاري للمرة الثانية خلال عقدين من الزمن وساقوا إبراهيم مكبلًا بالأصفاد إلى القفص من جديد. وقضى المتعوس آخر عشرة أيام من حياته في نفس المكان الذي قضى فيه طفولته، قبل أن يقرر المتآمرون إنهاء ما بدأوه بالتخلص منه نهائيًا.

يبدو تاريخ الإمبراطورية العثمانية في تلك الفترة أشبه بكابوس من الكوابيس التي تصيب المرء بسبب الحمّى، مع إضافة بغض النساء الشديد إلى صفات الحالم، إنها حقبة تجعل من مسلسلات تاريخية معاصرة مثل صراع العروش تبدو كلعبة أطفال بالمقارنة معها، ويجعلها عصيّة على التصديق أكثر وأكثر لشدة دمويتها. كما أنه لا يمكن لأحد أن يميّز الحقيقة من المبالغات والمغالطات التاريخية التي كُتِبَتْ لتُنصِف اللاعب السياسي وتُبرّر كل القتل والدماء التي سالت على يده.

كما أن قصص تلك الحقبة لم تكن محض قصص سلاطين مجانين ونساء نافذات فقط، بل كان عصر بداية التكنولوجيا والحركات الاقتصادية الكبرى في العالم أجمع، بالإضافة لتشكل التحالفات الجديدة وإعادة رسم الحدود بين الدول واندلاع الحروب أينما وليت وجهك. ولم تكن الإمبراطورية العثمانية مختلفة عن ذلك، فما أن انقضى النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى ودّع العثمانيون عصر قتل الأخوة والأخوات المنظّم والحروب الأهلية، وأسسوا اقتصادًا متينًا وغيّروا نظام الدولة الأحادية إلى النظام البيروقراطي. وكانوا بعيدين كل البعد في تلك المرحلة عن بدء انحطاط دولتهم، بل يمكننا القول إنهم خرجوا من مآسيهم الدموية تلك بشكل جيد، وأن المظلومين الحقيقيين هم جميع أولئك الضحايا الذين ذُبِحوا في القرون الماضية بلا سبب.

خمسة قادة آخرين لم يكن يجدر بهم أن يجلسوا على كرسي الحكم

القيصر ويليام الثاني

كان القيصر ويليام الثاني يرى في نفسه مفاوضًا من الطراز الممتاز مع لمسة دبلوماسية ذهبية، لكن ميزته الحقيقية كانت قدرته على إهانة أي حكومة تواصل معها، مما يفسر لنا الكثير عن كيفية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

جيمس السادس والأول

لم يكن جيمس هذا أسوأ عاهل على الإطلاق، فقد وحّد عروش اسكتلندا وبريطانيا وإيرلندا ووضع إنجيلًا موحّدًا، لكنه كان مهووسًا بملاحقة الساحرات وتعذيبهن على مرأى ومسمع منه شخصيًا، كما أنه كتب مؤلفًا عن حملاته العظيمة للقضاء على الساحرات.

كريستيان السابع

كان كريستيان هذا ملكًا فقيرًا على عرش الدانيمارك. لكنه كان مهووسًا جنسيًا بشكل لا يمكن وصفه، مما يجعله أبعد ما يكون عن مكانة العرش الذي جلس عليه.

القيصر بيتر الثالث

كان مهووسًا بدمى الجنود الخشبية، إلى درجة أنه لم يتمكن من إتمام زواجه من عروسه كاثرين سوى بعد سنوات لشدة انشغاله باللعب

بتلك الدمى. كما أنه قام في إحدى المرات بمحاكمة جرذ في محكمة عسكرية حقيقية لأنه حاول سرقة إحدى الدمى من غرفتها.

تشارلز الرابع

كان مشهورًا لقناعته بأنه مصنوع من الزجاج، وأنه قد يتحطم في أي لحظة. وقد انتهى حكم هذا الملك المتعوس لفرنسا بعد أن خدعه البريطانيون للتوقيع على معاهدة تقول إن الملكية البريطانية وريثة لعرش فرنسا، مما أدى لحروب بلا نهاية لقرون تلت.

5
قوة الشعب

بفضل قدرة الحكام الاستبداديين على تخريب الدنيا والدول والأماكن والأزمنة، حاولت جميع الأمم على مر التاريخ أن تخفف من ذلك عبر تجربة شيء يُسمى «الديمقراطية»، بدرجات متفاوتة من النجاح.

ما زال مكان تجريب الديمقراطية للمرة الأولى محل خلاف، لكن اتخاذ القرارات بشكل جماعي كان سمة رئيسية للمجتمعات الصغيرة المبكرة في التاريخ بكل تأكيد. كما أن هناك أدلة تاريخية على اقتراب الهنود من تأسيس نظام ديمقراطي قبل 2500 تقريبًا، لكن الفضل يعود بالطبع لمدينة أثينا اليونانية في تبني أول نظام ديمقراطي ووضع أسس أول حكومة ديمقراطية في التاريخ، وذلك في عام 508 قبل الميلاد.

أهم سمات الديمقراطية هي وضع وصف دقيق لماهية المواطن، لأن الحكومة يجب أن تكون في خدمته، وهو القادر على تغيير حكومته إذا لم تكن على مستوى توقعاته. ولفترات طويلة عبر التاريخ، وفي بلدان عديدة، لم يكن تعريف المواطن يشمل جميع الناس الموجودين على أراضي الدولة، بل يستثني منهم

جماعات معينة، كالنساء والفقراء والأقليات العرقية، إذ لا يمكن منح صفة المواطن لأيّ كان، أليس كذلك؟

من مشكلات الديمقراطية الأخرى هي حماس الناس لها لأنهم يعتقدون أنها تمنحهم السلطة، لكنها سرعان ما أثبتت أنها تسلب المواطنين سلطتهم تلك. وكنتيجة لذلك، تتطلب الديمقراطية عملًا جبارًا من موظفيها لتبقى واقفة على قدميها دون أن يلاحظ المواطنون أنهم عبيد لها.

وكمثال على هذا، حاول الرومان منع الديمقراطية من الانجراف والتحوّل إلى الديكتاتورية بشتى الوسائل، فقسّموا مركز المستشار إلى منصبين مختلفين، وكان منصب المستشار هذا يتمتع بأعلى سلطة يمكن تخيلها، لأنه يجمع بين قيادة الجيش والقوى العسكرية المدني. فقاموا بقسم تلك السلطات بين شخصين بدلًا من جمعها في منصب منتخب واحد، وقرروا أن يتم انتخاب قادة جدد كل عام، وأن يتبادلها القائدان دوريًا بشكل شهري، وأن لا يكون لأي منهما أي سلطة سوى على فيلقين من أصل الفيالق الرومانية الأربعة. وقد كانت تلك وسيلة جيدة حقًا كي لا تقع السلطة المطلقة في يد رجل واحد.

لسوء الحظ، لم يكن الأمر مثاليًا لأن الفيالق الأربعة كانت مطلوبة سوية لشن أي معركة أو للدفاع عن المملكة، كما جرى حين هاجمهم هنيبعل بجيشه الجرّار الذي تقدمته الفيلة عام 216 قبل الميلاد. وهكذا.. اضطر قادة الفرق للتنقل جيئة وذهابًا بين القائدين لوسيوس أميليوس باولوس وغايوس تيرينتوس فارو. كما واجهتهم مشكلة عدم تطابق الرؤى الحربية، ففي يوم يكون القائد الحذر باولوس على رأس السلطة، وفي اليوم التالي يحوزها زميله القائد فارو المتهور، وهلم جرًا. انتظر هنيبعل الذي رغب في جرّهم إلى ميدان المعركة يوم تولي فارو للسلطة وبادرهم بالضربة.. هكذا بكل بساطة، فتمكن هنيبعل من محق الجيش الروماني

عن بكرة أبيه.

ولوقف مثل هذه المهازل، ما كان من الرومان إلا أن يجدوا حلًا.. وهو وضع دكتاتور على رأس السلطة، شخص يملك السلطة المطلقة في أوقات الأزمة، والاتفاق معه على التنازل عن السلطة حال انتهاء المشكلة. ولسخرية القدر، تخلّص مجلس السيناتورات الروماني من الديكتاتور قبل المعركة بساعات لأن استراتيجيته وتكتيكه الحربي لم يعجباهم. الفكرة ممتازة كفكرة، لكنها تعتمد على شخص واحد ممسك بزمام السلطة المطلقة وقيادة جيش جرار، ومع ذلك فقد تداول الرومان ذلك المنصب بلا مشاكل إلى أن قرر قائد طموح اسمه يوليوس قيصر أنه سيحتفظ بالسلطة المطلقة لنفسه. انتهى الأمر به مطعونًا حتى الموت، لكن جميع من تولوا المنصب بعده قرروا الاحتفاظ بالمنصب لأنفسهم، فسرعان ما تحولت الجمهورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية.

تبنّت النظم الديمقراطية بعد ذلك طرقًا عدة لمنع القادة والحكّام من الوقوع في حبائل إغراء السلطة المطلقة، كالنظام الانتخابي في الولايات المتحدة. ويجب علينا أن نشكر القدر لأننا لم نولد في جمهورية البندقية يوم كانت تعتمد على نظام انتخابي فريد من نوعه قبل عدة قرون، يتم فيه انتخاب قاضٍ يُسمّى القاضي الأول لحكم الجمهورية.

وباعتبار أن ذلك المنصب كان منصبًا مدى الحياة يتم انتخابه من قبل مجلس النخبة الأعلى، وهم القلة القليلة من النخبة، مما لا يدع مجالًا للشك بوجود الفساد. تأسس ذلك النظام الانتخابي عام 1268 بنيّة منع أي شخص من التحكم بالانتخابات. وقد تمت الانتخابات بالطريقة التالية: يتم اختيار أول ثلاثين شخصًا عن طريق السحب العشوائي، ثم يتم السحب مجددًا من هذه الثلاثين الأخيرة لتقليص الرقم إلى تسع أسماء. يقوم هؤلاء التسعة بانتخاب أربعين عضوًا للمجلس، يتقلص

رقمهم فيما بعد إلى اثني عشر عن طريق سحب عشوائي آخر، ينتخبون بدورهم خمسة وعشرين عضوًا يتحولون مرة أخرى إلى تسع أعضاء، ينتخبون خمسة وأربعين، يتم تقليصهم إلى أحد عشر، ينتخبون واحدًا وأربعين وفي الجولة العاشرة والأخيرة يقوم هؤلاء الواحد والأربعين عضوًا بانتخاب قاضٍ أول.

يا له من أمر مجهد وسخيف للغاية، ولا بد أنه كان كابوسًا للعصبة السياسية الفينيسية، إذ لا يمكن بأي شكل لأحد مهما كان أن يتنبأ بهوية الفائز. ولكن.. إنصافًا للأوليغارشية الفينيسية، لا بد لنا من القول بأنهم نجحوا، لأن الأمر بقي على حاله دون مشاكل لخمسمئة عام سادها الازدهار الاقتصادي، إلى أن قام نابوليون بونابرت باحتلال البندقية عام 1797.

في الواقع.. هذا يجعل من البندقية منارة ومضرب مثل في الاستقرار، وخصوصًا حين نأخذ وضع إيطاليا العصيب بعين الاعتبار، فقد توالت على حكمها خمس وستون حكومة وثلاثة وأربعون رئيس وزراء خلال 72 عامًا قبل الحرب. وبالمقارنة معها، كان لبريطانيا خمسة عشر رئيس وزراء خلال نفس الفترة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض الأشخاص حازوا المنصب أكثر من مرة. وهذا أمر هام للغاية في وقتنا هذا لأن إيطاليا تمر كالعادة بواحدة من أزماتها الدستورية المتكررة. ولأجل الدقة المهنية، لأكتب الجملة التالية مع فراغات فيها لتتمكنوا أنتم من ملء الفراغ حسب التاريخ الذي تطالعون فيه الكتاب.

تعاقبت على حكم إيطاليا -------- حكومة ابتداء من عام 1946.

إحدى مشكلات الديمقراطية التي تجعلها هشّة وسريعة العطب هي أن السياسات التي بدت معقولة تحت إحدى الرايات الليبرالية الديمقراطية تتحول إلى إصابة في مقتل وتسبب مصائب لا حل لها حين تتولى حكومة أكثر ميلًا إلى

الديكتاتورية منها إلى الديمقراطية الحكم. انظروا إلى المكسيك على سبيل المثال، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، حين قررت الحكومة الوليدة بعد استقلال المكسيك عن إسبانيا مباشرة الاستفادة من مقاطعتهم الشمالية البعيدة تكساس، والتي تفتقر لكل شيء.. فقرروا تحويلها إلى منطقة عازلة تحميهم من هجمات السكان الأصليين، فشجّعوا المزارعين الأمريكان ومربي الماشية للمجيء والاستقرار في المنطقة، وسلموهم الكثير من الأراضي عن طريق عملاء ووكلاء لا عمل لهم سوى تشجيع الناس ونشر الكلمة بين القرى الأمريكية المتاخمة، وقد تشجع الكثير من الناس على فعل ذلك لأن المكسيك والولايات المتحدة لم توقعا على معاهدة تقضي بتسليم الفارين من وجه العدالة.

شعرت السلطات المكسيكية بالخطر حين أصبح من الواضح أن بعض الوكلاء يكتسبون قوة سياسية كبيرة مع الوقت، وأن العديد من المستوطنين لم يكونوا مستعدين للامتثال لقوانين الحكومة المكسيكية. شعر المكسيكيون بالصدمة، وفي عام 1830، قرروا فجأة منع أي هجرة أمريكية أخرى، لكنهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن وقف تدفق المهاجرين الأميركيين عبر الحدود.

وصلت الأمور إلى ذروتها عندما تم استبدال الحكومة المكسيكية الليبرالية (نسبيًا) بديكتاتور مستبد في شخص الرئيس أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا، الذي قام في عام 1835 بحل الكونغرس المكسيكي وأقرّ تغييرات كبيرة في دستور البلاد لجمع مقاليد السلطة في يده، مما جعله ديكتاتورًا بلا منازع. بدأ الحاكم بقمع المعارضة بقوة في تكساس، وقاد حملة على مجتمع المهاجرين الأمريكيين مما أدى إلى تأجيج التوترات، وسرعان ما تمرد السكان على نطاق واسع. وبحلول عام 1836، وبعد الحرب التي شملت أحداث ألامو الشائنة، أعلنت تكساس استقلالها، وانضمّت عام 184 إلى الولايات المتحدة، وبدلًا من وجود منطقة عازلة مفيدة ضد التوسع الأمريكي،

فقدت المكسيك مقاطعة لا مثيل لها.

يمكننا استخلاص بضعة دروس متباينة من هذا.. ‹لا تُشجع الهجرة ثمّ تحاول التخلص من المهاجرين وتأتي بتحركات ضدّ مجتمعاتهم، ومن ناحية أخرى.. لا تفترض أنّ الديمقراطية ستدوم إلى الأبد لأنها لا تدوم أبدًا.

بطبيعة الحال، تعتمد الديمقراطية إلى حد ما على الناخبين الذين يتخذون قرارات جيدة في المقام الأول. على سبيل المثال، في عام 1981، انتخبت مدينة سونول الصغيرة في كاليفورنيا كلبًا رئيسًا للبلدية، حيث فاز بوسكو راموس من فصيلة اللابرادور، على مرشحين بشريين بفوز ساحق بعد أن أدخله براد ليبر إلى السباق بعد ليلة سكر في حانة محلية.

إنصافًا لناخبي بوسكو، سار أمر انتخابه على ما يرام، وحصلت مجريات الانتخاب على إشادة على نطاق واسع، وشغل بوسكو منصب رئيس البلدية لأكثر من عقد إلى أن توفي عام 1994. وذكر أحد سكان سان خوسيه كما جاء في صحيفة ميركوري نيوز عام 2013 أن العمدة «اعتاد أن ينبح أمام كل القضبان وكان يزمجر عليك إذا لم تطعمه»، وكان يُشاع أنه أنجب العديد من الجراء مع الكلبات المختلفة في جميع أنحاء المدينة، والذي يبدو وكأنه سلوك سياسي قياسي من جميع من استلموا منصب العمدة. يتذكر السكان بوسكو باعتزاز، حيث أقاموا له تمثالًا من البرونز، ولم تتم الإشارة إلى ولايته بسوء سوى حين ذكرته صحيفة الشعب اليومية الصينية في أعقاب مذبحة ميدان تيانانمن لمهاجمة الديمقراطية الغربية قائلين: «لا يوجد تمييز بين الناس والكلاب»، فانضم بوسكو بنفسه إلى مجموعة من الطلاب الصينيين في مظاهرة مؤيدة للديمقراطية خارج القنصلية الصينية في سان فرانسيسكو للاحتجاج على ذلك.

ربما لم يكن انتخاب بوسكو متوقعًا، لكنه لم يكن أغرب فائز في الانتخابات. من المحتمل أن يذهب هذا الشرف إلى Pulvapies، وهي بودرة طبية للأقدام، تم انتخابها رئيسةً لبلدية Picoaza الإكوادورية في عام 1967. لم تدخل الماركة Pu رسميًا في الانتخابات، لكن صانعيها قاموا بحملة تسويقية كمزحة في جميع أنحاء البلاد مع شعار "التصويت لصالح أي مرشح، ولكن إذا كنت ترغب في الرفاهية والنظافة، فامنح صوتك لصالح Pulvapies". وفي يوم الانتخابات، حصلت Pulvaj على آلاف الأصوات المكتوبة في عدة مناطق. وفي بيكوازا، تمكنت بودرة القدم بطريقة ما من الفوز بالمقام الأول، مما أثار غضب المرشحين العديدين.

ومع ذلك، على الرغم من أن انتخاب أشياء وحيوانات لمناصب سياسية قد يكون أمرًا غير طبيعي، إلا أن أفضل رهان لدينا لا يزال انتخاب إنسان - كما يتضح من حقيقة أن إنشاء العلامة التجارية لرئيس بلدية بودرة القدم ليس حتى أسوأ قرار انتخابي في تاريخ الإكوادور الحديث.

بدلًا من ذلك، من المحتمل أن يذهب هذا الشرف إلى انتخاب عبد الله بوكارام رئيسًا للبلاد في عام 1996. بوكارام، مفوض الشرطة السابق، العمدة ومطرب الروك الذي كان يقوم بحملة انتخابية تحت لقب "المواطن المجنون"، حيث انتصر بشكل مفاجئ بعد حملة رئاسية شعبية هاجمت النخبة في البلاد. وبصفته مفوضًا للشرطة، فقد اشتهر بالطريقة التي "يطارد بها النساء اللواتي يرتدين التنانير القصيرة، والقفز عن دراجته البخارية الآلية وتمزيق ملابسه لجعل تنانيرهن أطول"، كما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز مجريات انتخابه. وبصفته عمدة، كان لديه سجل حافل بتهديد الشركات المحلية من أجل الدفع، وفي عام 1990 هرب إلى بنما لتجنب اتهامات بالفساد. وعد بوكارام الطبقة العاملة في البلاد أثناء حملته الانتخابية التي قادها بصحبة فرقته الموسيقية أنه سيضع حدًا لسياسات الليبرالية الجديدة

كالخصخصة والتقشف اللذين التزمت بهما الطبقة السياسية في البلاد، ولم تمنعه طرقه غير التقليدية من الوصول إلى سدة الحكم، مع أنها أدت لسقوط قادة آخرين، كشارب هتلر مثلًا.

ما أن وصل إلى كرسي الحكم حتى فاجأ فقراء البلاد الذين صوتوا لصالحه بالخطة الاقتصادية الجديدة التي ستدخل حيز التنفيذ خلال أشهر قليلة من بداية فترة رئاسته، وهي برنامج ليبرالي جديد لمضاعفة الخصخصة والتقشف، بينما لم يحرك ساكنًا لتنفيذ وعوده للشعب. كما حاول إزالة حدود مدة الرئاسة من الدستور، وتخطى النص القانوني الدستوري في أحد أوائل خطاباته معلنًا السياسة الاقتصادية الجديدة، وشن هجومًا على صحيفة كانت تنتقده لتباطئه في تنفيذ وعوده.

واصل التزامه بسلوكه غريب الأطوار أثناء وجوده في المكتب الرئاسي، بما في ذلك إصدار أغنية بعنوان "رجل مجنون"، واجتماع مع لورينا بوبيت (المرأة التي اشتهرت بقطع قضيب زوجها)، وبيع شارب هتلر للأعمال الخيرية. وإذا ما كانت التقارير الصحفية في ذلك الوقت دقيقة، فقد يكون من الصعب أحيانًا معرفة الاتهامات الحقيقية من التلفيق، فإنه عين ابنه المراهق في منصب غير رسمي في مصلحة الجمارك، وأفيد أنه أقام احتفالًا حين تمكن الابن من جمع أول مليون دولار. كان الحد الأدنى للأجور في الإكوادور في ذلك الوقت 30 دولارًا في الشهر، لذا يمكننا تخيل الأسباب التي أغضبت الناس.

لم يكن انقلاب الرأي العام بسرعة على بوكارام غريبًا، فقد أثارت تصرفاته احتجاجات حاشدة في الشوارع، وتم عزله من الرئاسة بعد ستة أشهر فقط من ولايته، باعتبار أنه "مختل عقليا". (كان هذا بالتأكيد مجرد ذريعة، ولكن إذا كنت ستقوم بحملة باسم "El Loco"، فمن المحتمل ألا يكون لك من يساندك حين تخسر الشعب بتلك الطريقة. كما تم اتهامه باختلاس ملايين الدولارات، فهرب على الفور

إلى المنفى في بنما. هناك العديد من الدروس التي يمكن لنا استخلاصها من كل هذا، لكن أهمها هو شارب هتلر هذا الذي يودي بجميع من يحملونه على وجههم إلى الهاوية.

وباعتبار أننا ذكرناه، وذكرنا احتمال تحول الديمقراطية إلى كابوس مرعب من الديكتاتورية، فلا يمكن لنا إلا أن نتحدث عنه.. هتلر!

هتلر

يمكن لي تخمين ما تفكر به الآن، إن الحديث عن هتلر في كتاب يدور حول الأخطاء الفظيعة التي ارتكبناها كجنس بشري ليس الأكثر جرأة على الإطلاق، لكن ما من مهرب لنا إلا بذلك، رغم حدسي بأن الجميع يعرف كل ما سأقوله هنا.

ولكن بعيدًا عن كونه مهووسًا بالإبادة الجماعية، فهناك جانب مختلف تمامًا لطالما تجاهله التاريخ من سنوات حكم هتلر. وحتى إذا كانت الثقافة الشعبية قد اعتادت تحويله إلى مصدر سخرية منذ فترة طويل، فإننا ما نزال نميل إلى الاعتقاد بأن الآلة النازية كانت فعالة بلا رحمة، وأن الديكتاتور العظيم قضى معظم وقته في إصدار الأوامر. لذلك، يجدر بنا أن نتذكر أن هتلر كان في الواقع مجنونا غير كفء وكسول وأن حكومته كانت عبارة عن عرض مهرج في سيرك.

بل ربما يكون السيرك نفسه الطريق الذي أوصله إلى سدة الحكم، باعتبار أن النخبة العسكرية الألمانية كانت تستهين به وبقدراته. وفي الحقيقة، وقبل أن يصبح مستشارًا لألمانيا، صرف منافسوه على كرسي الحكم النظر عنه، ولم يعتقدوا أنه ند لهم، ولطالما سخروا منه بسبب خطاباته الفظّة واجتماع البسطاء من الناس حوله. وقد وصفه أحد محرّري صحيفة ألمانية في ذلك الوقت بأنه «مغفّل مثير للشفقة»،

بينما وصفت صحيفة أخرى حزبه بأنه جماعة لا تضم سوى الأشخاص غير الأكفاء، وأن الشعب يجب أن يكون بعيدًا في نظرته المستقبلية عن أمثال هتلر.

وحتى بعد أن فاز حزبهم في الانتخابات وأصبح النازيون أكبر حزب في ألمانيا، لم يغير الناس فكرتهم عن هتلر، وظل في نظرهم الأحمق الذي يمكن لأي شخص ذكي أن يسيطر عليه بسهولة. لقد اعتقد فرانز فون بابن، مستشار ألمانيا الذي أقيل حينها، والذي كان مصممًا بمرارة على استعادة السلطة، أنه يمكن أن يستخدم هتلر كبيدق على رقعة شطرنج، فدخل في مناقشات معه لتشكيل حكومة ائتلافية. وبعد اتفاقهما في يناير 1933 وتعيين هتلر كمستشار وفون بابن في منصب نائب المستشار، مع مجلس وزراء مكون من حلفائه المحافظين، فقد ظلّ فون بابن واثقًا من انتصاره على هتلر. وطمأن أحد معارفه الذي حاول تحذيره بأنه ارتكب خطأ قائلًا: «إنه في جيبنا». وقال لأحد أصدقائه بعد شهرين: «لقد دفعنا هتلر إلى زاوية الرقعة، لن يلبث أن يقع».

لكنه كان واهمًا. في الواقع، وفي أقل من شهرين، استولى هتلر على السيطرة الكاملة على الدولة الألمانية، وأقنع المجلس بمنحه سلطة تمكنه من تجاوز الدستور، والرئاسة، والرايخ نفسه. وما كان قبل أيام ديمقراطية حقيقية، تحول بوجوده إلى عكسها.

لماذا استهانت النخبة الألمانية بهتلر؟ ربما لأنهم لم يكونوا مخطئين في تقييمهم لكفاءته، لقد فشلوا في إدراك أن كفاءته القليلة لم تكن كافيةً للحدّ من طموحه. وكما اتضح، كان هتلر فاشلًا حقًا في إدارة الحكومة. وكما كتب رئيس قسم الصحافة أوتو ديتريش في وقت لاحق في مذكراته The Hitler I Knew، "خلال اثني عشر عامًا من حكمه في ألمانيا، تسبب هتلر في خلق أكبر تشويش في حكومة وُجِدَتْ يومًا في دولة متحضرة".

كان هتلر يكره قراءة الأوراق الرسمية، والتي كان مجبرًا على قراءتها، فاتخذ قرارات مهمة دون النظر في الوثائق التي أعدها مساعدوه. وبدلًا من مناقشة مؤيديه في السياسة، أجبرهم على الاستماع لخطب مرتجلة حول كل ما يدور في ذهنه، وهو جلّ ما يخشونه، لأنهم كانوا مضطرين لانتظاره لينتهي ليتمكنوا من متابعة أعمالهم.

كانت حكومته دائمًا في حالة من الفوضى، ولم يكن لدى مرؤوسيه أي فكرة عما يريدهم أن يفعلوه، ولم تكن مهام أحدهم واضحة في أي يوم من الأيام. وعندما كانت الأمور تتطلب اتخاذ قرارات صعبة منه، كان يغضب ويثور، وكثيرًا ما انتهى به الأمر بالاعتماد على شعوره الغريزي لاتخاذ القرارات الصعبة، تاركًا حلفاءه المقربين ضائعين في بحر من الحيرة بشأن خططه. "إنه يدفعنا جميعًا للجنون، بسبب عدم ثقته بالجميع، وبنفسه"، كما كتب صديقه المقرب إرنست هانفشتاينغل لاحقًا في مذكراته Zwischen Weißem und Braunem Haus. وبدلًا من القيام بواجبات الدولة، أمضى الجميع معظم وقتهم في قتال بعضهم البعض والطعن بأقرب الأصدقاء والزملاء في محاولة للفوز بموافقته أو تجنب انتباهه تمامًا، حسب الحالة المزاجية التي كان عليها في ذلك اليوم.

هناك بعض الجدل بين المؤرخين حول ما إذا كانت هذه خدعة متعمدة من جانب هتلر لقيادة البلاد على طريقته الخاصة، أو ما إذا كان حاكمًا سيئًا جدًا بالفعل. كتب ديتريش بنفسه أن هتلر كان يتبع أسلوبًا تكتيكًا ماكرًا لبث الفرقة والفوضى، ولا يمكن إنكار أنه كان ماهرًا للغاية في ذلك. لكن عندما تنظر إلى العادات الشخصية لهتلر، فمن الصعب علينا أن ننكر بأن حكمه كان مجرد نتيجة طبيعية لشخصية نرجسية وضعها القدر على كرسي حكم دولة ما.

كان هتلر كسولًا للغاية أيضًا، كما وصفه مساعده فريتز وايدنمان، إذ لم يكن ينهض من فراشه قبل الحادية عشرة ظهرًا حتى حين يكون في برلين، ولم يكن يقوم بشيء قبل وقت الغداء سوى قراءة ما كتبته الصحف عنه في ذلك اليوم، الجرائد التي كان ديتريتش يوصلها له بنفسه. لكنه لم يكن يحب قضاء وقته في برلين، في المكان الذي يتطلب منه القيام بالكثير من المهام، فكان ينتهز أي فرصة لترك مقعد الحكم والهروب إلى منعزله الجبلي، حيث يتمكن من الاسترخاء وقضاء الوقت كما يحب، وهناك.. لم يكن يغادر غرفته قبل الثانية عصرًا، وكان يقضي معظم وقته في جولات على الأقدام أو مشاهدة الأفلام السينمائية حتى ساعات الصباح الأولى.

كان مهووسًا بالإعلام والمشاهير، ولطالما كان يتصور نفسه من خلال ذلك الحلم، ذلك الخيال، بأن يكون في بؤرة العدسة، وأن يكون من المشاهير، وقد وصف نفسه في إحدى المرات "بأعظم ممثل في أوروبا" وكتب لأحد أصدقائه: أعتقد أن حياتي هي أعظم رواية في التاريخ. وكانت عاداته الشخصية صبيانية طفولية وغريبة بالنسبة للبالغين، إذ أنه كان ينام عدة مرات خلال النهار، كما يفعل الأطفال الصغار، وكان يقضم أظافره على مائدة العشاء بشكل علني، ولم يتورع يومًا عن وضع كثير من مكعبات السكر في فنجان الشاي إلى درجة أن الفنجان لم يكن يتسع للشاي نفسه في بعض الأحيان.

وكان مهزوز الثقة بنفسه فيما يتعلق بمعلوماته وثقافته، فكانت سياسته الدفاعية للحيلولة دون أن يلاحظ المحيطون به هذه النقطة تقتضي تجاهل المعلومات التي تناقض مفاهيمه الأولية أو الاعتماد على معلومات الآخرين وخبراتهم، وكان يثور غضبًا كثور هائج حين يصحح له أحد معلومة أو قولًا. وقد كتب وايدمان في مذكراته: "كيف يمكننا تصحيح خطأ لأحدهم حين يثور لأن الحقيقة لا تناسبه؟". وكان يكره ضحك الآخرين على كلامه، لكنه كان يستمتع بذلك

حين يضحك الناس بسبب سخريته من أحد ما، لأنه كان يقوم أحيانًا بتقليد الأشخاص الذين يكرههم، مما يثير السخرية. لكنه كان يتمنى الحصول على موافقة الأشخاص الذين يزدريهم، وكان مزاجه يتحسن حين تكتب عنه إحدى الصحف بخير، وبالذات حين تكون هذه الصحيفة صحيفة معارضة له.

لم يكن ذلك مجهولًا للناس في ذلك الوقت، لم تكن تلك التفاصيل أسرارًا، ولهذا لم يكن منافسوه يأخذونه على محمل الجد إلى أن تأخر الوقت وفات الأوان، بعد أن كان مجرد "مراوغ نصف مجنون" أو "الرجل ذا الحبال الصوتية الملتهبة" كما كانوا يصفونه. لم يكونوا مخطئين تمامًا، لكنهم كانوا مخطئين بشدة في تقديرهم له. لأن مساوئه ونقاط ضعفه لم تمنعه من إملاء الخطب البليغة التي أملتها قريحته السياسية وحدها، مما أكسبه قبول الجماهير العريضة، قد اتضح أن الإنسان لا يحتاج لمزايا معيّنة ليدمر مستقبله ومستقبل الآخرين.

إننا نفترض أن العقل المدبر خلف الأحداث المدمرة هو عقل ذكي للغاية، بل ربما يكون متفوقًا، وهذا أمر مفهوم، لأننا نعتقد أن العقول الذكية الشريرة وحدها القادرة على التخريب المنظم والشامل، نفترض بأن تلك الأصابع الشريرة هي الأصابع التي تحرك الخيوط من الخلف، فيما نفترض مسبقًا أيضًا أن الشخص غير العبقري من وجهة نظرنا، الشخص العادي أو غير الذكي بشكل عام لن يقودنا للدمار.

لكن التاريخ يثبت خطا وجهة نظرنا، وهو ذات الخطأ الذي نرتكبه مرارًا وتكرارًا، لأن أسوأ ما اقترفته يد البشرية لم يكن من صنع أيدي الذكاء الشرير إذا جاز لنا التعبير، بل نتاج عمل الحمقى والمجانين الذين اتخذوا أي قرار في أي لحظة بلا تفكير عميق، والذين ساعدهم أولئك الواثقون من أنفسهم، ذات الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنهم يسيطرون على الطواغيت.

ست سياسات حكومية لاقت الفشل الذريع

الضريبة المتساوية

خرجت علينا أعظم العقليات الاقتصادية في حكومة مارغريت تاتشر بقرار الضريبة المتساوية، حيث يدفع كل شخص، مهما كانت ثروته أو فقره نفس المقدار من المال لمصلحة الضرائب، مما أدى لامتناع ملايين الناس عن الدفع ولأعمال شغب على نطاق واسع، مما أجبر تاتشر على الاستقالة وإنهاء سنوات حكمها.

حظر الكحول

دفع حظر الكحول في الولايات المتحدة ما بين عامي 1920 و1933 كثيرًا من الناس للامتناع عن تناول الكحول، لكنه سمح للعصابات المنظمة والمافيات بالإتجار بالكحول على نطاق خيالي، مما رفع مستوى الجريمة إلى مستويات لا يمكن وصفها.

أثر الكوبرا

قدمت الحكومة البريطانية في دلهي مكافأة لكل من يقتل أفاعي الكوبرا، فعمد الناس إلى تربية تلك الأفاعي القاتلة ورعاية تكاثرها للحصول على المكافآت. مما أدى بالمدينة لأن تغلي بأعداد لا يمكن حصرها من الأفاعي، بدلًا من التخلص منها إلى الأبد.

ضرائب الواردات الفاشلة

حين بدأ الكساد العظيم في الولايات المتحدة في عام 1930، فرضت الحكومة تعريفة مرتفعة على الواردات لدعم الصناعات المحلية، ففاقمت هذه الحرب التجارية من أثر الكساد وأدت لنتاج كارثية على صعيد الواردات والصادرات معًا.

اليتامى المرضى

قدمت حكومة مقاطعة كيبيك في كندا مساعدات حكومية كبرى للمنظمات الكنسية لتقديم الدعم لليتامى والمرضى النفسيين، لكن المبالغ كانت مضاعفة لمن تم اعتبارهم يتامى مصابين بحالات نفسية، فتم تشخيص الآلاف من اليتامى على أنهم مريضون نفسيًا، زورًا وبهتانًا للحصول على الأموال من الحكومة.

سيارات ومزيد من السيارات

حاولت حكومة المكسيك عام 1989 تقليص التلوث عن طريق حظر أنواع معينة من السيارات في أيام معينة، فانتهى الأمر بالسكان بشراء مزيد من السيارات من أنواع أخرى ليقودوا مركباتهم في أي يوم يحلو لهم بدل ركوب الحافلة.

6
الحرب.. ما فائدتها؟

البشر يعشقون الحروب، إنها من اختصاصنا، وتثبت الحفريات أن أقدم أثر لمعركة حقيقية شاركت بها جموع غفيرة من البشر تعود لأربعة عشر ألف عام، على جبل صحابة في وادي النيل، مما يثبت أن البشر كانوا يتعاركون لمدة طويلة قبل ذلك ولكن بأعداد أقل. فقد ذكرنا في فصل سابق أن البشر كانوا يغيرون على القرى المجاورة للسطو عليها ما أن يستقروا في مكان ما ويتحولوا من حياة البدو إلى حياة الحضر، كما أثبتت الحفريات في قرية أواكساكا في مكسيكو.

وقد أثبت علم الإحاثة أن تسعين إلى خمس وتسعين بالمائة من المجتمعات البشرية انخرطت في حروب لفترات طويلة وعلى أساس زمني شبه منتظم، بينما لاحظ العلماء أن المجتمعات التي لم تنخرط في الحروب بنفس الشدة السابق ذكرها كانت مجتمعات شبه منعزلة، حافظت على نظام معيشي أشبه بنظامها السابق من البداوة وجمع الثمار لاستمرار الحياة.

هناك استثناء وحيد لكل ما سبق، وهي حضارة الهارابان التي وجدت قبل

خمسة آلاف عام في وادي الهندوس في أفغانستان وباكستان والهند. تعتبر تلك الحضارة من الحضارات المتقدمة التي نشأت في نفس فترة نشأة الحضارة المصرية في وادي النيل والسومرية في وادي الرافدين، وقد كانت حضارة متقدمة تجاوز عدد سكانها الملايين. تأسست فيها عدة مدن رئيسية تدلّ هندستها العمرانية على تخطيط متقدم وبنية تحتية لتصريف مياه الحمامات والمراحيض، والحمامات العامة. كانت تلك الحضارة موئلًا لعديد من التكنولوجيات والفنون التي انتشرت مع التجار بعيدًا في أصقاع الأرض. ويعتقد علماء الإحاثة أن تلك الحضارة لم تدخل يومًا في حرب مع أي من جيرانها، على الإطلاق. إن الحفريات مستمرة هناك حتى الآن ولأكثر من مائة عام دون الحصول على دليل حربي واحد، ما عدا بعض التحصينات الدفاعية. لكنهم لم يجدوا دليلًا واحدًا على صناعات عسكرية أو منشآت تم تدميرها بفعل حربي، كما لم يجدوا دليلًا على وجود جيش من أي نوع، ناهيك عن وجود أي آثار لأسلحة حربية. ومما يثير العجب أنهم لم يجدوا أي دليل على تماثيل أو نصب تاريخية في ذلك المكان لقادة بارزين أو زعماء خالدين.

قاد ذلك الكثيرين لتصنيفهم أول مجموعة منظمة من الهيبيين في التاريخ، وهي فكرة لطيفة، أقرب ما تكون للخيال من الحقيقة. والأصح هو أن نعتبرهم شعبًا مسالمًا كان على علاقة طيبة بجيرانه. لقد كانوا مستقرين في منطقة محصنة جغرافية تمنع أي شعب آخر من الإغارة عليهم بطرق طبيعية، مما جعل دخولهم الحرب ضد أي طرف آخر بعيد الاحتمال، ومن الممكن أننا لم نجد دليلًا على حروبهم بعد، وحين نجد أدلة على حروبهم ستخسر تلك الحضارة مكانتها وصفتها السلمية. كما أن العلماء لم يجدوا طريقة لحل شيفرة كتابتهم بشكل صحيح إلى حد الآن، ولهذا.. قد يجد أحدهم طريقة لحل تلك الألغاز ويخرج علينا بتصريح مناقض ليخبرنا بأنه وجد أدلة على دخولهم الحروب.

في نفس الوقت، كانت الحضارات المعاصرة تعتمد بشكل أو بآخر على الحملات الحربية والغزو الخارجي، لكن الهارابيين لم يتعرضوا لأي غزو من تلك الحضارات المعاصرة وعاشوا سبعمئة عام دون التعرض لأي ظرف خارجي مسجل من أي نوع، ثم انتهت حضارتهم وتلاشت هكذا، طواها الزمن والنسيان بلا أي سبب. بدأ أهلها بالنزوح من المدن والعودة إلى الأرياف. قد يكون التغيير المناخي الذي أصاب المنطقة حوالي العام 2200 قبل الميلاد العامل المسؤول عن ذلك، لأنه كان المسؤول عن حصول نفس النتائج في مناطق جغرافية أخرى، وقد يكون الانفجار السكاني أو الزراعة المستمرة غير المدروسة التي قد تؤدي إلى مجاعات. كما أن أحدًا لا يمكنه إنكار الآثار المدمرة للأمراض السارية القادرة على محو شعوب بأكملها، وخصوصًا حين الأخذ بعامل الاكتظاظ السكاني بعين الاعتبار. مهما كان السبب، هُجرت المدن وباتت خالية على عروشها قبل 33500 عام منهية بذلك الفترة السلمية الوحيدة المعروفة في تاريخ أي شعب استوطن أرضًا على كوكبنا، فيما تابعت بقية الحضارات والشعوب حياتها المشوبة دومًا بالمعارك والحروب.

قد يعتقد البعض أن طبيعة شعبها المسالم ورفضهم دخول الحرب ضد الآخرين أدى بهم للانقراض، لأن الكثيرين يعتقدون بأن الحروب ضرورية لاستمرار الحضارات.

نحن محظوظون الآن لأننا نعيش فترة مسالمة نسبيًا مع أن قرنًا واحدًا لم يمر بعد على آخر حرب عالمية قضينا بها على بعضنا البعض. ويمكننا الجهر بأن معدل الوفيات الناجم عن الحروب يتناقص تدريجيًا بشكل منظم مع كل عقد من الزمن، مما دفع بعض المنظرين للقول بأننا دخلنا مرحلة جديدة من العقلانية والوعي والصداقة العالمية ما بين البشر، لكني أعتقد وبصدق أن الوقت مبكر كثيرًا على فكرة كهذه، لأن البشر لم يتعافوا بعد من الحرب العالمية الأخيرة، ومن المرجح أن البشر

يتحضرون فقط لشنها من جديد.

أتمنى أن أتوصل إلى أن جميع الحروب هي نتائج لأخطاء يقع عاتقها على أشخاص معينين، في كتاب يتحدث عن الأخطاء البشرية والفشل البشري بشكل عام، لكن الفوضى والرؤى المحدودة والهراء العام الذي تفيض به الحروب يسلط الضوء بشدة على قدرة البشر الموروثة الداخلية لارتكاب الأخطاء الشنيعة، بالإضافة لكونها فعلًا لا يُغتفر بحد ذاتها. الحرب هي رغبة جمعية لسفك الدماء، إنها منطلق جميع الأخطاء الأخرى.

لا وجود لمثال أفضل من معركة قادش الشهيرة، والتي يجب إعادة تسميتها بدقة أكبر Piss-Up of Cádiz. في عام 1625، قرر الإنجليز القضاء على الإسبان. كان الملك جيمس السادس قد توفي للتو، تاركًا ابنه الكبير تشارلز الأول على كرسي الحكم بعد تاريخ طويل في الحكم قضاه في توحيد مملكته ووضع إنجيل مناسب له وملاحقة الساحرات. حمل تشارلز ضغينة تجاه إسبانيا حين رفضوا تزويجه من أميرتهم، مما يدل على عقليته التي قادته في النهاية لفقدان رأسه، فطلب الثأر، وقرر هو وأصدقاؤه اتباع طرق المدرسة القديمة وشن غارات على الإسبان لسرقة كل الذهب والفضة التي كان يصلهم من الأمريكيتين.

أبحرت نحو مائة سفينة محملة بخمسة عشر ألف جندي إنكليزي وهولندي إلى خليج قادش في جنوب غرب إسبانيا، ولم يخرجوا للحرب، ولم يخرجوا ليعودوا خائبين، بل خرجوا ليسطوا على الأسطول الإسباني العائد من وراء بحر الظلمات محملًا بالكنوز.

لكنهم كانوا من قلة التنظيم بمكان إلى درجة أن السبل تقطعت بهم في منتصف الطريق، لقد خرجوا من بلادهم بلا طعام كاف، بلا ماء للشرب، فاضطر

القائد سيسيل، قائدهم، إلى السماح للجنود بالبحث عن الطعام والماء بدلًا من الإغارة على الإسبان، فقام جنوده بما يقوم به الإنكليز عادة حين يسافرون إلى الخارج، شرعوا في البحث عن النبيذ والبيرة وتوافدوا على المشارب في صفوف طويلة وغرقوا في سكرهم.

حين أدرك سيسيل ما جرى لجنوده، اتخذ القرار العقلاني الذي بدا له وقرر إلغاء الحملة تمامًا، وأمر رجاله بالانسحاب والعودة إلى السفن للإبحار إلى أرض الوطن يجرون أذيال الهزيمة. انصاع معظمهم لأوامره، لكن ألفًا منهم تقريبًا كانوا مخمورين بشدة إلى درجة أنهم ظلوا يتسكعون حول الحانات في قادش إلى أن وصل الإسبان وقتلوهم جميعًا.

وهكذا فشلت إنكلترا في غزو إسبانيا.

تعد حملة قادش الإنكليزية هذه من أهم الحملات العسكرية الفاشلة عبر التاريخ، لكنها تبدو جيدة جدًا من وجهة نظري إذا لم نأخذ موضوع الألف سكير بعين الاعتبار، بل وتبدو لي أشبه بأي "رحلة" سياحية نقوم بها اليوم، فنحن نسافر إلى مكان ما ولا نأكل هناك كما يجب، بل نسكر ونسكر حتى الثمالة، ثم نفقد أصدقاءنا ونضيع عنهم ثم نعود والحزن يغمرنا، إنه عطلة نموذجية. إذا حذونا حذوهم، وأرسلنا قواتنا لغزو الحانات في البلدان المعادية وشرب نبيذها والتسكع بلا هدف في شوارع قراها ومدنها، ثم عدنا من حيث أتينا لكان العالم مكانًا أفضل، مكانًا أسعد. ومع كتابتي لهذه الكلمات، فكرت بأن الاتحاد الأوروبي يقوم بهذا بالفعل.

فقد لعب الكحول دورًا مهمًا وكان له أبلغ الأثر على أرض المعارك، كما حصل لما لم تكن معركة بحق وحقيقة، والتي كان اسمها كارانسيبس، في عام 1788. كانت

تلك من أفظع المعارك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الجيش النمساوي فقد عددًا مهولًا من جنوده دون أن يظهر غريمه على أرض المعركة، وفي الواقع، لم يعرف الجيش المعادي، وهو جيش الإمبراطورية العثمانية، بأن ذلك الجيش كان حاضرًا لملاقاتهم في ذلك الموعد والمكان سوى بعد فوات الأوان.

كان الجيش النمساوي على طريق انسحابه ليلًا من مدينة كارنسيبس، والتي تقع حاليًا في رومانيا، محاولين ألا يلاحظهم جواسيس العثمانيين، فنشرت حامية محلية من المنطقة الرومانية نفسها شائعة تفيد بوصول العثمانيين لخلق الفوضى وتسريع عملية الانسحاب، بينما تروي قصة أخرى أن مجموعة من ضباط سلاح الفرسان التقوا بفلاح من والاشيا على الطريق، وكان ذلك الفلاح محملًا بالبراندي، فقرروا الاستراحة معه لأن يومهم كان طويلًا جدًا، فأحس الجنود والفرسان بالغبن، فقد قضوا يومًا طويلًا أيضًا، وهم يستحقون تناول البراندي والاستراحة كضباطهم، فسبق السيف العذل وانتهت الأمور بشكل غير.. تقليدي.

مهما كان السبب، يتفق الجميع على أن المصيبة وقعت حين أطلق أحدهم عيارًا ناريًا في الهواء، فأطلق آخر للرد عليه صائحًا: الأتراك.. الأتراك. اعتقد الجنود السكارى أن الأتراك وصلوا بالفعل وبدأوا بإطلاق النار وساد الهرج والمرج وسقطت أعداد هائلة من القتلى فيما بدا للجيش بأنه يحاول الهرب من القوات التركية. وسط تلك الظلمة والفوضى والثمالة الشديدة، قضت إحدى الحاميتين على الأخرى بسبب أوهام التعب والخمر.

وحينما أدرك الكثيرون منهم بأن الأتراك غير موجودين، كان العديد منهم قد مات أو هرب، وكانت عرباتهم المدرعة ومدافعهم قد دمرت، وكانت مؤونتهم قد فقدت أو رميت في الوحل. وحين وصل الأتراك في اليوم التالي، لم يجدوا سوى جثث لا تُحصى للنمساويين وبقايا معسكرهم المدمر.

تختلف التقديرات للخسائر بين الأطراف المشاركة في الحرب بشكل كبير، إذ يقول أحد المصادر أن "العديد" ماتوا وجرحوا، فيما يقول آخر بأن 1200 قد جرحوا. وقد أقر الإمبراطور النمساوي جوزف الثاني في رسالة لأحد أصدقائه أنهم فقدوا جميع خيامهم وثلاث قطع كاملة من المدفعية. وقدّر أحد أهم المصادر أن عدد الموتى قد وصل بالفعل إلى عشرة آلاف قتيل، لكنه رقم مبالغ به اخترعه أحد المؤرخين ليجعل قصته اكثر إثارة وجاذبية.

بالنتيجة، وقعت معركة ما، مات بعض الناس ولم يمت آخرون، لكن الجميع متفقون بأنها كانت أغبى معركة في التاريخ.

أعتقد أنه ما يوصف في الأدب بعبارة: ضبابية الحرب.

لدينا مثال آخر على هزيمة الجيوش لأنفسها في حصار بطرسبرغ في الحرب الأهلية الأمريكية، حينما حولت قوات الاتحاد نصرًا تكتيكيًا مجيدًا إلى نكسة مهينة بطريقة لا تخطر على البال. كانت القوات الفيدرالية المعادية متحصنة ومحاصرة داخل حصن، فقضوا شهرًا في التخطيط لطريقة لهدم جدران قلعتهم الحصينة بمناورة واحدة، وانتهوا إلى حفر ممر مشابه لممرات المناجم بطول 500 قدم تحت الحصن وزراعة كمية مهولة من المتفجرات تحته.

وحين فجروا الجدران مع انبلاج صبح يوم 30 حزيران/يونيو من عام 1864، فاجأ الانفجار الجميع، وقتل مئات من قوات الفيدراليين وأنتج حفرة قطرها 170 قدمًا بعمق ثلاثين قدمًا، وبعد ثلاثين دقيقة من التحديق بذهول إلى آثار الانفجار، هاجمت قوات الاتحاد التي لم تكن مدربة على هجوم تكتيكي كهذا، لأن الجنود المدربين بحق كانوا من ذوي البشرة السوداء، من الزنوج، فلم يرغب القائد بنسب النصر للجنود الزنوج، فأمرهم بالوقوف على جنب والسماح للجنود البيض البشرة

بالتقدم فقط، خروجًا من الحرج والخجل أمام الأمم والشعوب. فاندفعت القوات البيضاء إلى الموقعة واندفعت مباشرة نحو الحفرة المشؤومة.

ربما حسب القائد أن الحفرة خير مكان لإنهاء المعركة، لكنها لم تكن كذلك. ما أن استعاد الهنود الفيدراليون بعضًا من تماسكهم بعد صدمة الانفجار حتى وجدوا أنفسهم محاصرين بحفرة تعج بالأعداء الذين لم يتمكنوا مثلهم من الخروج منها. لم تتوقف الإمدادات.. كان جنود الاتحاديين يصلون باستمرار لتعزيز زملائهم عددًا وعدة، لكن ما جرى هو أن من وصلوا إلى الحفرة عجزوا عن قتال الناجين من الانفجار، لتعاطفهم الشديد معهم، فأعلنوا التمرد وانضموا لجيش الفدراليين.

نتعلم من هذا الدرس أن لا نخرج لقتال أحد محاصر داخل حفرة.

إن أهم الدروس التي يتعلمها ضباط ودارسو العلم الحربي التكتيكي هو أهمية الاتصالات للانتصار في المعارك. كان هذا أهم درس تعلمته حكومة جزيرة غوام في المحيط الأطلسي أثناء الحرب الأمريكية الإسبانية في عام 1898، حين نسيت حكومتهم الاستعمارية في إسبانيا أن تخبرهم باندلاع الحرب.

نتيجة لبعد النظر الخرافي هذا، وجّهت قيادة الجزيرة العسكرية رسالة شكر لسفن الحرب الأمريكية المقاتلة على إطلاقها ثلاث عشرة طلقة مدفع أمام حصن سانتا كروز الإسباني القديم، واعتذرت منهم لأنهم لا يستطيعون رد التحية بالمثل في الحال لأن المدافع موجودة في طرف آخر من الجزيرة.

بعد فترة من الارتباك والحيرة التي أثارتها الرسالة، أرسل الأمريكان للجزيرة بأنهم لم يطلقوا المدافع تحية لجزيرة غوام، بل كانوا يفتحون النار لمهاجمة الجزيرة، لأن الحرب اندلعت بالفعل قبل أيام. أرسل ضباط الجزيرة المذعورون والمغبونون لشعورهم بأنهم أصبحوا أسرى حرب لدى الأمريكان للقوات المهاجمة بأنهم لم يتلقوا

أي رسالة من إسبانيا لأكثر من شهرين، وأنهم لا يعرفون أي شيء عن وقوع حرب بين الطرفين. ناقش الطرفان في مراسلات استمرت لفترة طويلة ما يجب عليهم فعله، بوجود أحد التجار المحليين لأن ذلك التاجر كان صديقًا قديمًا لقبطان السفينة الأمريكية.

استسلمت غوام بعد أيام قليلة وبقيت تحت الحكم الأمريكي إلى يومنا هذا.

كجنس بشري، نحن لا نتعلم من أخطائنا التاريخية، لا نتعلم من دروس التاريخ. الجميع يعلم هذا، لكن بعض الأمثلة الصارخة تثير الحنق والسخرية إلى درجة الفضيحة، لأنها لا تُغتفر بكل بساطة، كما فعل هتلر حين كرر خطأ نابوليون القاتل الذي ارتكبه قبل 129 عامًا، الخطأ الذي أفشل مخططهما المتكرر نفسه، خطتهما لاحتلال أوروبا بكاملها، وهو خطأ محاولة غزو روسيا.

الغزو الوحيد الذي نجح عبر التاريخ في غزو روسيا هو الغزو المغولي لما كان يعرف وقتها بكيفان روس، حينما لم تكن روسيا الدولة التي نعرفها الآن، الغزو المغولي الذي ليس له مثيل كما سنرى في فصل لاحق. حاول البولنديون غزو روسيا أيضًا من قبل، وتمكنوا بالفعل من السيطرة على موسكو لعدة سنوات، لكنهم اندحروا في النهاية، بينما انتهى الأمر بشكل مأساوي مع السويديين الذين جربوا حظهم مرة واحدة، مما نتج عنه إنهاء الإمبراطورية السويدية إلى الأبد. لا بد لنا من تعلم الدرس: لا تحاول غزو روسيا أبدًا.

كانت خطة نابوليون أفضل بشكل طفيف من خطة هتلر، لأنه لم يكن يملك أي تجربة سابقة يستند عليها، كما أنه كان واثقًا من نصره أشد الثقة نتيجة لتفوق جيشه العسكري في ذلك الوقت. بالإضافة لذلك، كان يرى في غزوه لروسيا فرصة للانتقام من القيصر ألكسندر، الذي كان يقوض حصار نابوليون الاقتصادي لبريطانيا،

الدولة الوحيدة التي كانت تستعصي على نابوليون بالإضافة لروسيا. من المسلم به أن كسر الحظر التجاري ومساعدة الدول الحليفة ليست سببًا لاندلاع الحرب بين دولتين. يمكننا الآن أن نقول بعد كل تلك السنين، أن خطأ نابوليون الذي قضى عليه هو شن الحرب على روسيا بدلًا من اتباع الطرق الدبلوماسية والمفاوضات السلمية للانتهاء من المشكلة، لكن الحوار لم يكن يومًا أحد أساليبه.

لا بد أنه اعتقد يومها بأن غزو روسيا أهين عليه وأضمن من غزو بريطانيا حين اتخذ قراره ذاك، لأنها كانت حربًا برية على الأقل - من وجهة نظره - لا تستدعي دخول الأسطول في الحرب. وباعتبار أنه كان يفهم طبيعة الطقس الروسي، فإنه كان على دراية تامة للوقت المناسب لشن الحرب، والذي لم يكن يتجاوز الثلاثة أشهر من العام، فوضع استراتيجية تقتضي الزحف مباشرة إلى موسكو وإجبار الروس على الدفاع عنها، معتمدًا على جيشه المتحفز والمدرب في مواجهة المرتزقة الذي كانوا القوات الوحيدة التي يملكها الأرستقراطيون الروس.

كانت هذه واحدة من الخطط التي تبدو محكمة ورائعة للغاية حين تكتبها على ورق وتتلوها على الآخرين، لكنها تعتمد على سير الأمور كما خطط لها. وبدلًا من ذلك، أفسح الروس لهم المجال للتقدم بلا عقبات، ثم تراجعوا وتراجعوا متفادين المواجهات المباشرة والمعارك، فيما يسدون الطريق على التعزيزات الفرنسية حين وصولها، إلى أن حل الشتاء وقام بالمهمة بدلًا عنهم. فات الأوان على تغيير النتيجة حينما أدرك نابوليون ماهية اللعبة الروسية، قرصهم الصقيع قبل أن يتمكنوا من سحب قواتهم من فوهة الخطر، وأجبرهم على العودة مشيًا على الأقدام إلى أرض الوطن البعيدة ليتهالكوا على الطرقات صرعى للبرد والثلوج. فتحت تلك الفضيحة طريقًا أمام قيادات بقية أوروبا وأفسحت المجال للتحرك ضد الغازي الذي لم يكن له نقطة ضعف من قبل. ومن هنا، بدأت نهاية نابوليون.

وجد هتلر نفسه عام1941 في نفس الموقف بعد أن أدرك صعوبة غزو بريطانيا، فقرر غزو روسيا في نفس الوقت الوحيد من العام الذي يسمح بذلك، في الثلاثة أشهر الملعونة تلك نفسها كبديل عن غزو بريطانيا. كان الألمان قد وقعوا عريضة واتفاقية سلام مع روسيا قبل ذلك بسنوات، لكنه كان يحمل العقلية النازية، وكان الروس شيوعيين، وكان هو يكره الشيوعيين.

درس هتلر استراتيجية نابوليون الغبية وظن أنه توصل إلى خطة ذكية لتفادي خطأ سلفه. فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وهاجم لينينغراد وكييف في نفس الوقت الذي هاجم فيه موسكو، ولم يتراجع مع أولى إشارات الشتاء كما فعل نابوليون، بل صمد وتابع القتال كانت خياراته تلك كارثية، وما لم يلاحظه هو أن تكتيكاته التي بدت له ذكية بالفعل، كانت ستترجم على أرض الواقع بصورة مختلفة. كان يخطط لمهاجمتهم بصورة صاعقة وسريعة، كل على حدة، أن يربح المعارك بسهولة وسرعة وافترض انهيارهم التام خلال أيام. نفس الخطأ الذي ارتكبه نابوليون، الوهم بأن خططه ستسير كما أراد لها، لم يكن قد وضع بالحسبان وجود أي منعطف آخر للأحداث، وتجاهل الرعب الذي سيفرضه الشتاء الروسي.

كان بمقدور العديد من الضباط والقيادات الموجودة في حكومة هتلر اطلاعه على العثرات التي يمكن أن تواجه الجيش وتقضي عليه، لكنه كان يتحفظ على خططه ويبقيها لنفسه ولا يطلع عليها أقرب ضباطه ووزرائه حين يشعر بأي بادرة شك من قبلهم، أو أي إشارة استنكار أو نقض من أي نوع. كما كان يكذب عليهم أحيانًا لينفذ ما يراه. كانت قراراته تستند إلى ثلاثة أركان لا رابع لها: الغطرسة الفائقة، والتخطيط القائم على الأمنيات لا التخطيط العقلاني، ودفن رأسه في الرمل حين تحاصره أخطاؤه.

الانسحاب الألماني من روسيا عام 1944.

كانت عيوب خططه مماثلة لعيوب مخططات نابوليون، مما أدى لنتائج مماثلة، إلا أن عدد ضحاياها كان أكبر بكثير. إذ استولى الألمان على مساحات شاسعة واستراتيجية وربحوا بعض المعارك، لكن الروس لم يندحروا وينهاروا كما افترض السيناريو الذي وضعه هتلر، بل استخدموا تكتيك الأرض المحروقة وتركوا الألمان يسرحون كما يشاؤون إلى أن حل الشتاء واتضح للجميع بأن الجنود لا يملكون ملابس ملائمة لمواجهة البرد، ولا معدات مناسبة.. ولا حتى سوائل مانع تجمد لدباباتهم. لم تفلح أوامر هتلر لجنوده بالصمود في وجه البرد ومقاومة الصقيع ومواصلة القتال في تحصيل أي نصر منشود. ومن جديد.. قضى الشتاء الروسي على جيش احتل معظم أراضي أوروبا بشكل كارثي، لأن قائده تصور أنه قادر على احتلال روسيا وضمها لدولته، فانقلب السحر على الساحر.

وفوق كل ذلك، قامت اليابان - حليفة ألمانيا - في الوقت عينه، بهجوم بلا داع على ميناء بيرل هاربر الأمريكي وجرّت قدم قوة عظمى إلى حرب كانت أمريكا تحاول عدم التدخل فيها. يمكننا القول الآن، بأن قوى المحور كانت ستربح الحرب لولا هذين القرارين الغبيين، غزو روسيا والإغارة على ميناء بيرل هاربر. مما يثبت أن عدم اتخاذ القرارات الصحيحة مفيد للبشرية على المدى البعيد في بعض الأحيان، وأنا أفترض هنا أنك لست معجبًا بهتلر.

وحين اشتبك الأمريكان مع اليابانيين في المحيط الهادئ، أثبتت الظروف أن الحرب قادرة بالفعل على خلق جو من الاضطراب ونشر الذعر والفوضى حتى في عقول الناس البعيدين كل البعد عن ميادين المعارك. هذا ما حصل في حالة جزيرة كيسكا المنعزلة في شمال المحيط الهادئ، والتي تقع في منتصف الطريق بين اليابان وألاسكا، إلا أنها كانت ذات مكانة استراتيجية عظمى بالنسبة للولايات المتحدة. كانت تلك الجزيرة واحدة من جزيرتين استولت عليهما اليابان في ذروة الحرب عام 19، مما أفزع الأمريكان، لأنها كانت المرة الأولى التي تقع فيها أراضيهم تحت احتلال أجنبي منذ عام 1812، حينما كانوا في صراع مع البريطانيين، وكان الأمر مرعبًا بالنسبة إليهم مع أنها كانت صغيرة جدًا وبعيدة للغاية.

استعد أربعة وثلاثون ألف جندي أمريكي وكندي عام 1943 لاستعادة الجزيرة، رغم أنهم كانوا لا يزالون في مرحلة التعافي من الخسائر والإصابات التي لحقت بهم من معركة استعادة جزيرة أتو القريبة، حيث سفكت الكثير من الدماء لأن اليابانيين استقتلوا وصمدوا حتى الموت. كان القادة متأكدين من أن المعركة ستكون شرسة إلى أبعد الحدود، وحينما رست بهم قواربهم في الخامس عشر من آب، وجدت القوات أن الجزيرة غارقة في ضباب صقيعي كثيف. في جحيم متجمد كذاك.. ووسط أمطار ورياح تعذرت معها الرؤية تمامًا، شقت القوات طريقها كرجل

أعمى يطأ مكانًا للمرة الأولى، محاولين في الوقت عينه تفادي الألغام، ثم راحت العيارات النارية تنهمر عليهم من كل حدب وصوب، وتنير لهم ما أخفاه الضباب من أعداء لا يمكن رؤيتهم. تابعت القوات محاولاتها المستميتة للتقدم والاحتماء من نيران القناصين خلف رابية تقع في منتصف الجزيرة تقريبًا لمدة أربع وعشرين ساعة، تصاحبهم جوقة من القذائف المدفعية الممزوجة بالعيارات النارية وأصوات المنادين الذين ينشرون الشائعات بأن القوات اليابانية قريبة منهم للغاية.

وفي اليوم التالي، حين انقشع الضباب، وحين أتتهم الفرصة لعدّ جثث القتلى والجرحى، ثمانية وعشرون قتيلًا وخمسون جريحًا، ادركوا الحقيقة المرة، أنهم كانوا وحدهم على الجزيرة، وأن اليابانيين غادروها قبل ثلاثة أسابيع تقريبًا، وأنهم - الأمريكان والكنديون - كانوا يطلقون النار بعضهم على بعض.

يمكننا اعتبار هذه الحادثة خطأ مؤسفًا ولكنه مفهوم، باستثناء شيء واحد.. كان فريق المراقبة الجوية قد أخبر قادة العملية بالفعل قبل أسابيع من الهبوط أنهم لا يلاحظون أي نشاط ياباني على الجزيرة، وأنهم يعتقدون بأن اليابانيين جلوا عن الجزيرة بالفعل. ولكن بعد تجربة تحرير جزيرة أتو، أقنع الزعماء أنفسهم بأن اليابانيين لن يتراجعوا أبدًا، مما دفعهم لرفض تقارير المراقبة والتحيز لفكرتهم المسبقة عن العدو بدلًا من الاستماع لصوت العقل. لقد كانوا متأكدين من فكرتهم المسبقة، إلى حدّ أنهم رفضوا عرض المراقبة الجوية للخروج لجولة استطلاع جديدة من أجلهم للتحقق. لا بد لنا من تعلم درس من هذه الحادثة، اسمه درس عدم وضع افتراضات والسير وفقها.

بعد عامين من ذلك، في شهر نيسان عام 1945، وقبل أسابيع قليلة من نهاية الحرب، كانت الغواصة الألمانية U-1206 تقوم بطلعتها الأولى، بدورية لحراسة المياه الإقليمية شمال شرق ساحل سكوتلاند، وكانت قد أمضت تسعة أيام تحت سطح

البحر. كانت الغواصة تحتوي على آخر ما توصلت إليه اختراعات التكنولوجيا وإبداعات الفن، كانت سريعةً ورشيقة، وكانت تحتوي على مراحيض عصرية فاخرة تلفظ الفضلات إلى عرض البحر بدلًا من تخزينها في حاوية خاصة لرميها بعد ذلك بعد الرسو في الميناء.

كانت مشكلة المراحيض الفاخرة الوحيدة هي أنها كانت معقدة للغاية، إلى حد أن القبطان اضطر في الرابع عشر من أبريل/نيسان للاتصال بمهندس وإحضاره إلى الغواصة لأنه لم يعرف كيفية صرف الفضلات من المرحاض، لأن رائحة الفضلات هي آخر ما يرغب به المرء في مقصورته حين يريد فرض جو من الرزانة والسطوة التي تقتضيها القيادة. ولسوء الحظ، لم يتمكن المهندس من صرف الفضلات، وفي خضم محاولاته العقيمة للتخلص منها قام بتشغيل ميكانيكية معاكسة ما، فغرقت مقصورة القبطان بمزيج من مياه البحر والفضلات البشرية.

أنا لا أعرف صاحب الفكرة القائلة بتركيب ذراع آلية مشابهة لذراع تصريف الفضلات تمامًا، لكنها تقوم بعكس المهمة، وتسحب مياه البحر بطريقة عكسية لتفيض في المقصورة، لكني أعتقد أنه نفس الشخص الذي قرر وضع تلك المراحيض فوق البطاريات تمامًا.

كان إغراق مقصورة القبطان بالفضلات سيئًا بما فيه الكفاية، لكن الأمور خرجت عن السيطرة حين رشحت المياه الآسنة إلى الطابق الأسفل ووصلت إلى بطاريات الغواصة. تفاعلت المياه الآسنة والفضلات مع البطاريات فأطلقت كميات مميتة من غاز الكلورين. لم يجد القبطان بدًّا أمامه سوى الطفو فوق سطح الماء وكشف نفسه أمام سفن الأعداء، فاضطر آسفًا لإخلاء المركبة تمامًا وهجرها في عرض المحيط، وكتابة اسمها في كتب التاريخ على أنها أول وآخر سفينة أغرقتها الفضلات البشرية وتكنولوجيا المراحيض في الحرب العالمية الثانية.

يمكننا هنا أن نتعلم دروسًا مهمة للغاية عن عدم وضع تكنولوجيات معقدة في أماكن مغلقة محصورة بلا وجود دليل للاستعمال يعيننا على تشغيل ما عصي علينا من التقنية، بالإضافة لضرورة إبعاد البنية التحتية الرئيسية عمّا يمكن أن يؤذيها من فضلاتنا. وكي أكون صريحًا معك.. لم أذكر هذا المثال إلا لطرافته.

من الواضح أن وضع خطة هو عامل أساسي للنجاح العسكري، ولكن في بعض الأحيان يمكن للخطة أن تكون ماكرة ومبهرة للغاية. إذا لعبت لعبة الشطرنج ضد شخص ما بشكل أفضل من ذلك بكثير، فمن المحتمل أن تكون على دراية بالكيفية التي تسير بها الأمور: تقضي وقتًا طويلًا في مناورات لحصر الخصم في فخ ذكي للغاية، لتدرك أنه أوقعك، وأنك ستهزم حين تتحرك، لا حين يتحرك خصمك. هذا هو ما فعله الجنرال الفرنسي هنري نافار في فيتنام، إلا أنه قام بتلك المناورات مع الناس بدلًا من قطع الشطرنج، كما فعل مواطنه السابق نابليون، فقد وضع خطة مثالية تعتمد على قيام العدو بالخطوات المرسومة له.

كان هدف نافار في العام 1953 إلحاق هزيمة مذلّة ومدمّرة تمامًا بالقوات الشيوعية التي يقودها فيت مينه، والتي كانت قوات متمردة ثائرة ضد الحكم الاستعماري الفرنسي لإندونيسيا، ليضعف موقف الحكومة المعارضة في مفاوضات السلام المقبلة، فقرر نصب فخّ لهم. بنى القائد نافار قاعدة فرنسية جديدة في منطقة نائية، لكنها تهدد خطوط إمداد مينه، وحاول استدراجهم للمعركة. كانت القاعدة محاطة بجبال عالية مكسوّة تمامًا بالغابات، مما منح الفيتناميين ميزة القدرة على الاختباء خلف الأشجار ومحاصرة القاعدة الفرنسية من المرتفعات. كان الموقع الفرنسي الجديد بعيدًا عن جميع الإمدادات وقوات الدعم، مما يعني أن احتلال القاعدة وتدميرها هدف سهل بالنسبة للفيتناميين، لكن الخطة كانت تقتضي بأن تسحق الأسلحة المتطورة الفرنسية العدو القادم من الغابات، وأن يمدّهم سلاح

الطيران الفرنسي بما يحتاجونه، بينما تقوم المدفعية الفرنسية بالمهمة، باعتبار أنهم متأكدون من عدم قدرة الفيتناميين على جر مدافعهم إلى الغابة. كانت خطة محكمة للغاية. بنى رجال نافار القاعدة وانتظروا وصول العدو.

انتظروا وانتظروا لأشهر.. لكن شيئًا لم يحصل. لم يهاجمهم أحد.. ولكن، ماذا كان رجال العدو يفعلون في هذه الأثناء؟

اتضح بعد فترة أنهم كانوا ينقلون سلاح مدفعيتهم إلى الأدغال، وأن القوات الفيتنامية تعاونت مع سكان المنطقة المحليين على تفكيك المدافع ونقلها قطعة قطعة عبر الغابات الكثيفة والجبال الشاهقة وتركيبها من جديد في أماكنها الجديدة. انتهى الجيش الفيتنامي من المرحلة الأولى من مخططه، ثم جلسوا جميعًا لانتظار موسم الأمطار، وما أن غرقت القوات الفرنسية في الطين وشلت حركة سلاح الطيران حتى هاجموهم بكل ما أوتوا من قوة. باغتت نيران المدافع رجال نافار الذين كانوا يسترخون في الطبيعة الخلابة بانتظار انتحاريين من أهالي القرى المجاورة بلا أي سلاح سوى بنادق عفا عليها الزمن.

حوصرت القوات الفرنسية لمدة شهرين متواصلين، ثم انقضت عليها القوات الفيتنامية واحتلتها. كان حجم الهزيمة مهولًا ومحرجًا إلى حد كبير، إلى حد أن الحكومة الفرنسية سقطت، وأن مينه استطاع مساعدة دولته للحصول على استقلال ما بات يعرف اليوم بإندونيسيا الشمالية. ثم سارت الأمور بعد ذلك كما تعرفون.. تم تقسيم فيتنام إلى دولتين، وتحولت بقية قوات مينه التي كانت في الجنوب إلى قوات متمردة ضد الحكومة الجنوبية تحت اسم فيت كونج. قررت الولايات المتحدة التدخل لمساعدة حلفائها في الجنوب، بسبب اضطلاعهم بالحرب الباردة المعادية للانتشار الشيوعي في ذلك الوقت، مما أدى لافتضاح أمر الحكومة الأمريكية بأنها ليست أفضل حالًا في الحروب من سالفتها، من الحكومة الفرنسية. استمرت الحرب

الفيتنامية بعد ذلك لأكثر من عقدين من الزمن، وتسببت بمقتل ثلاثة ملايين إنسان، لأن هنري نافار نصب للفيتناميين فخًا في أحد الوديان.

إذا ما نظرنا إلى لهذه الهزيمة الفرنسية النكراء من منظار الحوليات العسكرية والسجلات القتالية، فسيتضح أنها كانت مجرد خط أمامي آخر من خطوط النار الكثيرة التي كانت تصب النار على الزيت في خضم الحرب الباردة، لأنها تقدم لنا مثالًا حقيقيًا على مجموعة صغيرة من الناس يقودهم تحيزهم لأفكارهم المسبقة إلى حروب عظمى.

خليج الخنازير

ليست الكارثة التي ارتكبها الأمريكان حين حاولوا احتلال كوبا عبر خليج الخنازير مثالًا كلاسيكيًا نمطيًا عن التفكير الجمعي الذي يجد مجالًا لتنفيذ مخططاته على أرض الواقع فقط، بل هي السبب الذي أدى لاختراع هذه الكلمة أصلًا في اللغة الإنكليزية. فقد اصطلحها إرفنج جانيس الباحث في علم النفس بناء على ما قامت به حكومة الرئيس كنيدي وما توصلت له من كوارث.

إن عملية خليج الخنازير هذه هي بالتأكيد أكثر حادثة مثيرة للخجل عبر تاريخ الولايات المتحدة الطويل والحافل بسلسلة ممتدة من الإخفاقات، حادثة رغبوا فيها في الإطاحة بحكومة جزيرة صغيرة مجاورة لهم، لكن هذه الحادثة ليست الأغرب كي نكون دقيقين في بحثنا هذا. الحادثة الأغرب والأغبى هي شراء جهاز الاستخبارات المركزية CIA لكميات مهولة من الرخويات لاستعمالها في اغتيال فيدل كاسترو عبر تفخيخها.

اقتضت الخطة تدريب عدد من الأشخاص المنفيين من كوبا والمعادين

لكاسترو والثائرين عليه، ليكون لهم دور كبير في مخطط احتلال أمريكا لكوبا والمدعوم بجهاز الطيران. وفيما بعد، حين يتم الاقتحام، وحين يشاهد المواطنون القوات الأمريكية وهي تنتصر بسهولة على الميليشيات الكوبية المهلهلة، يقوم السكان بتحية هؤلاء الكوبيين المنفيين الذين اضطلعوا بالخطة والنظر إليهم اعتبارًا من تلك اللحظة على أنهم فاتحين ومحررين من سطوة الطغيان، ثم ينصتون لأوامرهم ويثورون ضد الشيوعيين. خطة بسيطة، وهي نفس الخطة التي نفذوها في غواتيمالا من قبل.

لكن بوادر الانهيار بانت حين تغلب كينيدي على ريتشارد نيكسون في سباق الرئاسة، لأن الخطة وضعت على أساس أن نيكسون، نائب الرئيس السابق والداعم الأساسي للخطة سيكون الرئيس الجديد في المكتب البيضوي.

كان كينيدي أقل طيشًا من نيكسون بأشواط كثيرة، وكان قلقًا من احتمال اندلاع الحرب بين الغرب والسوفييت، فأصر على إجراء بعض التغييرات. يجب على الدعم الأمريكي للخطة أن يبقى طي الكتمان، مما يعني عدم تدخل سلاح الطيران في التنفيذ، كما أمر بنقل نقطة الهبوط إلى مكان بعيد عن التجمعات السكانية، مما عنى تقويض الدور البشري واستبعاد احتمال قيام ثورة شعبية مدفوعة بالعواطف.

كان واضحًا في تلك النقطة أن الخطة فقدت عواملها الأساسية مما يجعلها اقرب للفشل منها للنجاح، ويعني ضرورة حذفها بالنسبة لأي حكومة، لكن الجميع تابع التفكير فيها واستأنفها رغم مواطن الخلل فيها وكأن شيئًا لم يكن. لم يطرح أحد المزيد من الأسئلة، واعتمد الجميع الافتراضات المسبقة لنجاحها رغم ما تم حذفه منها. وقد ذكر المؤرخ آرثر شلسنجر، أحد مستشاري حكومة كينيدي الذين عارضوا الخطة، أن الاجتماعات تمت "في جوّ مريب يسوده الإجماع المفترض"، وأنه كان يعتقد جازمًا في تلك الآونة بعينها أن الخطة كانت خطة غبية للغاية، وأشار إلى أنه

قال في أحد تلك الاجتماعات: "لا يمكنني شرح فشلي في الإشارة إلى غباء تلك الخطة، وعدم المشاركة حينها سوى بطرح بعض الأسئلة الخجولة إلا بالإشارة إلى ظروف تلك المناقشات والجوّ العام السائد فيها". وكي نكون منصفين، مررنا جميعًا باجتماعات كهذه.

كل ما كان يمكن أن يفشل ويسوء وينهار في تلك الخطة انهار بالفعل حين دخلت حيز التنفيذ، في يوم من أيام شهر نيسان/أبريل عام 1961. فقد هاجم المنفيون الكوبيون قوات كاسترو الجوية بطائرات مقاتلة من نيكاراغوا متخفية لتبدو كطائرات كوبية، دون أي دعم من القوات الأمريكية. اقتضت الخطة الأصلية هبوط إحدى الطائرات في ميامي، وسط مكان شعبي، وأن يعلن الطيار للعالم من هناك انشقاقه عن الجيش الكوبي وعن عزمه على تفجير القواعد الجوية بنفسه. لم تدم تلك الحيلة طويلًا، فسرعان ما أدرك المشاهدون أن الطائرة لم تكن طائرة كوبية أصلًا.

كما أن الهبوط الذي كان يفترض به أن يجري سرًا في بهيم الليل، افتضح بسرعة وانتشر خبره بين السكان المحليين الذين يشتغلون بالصيد، والذين قاموا بتشغيل صفارات الإنذار وأطلقوا النار على الثائرين المزعومين بدلًا من تحيتهم واحتضانهم وتمجيدهم. قال جيورجيو موريرا في اتصال له مع إذاعة BBC في الذكرة الخمسين لمحاولة الاحتلال تلك، أنه صاح بالجيران: "انتبهوا يا شباب.. هذا احتلال.. إنهم يحاولون احتلال بلادنا.. احذروهم". وسرعان ما لاحظت قوات الاحتلال أن الشاطئ الذي فكروا في احتلاله أولًا هو أصعب مكان يمكن لهم احتلاله، وزادت صعوبته حين وصلت القوات الكوبية وفتحت النار عليهم، وعلى وجه الخصوص حين أدركوا أن تلك القوات لم تكن قوات مهلهلة كما أفادتهم الحكومة الأمريكية في وصفها، بل قوات متماسكة مدربة ومجهزة. ثم ظهرت الطائرات الكوبية التي لم

تدمرها الطائرات المزيفة رغم تأكيد الحكومة المسبق بأنها ستفعل ذلك بلا شك.

كانت القوات الأمريكية المحاصرة على ذلك الشاطئ بأمس الحادة لدعم جويّ، لكن الرئيس القلق، كينيدي، لم يصرح بذلك.. فعلقوا على الشاطئ لعدة أيام، مشتبكين بيأس مع قوات الدفاع، مع ذخيرة تتناقص رصاصة تلو الأخرى.

استمر الوضع على هذا المنوال ثلاثة أيام، وبات من الواضح للجميع أن القوات لن تغادر ذلك الشاطئ دون تدخل عسكري دراماتيكي، فتجاوز كينيدي جميع خطوطه الحمر وأمر بتدخل جوي لمساعدتهم. بحلول ذلك الوقت، كان الطيارون الكوبيون قد شعروا بأن الحكومة الأمريكية خذلتهم وتركتهم وحدهم في مواجهة الموت، فرفضوا الامتثال للأوامر ولم يطيروا كما اتفق، فما كان من الإدارة الأمريكية سوى أنها ضربت عرض الحائط بجميع المخاوف من انكشاف أمر مشاركتها في تلك المعمعة، وأمرت حرس ألاباما الوطني بإرسال طيارين من قيادته للتحليق بتلك الطائرات المزيفة، والتي ستدعمها حسب المخطط مقاتلات أمريكية. كان يمكن لتلك الخطوات أن تضمن انسحابًا بلا خسائر للقوات المرابطة على الشاطئ، لكن أعضاء مجلس القيادة، أولئك الضباط المحنكون ومساعديهم الأذكياء، نسوا حساب فرق التوقيت بين المنطقتين اللتين ستنطلق منهما الطائرات، الفرق الزمني بين نيكاراغوا وميامي، وهكذا، حلقت كل من الطائرات في وقت مختلف عن الأخرى ولم تلتقيا أبدًا، مما أدى للكثير منها بالسقوط تحت وابل النيران الكوبية.

انتهى الأمر بتحويل جيش الولايات المتحدة لأضحوكة عسكرية عالمية، وحيازة كاسترو على قوة منقطعة النظير، وألف أسير أمريكي عنده. اضطرت الحكومة الأمريكية بعد سنوات من ذلك لدفع أكثر من خمسين مليون دولار لتحريرهم.

الجانب الإيجابي لهذه المسرحية الفكاهية، تعلم كينيدي من أخطائه في اتخاذ

القرارات، مما أنقذ سكان العالم أجمع بعد سنة من ذلك مع حلول أزمة الصواريخ الكوبية. ونشكر الله على أن الحكومة الأمريكية تعلمت عدم الرضوخ للرأي الجماعي الذي تقوده الاستخبارات دون خطة رديفة أو واضحة.

أكثر الحروب عبثية في التاريخ

حرب الدلو

قُتِلَ ألفا شخص في معركة نشبت بين مدينتي مودينا وبولونا عام 1325 لأن بعض جنود مودينا سرقوا دلوًا من بئر في بولونا. انتصر جيش مودينا ثم سرقوا دلوًا آخر.

حرب الإنكليز ضد زنجبار

أقصر حرب في التاريخ، انتهت خلال ثلاثة أرباع الساعة، حين استولى سلطان زنجباري على كرسي السلطة دون حيازة موافقة البريطانيين، وتحصن في القصر الملكي، فقصفه البريطانيون بالمدافع لثمان وثلاثين دقيقة، فهرب من القصر وانتهت فترة حكمه.

حرب كرة القدم

تحول التوتر الطويل الأمد بين السلفادور والهندوراس إلى حرب حقيقية عام 1969 حين انفجر غليان الشعبين أثناء مباراة كرة قدم جمعت الطرفين.

حرب أذن جنكيز

اندلعت الحرب بين إسبانيا وإنكلترا عام 1731 واستمرت أكثر من عقد من الزمن وأودت بحياة عشرات الآلاف من الناس لأن قراصنة إسبان قطعوا أذن قبطان بحرية بريطاني. امتد تأثير تلك الحرب حتى وصل بعد عشر سنوات إلى حرب العرش النمساوي مما أثر على جميع ممالك أوروبا في ذلك الوقت.

حرب الطست

كان روبرت كورتوس ابن ويليام الفاتح، الابن الذي قام بثورة ضد والده بعد عفو الأخير عن أخويه اللذين أفرغا طست غرفة النوم الذي كان يحتوي على الفضلات فوق رأسه.

حرب العرش الذهبي

اندلعت الحرب بين الإمبراطورية البريطانية وشعب الأشانتي في غرب أفريقيا حين تذمر الحاكم السامي البريطاني من الكرسي الذي وضعوه له وطلب الجلوس على العرش الذهبي الخاص بهم، وهو عرش مقدس لا يُسمح لأحد بالجلوس عليه. ربح البريطانيون الحرب لكن الحاكم لم يتمكن من الجلوس على الكرسي بكل الأحوال.

7
حفلة استعمارية رائعة للغاية

إن إكراه الإنسان على الاستكشاف، والبحث دائمًا عن آفاق جديدة، هو إحدى خصائصنا المميزة. هذا هو السبب في انتشار جنسنا وأبناء عمومتنا في جميع أنحاء العالم في غمضة عين تطورية. إنها القوة الدافعة التي أعطت شكلًا للعالم الحديث، وهو المنتج الغبي والفوضوي وغير العادل في كثير من الأحيان لآلاف السنين من الهجرة والتجارة والاستعمار والحروب.

كانت تلك الرغبة في الاستكشاف ما دفع كريستوفر كولومبوس إلى الإبحار في مياه المحيط الأطلسي الزرقاء الشاسعة الفارغة في عام 1492، لينتهي به المطاف بالاصطدام بالصخور بعد بضعة أشهر كأي مغامر أحمق.

كان ذلك العام قريبًا من بداية ما يُطلق عليه عادة «عصر الاستكشاف»، على الرغم من أنه كان اكتشافًا حقيقيًا إذا لم تكن أحد الأشخاص الذين يعيشون بالفعل في الأماكن التي يتم اكتشافها. سيطرت الإمبراطورية المنغولية على طرق التجارة البرية بين أوروبا وآسيا لتشمل جزءًا كبيرًا من أوراسيا، بفضل مزيج من الطاعون ونشوء الإمبراطورية العثمانية. وهكذا فإن أوروبا، التي كانت تتفاخر بالحديث عن

التكنولوجيا والمعرفة وصيادي الثروات، وضعت البحر نصب عينيها على البحر بدلًا من ذلك. وما بدأ كمحرك للتجارة في آسيا وإفريقيا والأمريكتين المكتشفتين حديثًا تحول بسرعة إلى نزعة الاحتلال والغزو.

يعرف الجميع إلى حد كبير أن كولومبوس اكتشف الأمريكتين عن طريق الصدفة، وأنه وصل إلى منطقة البحر الكاريبي عن طريق الخطأ أثناء بحثه عن طريق مختصر إلى الهند، دون الالتفاف حول الرأس الجنوبي لأفريقيا. ولكن هناك أيضا الكثير من المفاهيم الخاطئة حول خطئه. تقول إحدى القصص الشائعة أنه أثبت أنه محق، لأنه كان واثقًا بنظرية «الهرطقة» التي تؤكد كروية الأرض؛ في هذه الأثناء، اعتقد الحمقى المخلصون في الوطن أنه محكوم عليه بالإبحار حتى حافة العالم. في الواقع كان كل شخص متعلم في أوروبا في ذلك الوقت (ومعظم الأشخاص غير المتعلمين أيضًا) يدرك تمامًا أن العالم كان عبارة عن كرة أرضية، وقد عرفوا ذلك لفترة طويلة جدًا. كانت تلك المعرفة شائعة قبل أكثر من 200 عام من رحلة كولومبوس، وكان اللاهوتي توماس الإكويني يستخدمها بشكل عرضي في كتاباته كمثال على شيء قبله الجميع. بالنظر إلى أن هناك حتى يومنا هذا أقلية ثابتة من الناس الذين ما زالوا يشككون في القصة الرسمية، فإن نظرية الأرض المسطحة قد تكون شعبية الآن كما كانت في القرن الخامس عشر. في عام 2019، تخطط مجموعة من الهواة لتنظيم رحلة بحرية للمؤمنين بأن الأرض مسطحة، والتي ينبغي أن تكون فرصة مثيرة لهم لاختبار نظرياتهم.

لهذا أقول: لا، لم يكن هناك خلاف حول كروية الأرض. الشك في مشروع كولومبوس جاء من مصدر مختلف تمامًا. كانت المشكلة هي أن كريستوفر كولومبوس أخطأ في الحسابات تمامًا لأنه اعتمد على أدوات حساب معطلة.

استندت خطته بكاملها إلى حساباته الشخصية لمسألتين: كم يبلغ محيط

الأرض، وكم تبلغ مساحة آسيا. وقد أخطأ في حساب الجوابين. من ناحية، استنتج أن آسيا كانت أكبر بكثير مما هي عليه بالفعل، وبهذه الطريقة، ومع هبوب رياح مناسبة، توقع أن اليابان تبعد عدة آلاف من الأميال إلى الشرق من موقعها الفعلي. ولكن الأسوأ من ذلك أنه استند في حساباته لمحيط الكرة الأرضية إلى أعمال الفلكي الفارسي في القرن التاسع أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني. لم تكن هذه بداية رائعة لحساباته، حيث كانت هناك تقديرات أكثر دقة لعالم الرياضيات اليوناني ايراتوثينس، الذي حسب محيط الأرض قبل 1700 عام. لكن هذا لم يكن خطأ كولومبوس الأهم.

كان خطأه الأكبر هو افتراضه أن الشيء الذي وصفه الفرغاني بكلمة «ميل» هو الميل الروماني، والذي يبلغ حوالي 4850 قدمًا. لكن هذا لم يكن ما تحدث عنه الفرغاني. بل إنه كان يتحدث عن الميل العربي، والذي يتراوح ما بين 6500 و7000 قدم. لذلك عندما قال الفرغاني إن هناك شيئًا ما على بعد أميال معينة، فقد كان يعني في الواقع مسافة أكبر بكثير مما ظنّه كولومبوس. لقد خلط بين وحدتي قياس مختلفتين تمامًا، وهكذا توصلنا إلى نموذج صغير جدًا يبعث على السخرية. اعتقد كولومبوس أن حجم عالمنا يبلغ ثلاثة أرباع حجمه الحقيقي. إلى جانب حساباته التي نقلت اليابان عدة آلاف من الأميال إلى الشرق، فكانت النتيجة أنه أعدّ العدة والمؤن لرحلة أقصر بكثير من تلك التي واجهها. انتقده الكثير من معاصريه بكلمات مثل «أعتقد أنك أخطأت في حساب حجم العالم يا كريس»، لكنه ظل مقتنعا بحساباته. وعلى العموم، كان من حسن حظه أنه اصطدم بمنطقة البحر الكاريبي عندما فعل ذلك. (لم يفكر أحد حقًا بإمكانية وجود قارة إضافية كاملة في المكان الذي لم تكن تقع فيه آسيا بالضبط). ربما يستحق الأمر أن نضيف هنا بأن افتراضه الخاطئ حول نوع الميل الذي تحدث عنه الفرغاني يعكس بعض النواحي المفيدة للتفكير اللامركزي من جانب كولومبوس! ولكن لنكن صادقين: لم يكن هذا أسوأ شيء فعله كريستوفر

كولومبوس بسبب أفكاره وعقليته.

من المغري أن نتساءل كيف كان يمكن لتاريخ العالم أن يكون لو كان كولومبوس أفضل حالًا في الرياضيات ومن ثم.. لو أنه لم ينطلق أبدًا في رحلته. الجواب هو: ربما ليس كثيرًا، باستثناء بعض الأشخاص الذين يتحدثون البرتغالية الآن. كان البرتغاليون أفضل البحارة والملاحين في أوروبا في ذلك الوقت (كان تمويل حملة كولومبوس إسبانيًا فقط لأن البرتغال رفضتها أولًا، لأن البرتغاليين كانوا واثقين من الأخطاء الجسيمة في حساباته، ولأنهم كانوا يخططون لاستكشاف أجزاء متعددة من الأمريكتين في السنوات التالية. وقد وصل بيدرو ألفاريس كابرال إلى البرازيل في عام بالفعل. وبعد ذلك بعام، وصل الأخوان كورتي ريال إما إلى الابرادور أو نيوفاوندلاند، حيث قاموا على الفور باختطاف 57 مواطنًا محليًا وبيعهم كرقيق في إشارة إلى أشياء قادمة. في الواقع، فإن الأمر الذي كان سيحدث فرقًا حقيقيًا في تاريخ العلاقات بين العالم القديم والعالم الجديد هو أن يتمكن أي شخص، حرفيًا أي شخص، من تقييد دافعه الطبيعي لقتل أو اختطاف أول من يقابله.

قبل خمسة قرون من كولومبوس، كان الفايكنج أول الأوروبيين الفعليين الذين أقاموا مستوطنة في الأمريكتين، حيث انطلق إيف إريكسون من مستعمرة الفايكنج في غرينلاند ووصل إلى ما قرروا تسميته فينلندة «أرض النبيذ» (من المرجح أنها ما يعرف في العصر الحديث بنيوفاوندلاند). مقارنة بغرينلاند القاحلة وغير المسليّة على الإطلاق. وهكذا.. مثلت غابات فينلندة فتحًا رائعًا للفايكنج، حيث أنشأوا مستعمرة تجارية ازدهرت لبضع سنوات. لكن لسوء الحظ، تقلصت آفاق تجارتهم مع السكان المحليين (من المحتمل أن يكون شعب ثول، أو سكرايلنغز كما دعا الفايكنج) بسبب ما حدث في المرة الأولى التي التقوا فيها مع بعضهم البعض. كان هذا أول لقاء بين الأوروبيين والأميركيين في التاريخ المسجل، حيث وجد الفايكنج

مجموعة من السكان الأصليين ينامون تحت زوارقهم المقلوبة، فقتلوهم. لا لشيء، وبلا أي سبب.

لم يحرص السكان المحليون بعد على التجارة مع الفايكنج، وهو أمر غير مستغرب وطبيعي للغاية، كما أن الطرفين اشتبكا بين الحين والآخر، وهذا أمر مفهوم أيضًا. وفي إحدى المعارك هُزم الفايكنج بشكل مروع رغم سيوفهم ذات المقابض الضخمة، التي حلقت فوق رؤوس الرجال وأحدثت ضجيجًا مخيفًا عند سقوطها. شعر الفايكنج بالخوف للغاية من عدوهم لدرجة أنهم كانوا سيخسرون المعركة لو لم تقم فريديس إريكسدوتير، شقيقة قائدهم سكريلينجس بعرض ثدييها للأعداء. وكنتيجة لهذه المعارك وغيرها من الوقائع الأقل غرابة، لم تزدهر مستوطنة فينلاند، ثم اختفت. تخلى الفايكنج عنها بعد عقد أو عقدين من الزمن. وما يثير العجب حقًا، هو أن مستوطنة غرينلاند نفسها - التي ظهرت إلى حيز الوجود في المقام الأول لأن إريك الأحمر - القاتل المعروف - قد نُفِيَ إلى هناك - اندثرت تدريجيًا على مر القرون التالية، حيث فقد الفايكنج اهتمامهم بها.

لو سارت الأحداث بشكل مختلف قليلًا، لو كانت أكثر مثالية مع أعمال قتل أقل مما جرى بالفعل، لاتخذ التاريخ مسارًا مختلفًا. لكانت المستعمرة أسفرت عن طريق تجاري راسخ بين الأمريكتين وأوروبا مع تبادل المعارف والمهارات التي يمكن أن تؤدي إلى مزيد من الاختلاط بين الشعبين. كان يمكن للفجوة في التكنولوجيا والقوة العسكرية أن لا تكون موجودة، أو أن تكون أقل دراماتيكية، وهي الفجوة التي سمحت للأوروبيين في القرن السادس عشر باستعمار العالم. كان يمكن للأميركيين أن يكسبوا الوقت لتطوير مقاومة بدنية للأمراض المعدية في العالم القديم، بدلًا من الوقوع فرائس للرشح والأنفلونزا وجميع الأمراض السارية الأخرى.

وبالمثل، ربما اختلفت سيرورة الأحداث لو عاد أبو بكري الثاني من رحلته،

وهو حاكم إمبراطورية مالي في القرن الرابع عشر. كان إمبراطور إحدى أكبر وأغنى الإمبراطوريات في العالم في ذلك الوقت، والتي غطّت جزءًا كبيرًا من غرب إفريقيا، وقد تخلى عن عرشه وثرواته من أجل إرضاء فضوله حول ما إذا كان هناك شاطئ على الجانب الآخر من المحيط. في عام 1312، أبحر أبو بكري من شواطئ غامبيا، مع أسطول مكون من 2000 سفينة، ولم يشاهدهم أحد بعد ذلك. يزعم بعض المؤرخين الماليين أنه ربما وصل بالفعل إلى شواطئ البرازيل، ولكن حتى لو فعل ذلك، فإنه لم يرجع أبدًا، ودعونا نكون صادقين.. العودة عنصر حاسم إلى حد ما في أعمال الاستكشاف.

ولربما لم يختلف أبدًا، ولربما انتهى بنا الأمر بما نحن عليه. إذا ما ضيّقنا عدستنا بما فيه الكفاية، لوجدنا أن معظم تاريخ البشرية هو قصص إمبراطوريات تقوم وتندثر وتقتتل في ما بينها. ولوجدنا أن الزراعة والزعامة والحروب - كل الأشياء التي ساعدت بدورها على ولادة الإمبراطوريات - ليست الأهم على ذلك الطريق لأنها أقوى الدوافع الطويلة الأمد لوضع خطط للإنسانية، ولكن لأنها الخطط التي يشارك فيها الجميع بمجرد أن يقررها شخص ما. الأمر أشبه بقتال في حانة في الغرب الأمريكي قبل قرنين من اليوم، مع فرق واحد، وهو عدم عودة الناس للرقص بعد انتهاء الشجار، بل الوقوع أسرى له إلى الأبد.

عندما أغرق كولومبوس سفينته سانتا ماريا عن طريق الخطأ على شواطئ العالم الجديد عام 1492، كان عدد سكان الجزيرة التي حط رحاله عليها يتجاوز عشرات الآلاف، وفي خلال أقل من عقدين، وبعد أن استغلهم الإسبان في أعمال التنقيب ونقلوا لهم جميع الأمراض والأوبئة التي يمكن لنا تخيلها وباعوا ما تبقى منهم في سوق الرقيق، لم يبقَ سوى 32 ألفًا منهم. كان كولومبوس فاشلًا في الحساب بالطبع، لكن غباءه الرياضي لم يكن مشكلته الأعظم.

ليس إصدار أحكام أخلاقية على الماضي مهمة المؤرخين بالضرورة، إنهم يسعون للكشف والوصف ووضع سياق للأحداث؛ لفهم وتوضيح كيف مرّ الماضي، وتتبع شبكات السلطة والصراع المتشابكة التي أدت إلى العالم الذي نعيش فيه اليوم. يمكنك القيام بكل ذلك دون التعليق حول ما إذا كانت تلك الأشياء فاضلة أو شريرة. في الواقع، بالنظر إلى التعقيد الذي يسبب الصداع في كل شيء، نادرًا ما يكون الأمر بسيطًا للغاية لمعرفة كل ما يتعلق بالماضي. لحسن الحظ، فإن تحديد حقيقة الماضي هو بالضبط مهمة هذا الكتاب، لذلك دعونا نتفق أن الاستعمار كان سيئًا حقا، سيئًا جدًا. وما مشكلته بالضبط؟ حسنًا، أحد تقديرات الوفيات الناجمة عن الاستعمار الأوروبي في القرن العشرين وحده يشير لوفاة 50 مليون شخص، ويضعه في نفس مكانة جرائم هتلر وستالين وماو، هذا في القرن الذي انهارت فيه الإمبراطوريات الاستعمارية. خلال المائة عام أو نحو ذلك من استعمار الأمريكتين، هناك تقدير متحفظ إلى حد ما وهو أن 90 في المائة من سكان القارة ماتوا بسبب مزيج من المرض والعنف والعمل القسري، وهو رقم يقدّر بعشرات الملايين. السبب الوحيد الذي يمنعنا من أن نكون أكثر تحديدًا هو صعوبة تحديد عدد الأشخاص الذين كانوا يعيشون هناك من قبل؛ أي أننا لا نعرف فعليًا حقيقة ما فقدناه.

وعدد القتلى الذي نعرفه، على فظاعته، لا يمت للحقيقة بصلة، بل إنه مجرد رقم ممسوخ عن الأصل الذي لا يمكن تخيله. تجارة الرقيق الأفريقية، اختراع معسكرات الاعتقال والتعذيب، تجارة الرقيق وبيع البشر كسلع جنسية في الإمبراطورية اليابانية، ونظام العبودية القائم على شراء الأراضي بمن عليها من بشر وتوريثهم للأجيال المقبلة الذي كان سائدًا في المستعمرات الإسبانية في أمريكا، وتطول لائحة الرعب وتبدو خانقة بلا نهرب. يمكننا إضافة محو الحضارات عن بكرة أبيها وتدمير التاريخ وتهريب الثروات الهائلة من أماكنها لتزيين أماكن أخرى، والذي ما نزال نراه جليًا في أساليب الراحة العصرية المهيمنة اليوم حسب المكان الذي تعيش

فيه.

كما قلت من قبل.. كان الاستعمار ولا يزال أسوأ فعل قامت به البشرية، وأعرف أن هذا الفصل من الكتاب غير ممتع للكثيرين، وأعتذر عن ذلك.

ربما لا يجدر بي كتابة هذا، لكننا نعيش في الوقت الحالي في منتصف حقبة الاستعمار وليس في ما بعدها، وها نحن ذا. والحجة باختصار، هي أن فوائد الاستعمار بالنسبة للمستعمرين وذريتهم - تحديث اقتصاداتهم، وبناء البنية التحتية، ونقل المعرفة العلمية والطبية، وإدخال مفهوم سيادة القانون - تفوق الأخطاء المؤسفة التي ارتكبت. لكن مهما كانت الحجة ومهما جمّلناها، فإن هذا لا يزال يتلخص في الادعاء بأن الشعوب المستعمرة لم تكن متحضرة في الأساس؛ غير قادرة على الحكم الذاتي، بعيدة عن التقدم وغير متطورة بما فيه الكفاية للاستفادة من مواردها الطبيعية. لقد كانوا يجلسون فقط فوق كل ذاك الذهب، أولئك الأغبياء الفقراء، دون أي فكرة عما يجب فعله به. بالنسبة للمبتدئين، يعتمد هذا على الأساطير حول حالة المجتمعات ما قبل الاستعمارية أكثر مما يعتمد على الحقائق، كما أنه يضخِّم التفوق المؤقت والتاريخي لعدد قليل من البلدان في التكنولوجيا العسكرية إلى نوع من القانون الأخلاقي الثابت لمن يجب السماح به، ولنتمكن من تحقيق أهدافنا. وما هو أكثر من ذلك، أنه يعتمد على افتراض غير معلن أنه لولا الاستعمار، فإن بقية العالم كانت ستبقى ببساطة في حالة ركود على مدى القرون الخمسة الماضية، أو أنه لم يكن هناك طريقة يمكن تصورها خلاف ما فعلناه.

يمكن للناس تبادل المعارف العلمية أو التقنية عبر الحدود دون كل هذا الاستعمار، لكننا أقنعنا الشعوب أننا لو لم نستعمرهم لظلوا عالقين في مكان ما في القرن السابع عشر. يبدو هذا غير مرجح الآن، خاصةً في ظل تبادل الأفكار الدولي والذي أدى إلى تقدم أوروبا في مجال التقدم التكنولوجي في المقام الأول، ولكن

بالطبع من المستحيل إثبات ذلك بطريقة أو بأخرى. هناك تايلاند، التي تمكنت وحدها من الفرار من هذه الدائرة المفرغة الخبيثة، لقد بحثت عن الأمر على غوغل وحسب، واتضح أن لديهم كهرباء في تايلاند، وهذا ما لا تخبرنا به وسائل التواصل الحديثة.

لكن في النهاية، كل هذا يتحدث عن أهداف متعددة، لأن الانتظار لعدة مئات من السنين ثم القيام بنوع من تحليل التكلفة - المنفعة بأثر رجعي لأفعالك لا يمثل في الواقع طريقة تقييم البشر لأفعالهم بشكل صحيح. يبدو ذلك أشبه بمحاولة لتبرير ما تريد تصديقه بالفعل. نتيجة لذلك، يميل الحديث عن الاستعمار إلى إشراك شخصين يصرخان «لكن خطوط السكك الحديدية!» و«معك حق، ولكن لا تنسَ مذبحة أمريتسار!» على بعضهما البعض بشكل متكرر، حتى يفقد الجميع إرادة العيش. (لا تعتبر القطارات مقياسًا أخلاقيًا للمجازر، وأنا أقول ذلك كشخص يحب القطارات حقًا). لا يتضمن أي من هذا القول أن الاستعمار مسؤول عن كل مرض في العالم، وهو ليس كذلك؛ أو أنه لم يكن كذلك قبل وصول المستعمرين، كانت المجتمعات التي كانوا يستعمرونها جميعها واحات هنيئة للسلام والهدوء حيث كان الجميع يعيشون في وئام مع الطبيعة، لم يكونوا كذلك. آمل الآن في هذا الكتاب أن يتضح للقارئ بأن القدرة على أن نكون أغبياء كانت شائعة جدًا عبر تاريخ العالم. هذا يعني أنه ربما ينبغي لنا أن نحاول التفكير في ماضينا كنوع بشري على أساس ما حدث بالفعل، بدلًا من التوق إلى الحنين الغامض للروايات غير المعقدة حول أمجاد الإمبراطورية.

لنأخذ مثالًا واحدًا فقط: فكرة أن الاستعمار جلب الحكم المستنير وكرس حكم القانون في البلدان المستعمرة لا تتوافق حقًا مع تاريخ المعاهدات العديدة الموقعة بين القوى الاستعمارية والشعوب الأصلية، وهو تاريخ لا يتطابق تمامًا مع

شعار «احترام سيادة القانون». ستكون هذه الفكرة مفاجئة، على سبيل المثال، لدول أمريكا التي وقعت مئات المعاهدات مع الحكومات البريطانية ومن ثم الحكومات الأمريكية، فقط لرؤية كل واحدة منها دولة محطمة مسلوبة السيادة والأراضي. ستكون مفاجأة للماوريين الذين وقعوا معاهدة وايتانغي، حيث أدت سلسلة من أخطاء الترجمة بين النصين الإنجليزي والماوري إلى الغموض حول ما تم توقيعه بالضبط. ستكون مفاجأة لأهل خوسا الذين عاشوا في مستعمرة جنوب إفريقيا من كافرايا البريطانية (نعم، لقد أطلقوا عليها حرفيًا اسم الإقليم على أنه تمويه عنصري للسود)، الذين أجبروا في عام 1847 على مشاهدة المندوب البريطاني كحاكم تم تنصيبه حديثًا، السيد هنري سميث الذي ضحك لأنه مزق رمزيا معاهدة السلام أمام أعينهم، ثم أجبر قادتهم على التقدم واحدا تلو الآخر وتقبيل حذائه. ليست هذه بالقصص الخيالية، بل حقائق مدونة، وقد فعل ذلك حرفيًا. تجدر الإشارة إلى أن التاريخ البريطاني يتذكر عمومًا السير هنري سميث كشخصية بطولية، شخص خُلد في رواية رومانسية شهيرة تصور زواجه الخيالي من فتاة تبلغ من العمر 14 عامًا.

كل هذا يعيدنا إلى أحد موضوعات هذا الكتاب: قدرتنا العميقة على خداع أنفسنا بالقصص والأوهام حول ما نقوم به بالفعل. إذ يتطلب الحفاظ على إمبراطورية جهودًا نشطة ومستمرة للمحافظة على حاضرها وإساءة فهم ماضيها. كان هذا التناقض ساري المفعول منذ البداية، لهذا نفهم من كتابات كولومبوس أنه آمن بشكل راسخ بأنه كان يقوم بعمل الرب في نشر الإيمان المسيحي في نفس اللحظة التي كان يقيّم فيها عقليًا إمكانيات الشعوب الاصلية للخضوع والعبودية. وهذا هو السبب أيضًا في تدمير البريطانيين لعشرات الآلاف من سجلاتهم الاستعمارية بشكل منهجي أثناء مغادرتهم إفريقيا في نهاية العصر الإمبراطوري، وحرقها وإلقائها في البحر في محاولة لمحو التاريخ وتعميم حالة فقدان الذاكرة الجماعي. (في أوغندا، تم إعطاء هذا العملية اسم: عملية نثر رماد التراث).

وليس هناك ما هو أكثر وضوحًا مما كان عليه الحال في المفارقة العميقة المظلمة التي قد تكون أكثر الأعمال الفردية المروعة في الحقبة الاستعمارية - عندما اشترى ملك بلجيكا ليوبولد الثاني مليون ميل مربع من حوض الكونغو كملكية شخصية له، والتي تحولت إلى محرقة مشوهة للربح من عمل الرقيق وأسفرت عن مقتل 10 ملايين شخص على مدى عقدين. المفارقة هي: تم ذلك رسميا باسم الصدقة. منحت الأرض في عام 1885 إلى منظمة خيرية تسمى الرابطة الدولية الأفريقية، التي أنشأها ليوبولد. حدث هذا في مؤتمر برلين - وهو الاجتماع الذي قامت فيه دول أوروبا بتقسيم إفريقيا بينها، مما حفز «التدافع من أجل إفريقيا» الذي حمل استعمار القارة إلى أقصى حدوده. كانت المهمة الخيرية المفترضة للجمعية الدولية الأفريقية هي نقل «الحضارة» لشعب الكونغو. ما فعلته فعلًا هو تحويل البلد بأكمله إلى مزرعة ضخمة للمطاط حيث تم معاقبة السكان لفشلهم في تحقيق أهداف الإنتاج بالموت، أو قطع أيديهم أو أقدامهم أو أنوفهم. ولأن البلجيكيين أرادوا التأكد من أن قواتهم لم تهدر الرصاص الباهظ الثمن على أنشطة غير ضرورية - أي شيء آخر غير القتل - كان من المتوقع أن يقوم الجنود بتسليم عدد مطلوب من الأيدي المقطوعة لإثبات عدد الأشخاص الذين قتلوا.

رصاصة واحدة، يد واحدة، آلاف وراء أخرى، إلى أن تحولت السلال المترعة بالأيدي المقطوعة إلى سلعة في البلاد، سلعة تُجمَعُ بلا حرج من الضحية والجلاد.

ومن الواضح أن ليوبولد لم يجد لمستعمرته اسمًا مناسبًا أكثر من «الكونغو الحرّة».

لهذا أعود وأقول.. كان الاستعمار سيئًا إلى درجة مرعبة.

هذا كتاب عن الفشل، ورغم أن الاستعمار كان سيئًا بالتأكيد، إلا أنه لم يكن

فاشلًا تمامًا. إذا تجاهلنا بطريقة أو بأخرى الأخلاق ونظرنا إلى الناحية المشرقة، فقد كان ذلك نجاحًا هائلًا إلى حد كبير، وكثير من الأشخاص الذين كانوا وراءه مثل الملوك (لا سيما أولئك الذين كانوا ملوكًا بالفعل). لقد نجحت القوى الاستعمارية في أن تصبح غنية للغاية بسرقة كل ما تبقى من الثروات في العالم، وهذا يفسر لنا التدافع على الأراضي لاستعمارها. إن كل تلك الأساطير الذاتية عن المغامرين الأبطال، إلى جانب إغراء المال السهل المفترض، تعني أن الكثير من الناس الذين ألقوا أنفسهم في المشروع الإمبراطوري كانوا - بصراحة - أغبياء سخفاء. وأن «عصر الاكتشاف» كان وباء متفشيًا مع تأثير Dunning Kruger الكبير، مما أنتج سلسلة لا نهاية لها من الرجال غير المؤهلين، عديمي الخبرة وغير المناسبين في بعض الأحيان لقيادة الحملات أو المستعمرات، على أساس أنهم كانوا واثقين للغاية مما يفعلونه. خذ على سبيل المثال، جون ليدارد، الذي كلفه البريطانيون بقيادة رحلة استكشافية للعثور على منبع نهر النيجر، على الرغم من تجربته الوحيدة في إفريقيا حين توقف في محطة بحرية قصيرة على الطرف الجنوبي من أفريقيا. ولد صاحبنا في مستعمرة كونيتيكت البريطانية في ذلك الوقت، واكتسب شهرة كبيرة كمستكشف عظيم بفضل كتابه الشهير في رحلاته كعضو في طاقم الكابتن كوك. لكن مشاريعه المنفردة هي ما يلفت النظر.

كان تكوين الصداقات وبناء شبكات العلاقات الاجتماعية مع أهم الشخصيات أهم المهارات التي تمتع بها ليدارد، فكان يصادقهم ثم يقنعهم بتقديم المال له. كان مشروعه الأول شركة تجارة الفراء التي فشل في بنائها مرارًا وتكرارًا. لكن بينما كان يبحث في باريس عن شركاء أعمال، حصل على دعم العديد من الشخصيات البارزة - بما في ذلك توماس جيفرسون، وماركيز دي لافاييت، والعديد من الأشخاص الآخرين الذين لا ينتمون لطاقم هاملتون - للقيام برحلة استكشافية مختلفة تمامًا. كانت هذه خطة جريئة للسفر عبر روسيا إلى مضيق بهرينغ، وعبور

آلاسكا من هناك واستكشاف كامل طول الساحل الغربي للقارة الأمريكية. وصفه صاحب الفكرة جيفرسون بأنه "رجل عبقري ذو شجاعة لا يعرف الخوف". فقد ليدارد حذاءه في الرحلة إلى سان بطرسبرغ، لكنه اقترض بعض المال وتمكن من الوصول إلى إركوتسك، حيث انتهت الحملة بعد اعتقاله كجاسوس. عاد ليدارد المفلس في نهاية المطاف إلى لندن في عام 1788 حيث أتيحت له الفرصة لقيادة الحملة إلى ما كان يعرف باسم "مجاهل أفريقيا". على الرغم من أنه لم يتحدث اللغة العربية ولديه سجل حافل في الفشل، إلا أن سكرتير الرابطة الأفريقية - وهي المجموعة التي كانت تدير الحملة - أعجب به على الفور. يروي السكرتير، وهو السيد بوفوي، أنه صُعِقَ في لقائه الأول مع ليدارد برجولته واتساع صدره وصراحته ولمعان عينيه. فما كان منه إلا أن اقترح عليه المشروع وسأله عما يحتاجه من وقت للانطلاق، فما كان منه إلا أن أجاب: "صباح الغد". قد تبدو الأمسية الواحدة وقتًا قصيرًا بشكل مثير للريبة للتحضير لرحلة استكشافية إلى منطقة مجهولة في قارة لم تدسها قدم إنسان، اللهم إلا الشواطئ التي وطأها البحارة، لكنكم لم تعرفوا شخصًا مقدامًا مثل جون ليدارد.

لم تتجاوز حملة ليدارد القاهرة، حيث أصيب بمرض الصفراء وحاول علاج نفسه بنفسه عن طريق ابتلاع حامض الكبريتيك. الذي قتله دون أدنى استغراب. توفي في يناير عام 1789، وكانت النتائج البارزة الوحيدة لمغامرته الإفريقية هي بعض الأوصاف المفيدة لطرق القوافل، ورسائل إلى توماس جيفرسون يدعو فيها المصريين بالأغبياء الذين هجروا نهر النيل لأنه غير معطاء مثل نهر كونيتيكت.

ويمكننا الإشارة هنا أيضًا إلى روبرت أوهارا، وهو شرطي إيرلندي مهيب ذو طبع غاضب لا يتمتع بأي حسّ بالاتجاه، والذي انطلق عام 1860 لاستكشاف وسط أستراليا عن طريق تتبع طريق يبدأ من ملبورن وصولًا إلى الساحل الشمالي. بعد

انطلاقه من ملبورن التي ضجت يومها بالحشود المهللة، شق طريقه ببطء في جميع أنحاء البلاد، لأن رجاله اصطحبوا 20 طنًا من المعدات التي تضمنت مجموعة كبيرة من الطاولات والمقاعد الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط، وتحف غونغ الصينية، و12 مروحة كبرى من الريش.

روبرت أوهارا (1820- 1861)

وبفضل مزاج بيرك وافتقاره الكامل إلى مهارات الاستكشاف، حصلت تغييرات

كبيرة في طاقم الحملة بشكل سريع، حيث تم طرد العديد من الأعضاء أو أنهم تركوه بمحض إرادتهم. وعندما أقنعه تقدمه البطيء بتفريغ بعض الإمدادات أخيرًا، اختار أن يترك معظم أسلحته وذخائرها على الطريق، بالإضافة إلى إمدادهم بالليمون الحامض الذي ساعد على منع الإصابة بالإسقربوط. في النهاية، بعد حوالي 2000 ميل، بعد أن ترك معظم الحملة وراءه وأخذ ثلاثة رجال وبعض الجمال فقط، وصل بورك نصف الميت إلى مسافة 12 ميلًا من الساحل الشمالي، قبل أن يعود أدراجه بسبب غابات المانغروف الأشبه بمستنقع على الطريق، وتوفي في رحلة العودة بعد فترة وجيزة من الاستجابة لبعض السكان الأصليين، الذين كانوا يراقبونه عن بعد طوال الوقت، وعرضوا على رجاله المتهالكين الغذاء والمساعدات، فما كان منه بعد تلقيه المساعدة منهم إلا أن أطلق عليهم النار وقتلهم جميعًا.

أغلب المستكشفين الاستعماريين الناجحين تقنيًا كانوا أشخاصًا سيئين حقًا. مثل رينيه روبرت كافيلير، وهو فرنسي انتهى به الأمر إلى المطالبة بساحل الخليج الأمريكي لفرنسا، وتسمية ما سيصبح ولاية لويزيانا. وقد وصفه أحد المسؤولين الفرنسيين بأنه «أكثر قدرة من أي شخص آخر أعرفه»، وقد دفعت خطواته الاستكشافية الأولى إلى اعتقاده بأنه يمكن أن يجد طريقًا إلى الصين من خلال المرور عبر أوهايو. كما كان أبله متعجرفًا - وهي على ما يبدو سمة شخصية مؤسفة للمستكشفين - مع موهبة إلهية لإزعاج معظم الناس الذين يسافر معهم. كانت رحلته الأخيرة في عام 1687 محاولة لغزو المكسيك لأخذها من الإسبان مع جيش من 20 فرنسي فقط. بعد التشاجر في الرحلة بأكملها وفقدان العديد من السفن، ثم التيه في البحر والرسو على بعد 500 ميل من المكان المخطط له، قُتل كافيلير في النهاية على أيدي رجاله في مكان ما في تكساس.

لكن العصر الاستعماري بشخوصه وأبطاله المزعومين الذين افترستهم

أوهامهم عن ذواتهم وعظمتها وقتلهم غرورهم.. هذا العصر الحافل بتلك الشخصيات لم يكن أكثر وضوحًا في التاريخ كله كما ظهر في تاريخ المستعمرة التي لم تكن يومًا كذلك، مستعمرة سكنتها أمة فشلت في أن تصبح لاعبًا عالميًا وانتهى بها الأمر في وقوع البلاد فريسة للجوع والفقر والإذلال. إنها قصة الإمبراطورية الاسكتلندية المؤسفة.

الرجل الذي أفلس اسكتلندا

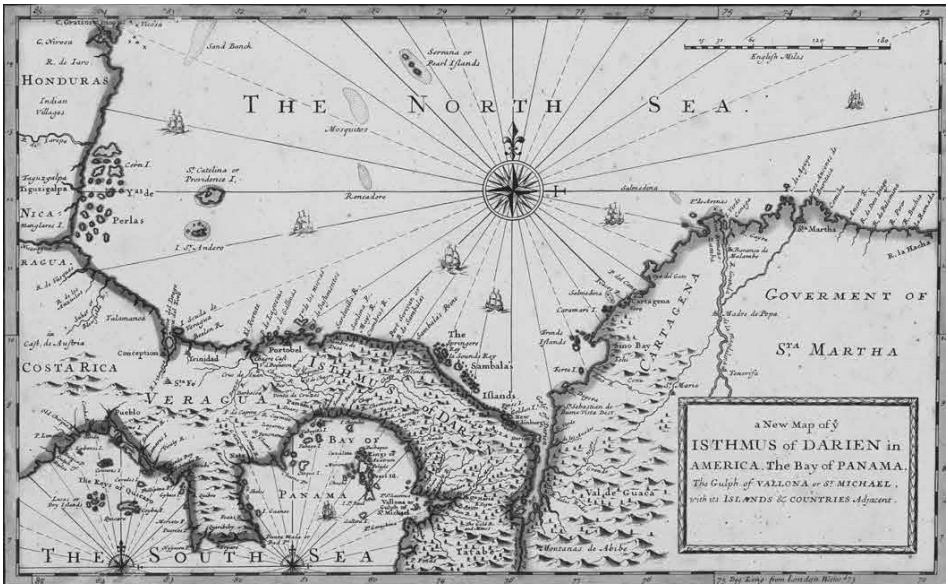

خريطة لمضيق دارين عام 1721

كان لدى وليام باترسون رؤية - حلم، مثل العديد من الأشخاص الذين انتهت حياتهم بالخسائر في التاريخ. لم يكن لديه رؤية فقط؛ بل كان يملك المهارة

والمثابرة لإقناع الآخرين بها. كان باترسون مصرفيًا وممولًا عن طريق التجارة، لكنه كان بائعًا بمفاهيم اليوم، مجرد تاجر يبيع ويشتري. كان رجلًا يجمع بين صرامة الخبير، وروح الشاعر والإيمان العميق الذي يملكه الدعاة والمبشرون. إنه لأمر مخز أن تنتهي رؤيته الخاصة بآلاف القتلى ووقوع وطنه اسكتلندا في خراب مالي - والأسوأ من ذلك، وقوع البلاد تحت رحمة جاره الجنوبي. في الواقع، من دون خطط باترسون الكارثية، فإن المملكة المتحدة كما نعرفها قد لا تكون موجودة اليوم.

إنها قصة دولة نذرت نفسها لتحقيق طموحات كبيرة ولكنها كانت غامضة، تستند إلى رؤى المؤمنين الحقيقيين الأيديولوجيين، وتحذيرات الخبراء التي لم يتم الاستماع إليها، والرفض العنيد للاعتراف بالواقع وتغيير المسار، حتى عندما أرسل العالم إليك إشارات واضحة أنك قد ارتكبت خطأ، وهي أيضًا قصة عن غباء الإنجليز ونذالتهم. كانت باترسون يخطط لإنشاء إمبراطورية اسكتلندية لتصبح قلب التجارة العالمية النابض. وكان يعرف موقع أول نقطة استيطانية لتلك الإمبراطورية، وهي جنة خضراء على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، وتقع في نقطة ارتكاز للأمريكتين. كان هذا المكان يدعى دارين. بين عامي 1698 و1699، أبحر حوالي 3 آلاف مستعمر من اسكتلندا، مدعومين بموجة من المشاعر القومية ونحو نصف ثروة البلاد، سكارى بأمل العثور على جنة باترسون تلك وتأسيس تلك الإمبراطورية. قبل انتهاء القرن، اكتشفوا أن المكان لم يكن جنة أبدًا، فمات معظمهم. وربما يرى الكثيرون أن الحملة عن بكرة أبيها لم تكن سوى حملة لإلقاء ثروات الأمة في مياه المحيط الأطلسي. الآن، ومع أخذ نزاهة باترسون بعين الاعتبار، لم تكن كل خططه مفجعة وفاشلة. في الواقع، فإن واحدًا من أحلامه ومخططاته الأخرى مستمر حتى يومنا هذا. فقد اقترح في عام 1691 إنشاء بنك إنكلترا لأول مرة، ثم شارك في 1694 في تأسيسه. (وفي حال كنت تتساءل: بعد مرور عام على تأسيس بنك إنجلترا على يد رجل اسكتلندي، قام بنفسه بتأسيس بنك اسكتلندا) من نواح كثيرة، رأى باترسون في

وقت أبكر بكثير من معظم الآخرين ملامح التجارة العالمية بشكلها الحالي وكيف يمكن لها تشكيل العالم الذي نعيش فيه اليوم. لكنه كان متفائلًا، فالتجارة حسب قوله: «قادرة على زيادة التجارة»، وكتب في مذكراته: «الأموال تجلب الأموال بلا نهاية». أغضبت مواقفه زملاءه من الشركاء والمؤسسين لبنك إنجلترا بما فيه الكفاية لدرجة أنه أجبر على الاستقالة من مجلس الإدارة بعد أقل من عام من تأسيس البنك.

وهكذا عاد باترسون إلى الفكرة التي كانت بمثابة هاجس له لسنوات عديدة: مستعمرة تجارية في دارين، على الساحل الشرقي لبرزخ بنما، الشريط الرقيق للأرض الذي شكل أضيق نقطة في القارة الأمريكية. قبل قرون من بناء القناة الشهيرة، كان من الواضح بالفعل أن بنما كانت الطريق الواصل بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ. لكن تنفيذ المخطط لم يكن سهلًا تمامًا، نظرًا للتضاريس الصعبة، لكنها كانت بلا شك أسرع وأكثر أمانًا من الرحلات البحرية المحفوفة بالمخاطر عبر الطرف الجنوبي لأمريكا، حول كيب هورن أو عبر مضيق ماجلان. من خلال ربط المحيطين، كتب باترسون بطريقة ميلودرامية أن مضيق دارين سيصبح «بوابة البحار، ومفتاح العالم». حصل هذا خلال ذروة التوسع الاستعماري البري في أوروبا، وكانت اسكتلندا ترغب في الانضمام لذلك الركب. ومع حلول تسعينيات القرن التاسع عشر، كان الإسبان والبرتغاليون يعملون على أكمل وجه لمدة قرنين من الزمان على تكديس الموارد التي جلبوها من مستعمراتهم الأمريكية، ثم انضم الإنجليز والهولنديون إلى اللعبة بنجاح. وغطى التدافع الأوروبي للإمبراطوريات العالمية آسيا وإفريقيا والأمريكتين، حيث اعتمدوا على استراتيجية «الوصول إلى السلاح والاستيلاء على كل ما لديهم» الواعدة بثروات لا توصف، ولم يكن أي منهم يرى أي إشارة على أفول ذلك العصر. كان عصر الإمبراطورية أيضًا عصر الثورة المالية: ونتيجةً لذلك، تم سن الكثير من القوانين المتفق عليها للاستعمار، ولم يكن ذلك يشمل الدول وحسب، بل

كان يشمل الشركات «المساهمة» المدعومة من الدولة والمتداولة من قبل الجمهور والتي كانت إداراتها مشوبة بالضبابية بحيث لا يعرف أحد الخطوط الفاصلة بين الأعمال التجارية والجغرافيا والسياسة. وشملت هذه الشركات العملاقة الشهيرة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية، وكان هذا النموذج هو الذي سعى باترسون لتكراره على نطاق واسع لمشروع دارين. تمتعت هذه الشركات بامتداد عالمي وثروة هائلة ومستوى من القوة يفوق مثيله في العديد من الدول. في الواقع، كانت الشركات تتصرف في كثير من الأحيان مثل الدول في حد ذاتها، وتمارس نفوذا لا يصدق على حكومة بلدانها، على عكس حالها اليوم.

بالإضافة إلى ذلك، كانت فترة التسعينيات من القرن الخامس عشر فترة من عدم اليقين والشك في اسكتلندا. منذ أن دخلها جيمس السادس الساحر الذي أقرّ الكتاب المقدس متقدمًا من الجنوب عام 1603 ووحّد تيجان اسكتلندا وإنجلترا وإيرلندا تحت عرش واحد، شعر الاسكتلنديون بالارتياح لذلك الانتماء. لقد كانوا جزءًا من الاتحاد، نعم، لكنهم ما زالوا أمة مستقلة سياسيا: كان لديهم برلمان خاص بهم، وسنّوا قوانينهم الخاصة واحتفظوا بعملتهم الخاصة. ومع ذلك، كان الشك يتنامى بين بعض شرائح المجتمع الاسكتلندي بأنهم كانوا يحصلون على حصة الفقير من كل ما يجري حولهم، من اتحاد التاج ذاك، كانوا يعتقدون أنهم خسروا لصالح الإنجليز؛ وأن اسكتلندا ستكون دائمًا ابن العم الأكثر فقرًا في الأسرة، كما أن القرارات الملكية التي تصلهم من لندن كانت دائمًا ما تفضل العاصمة الإنجليزية على حساب إدنبرة. زادت هذه المشاعر مع انضمام التجار لنشاط تجاري أوثق مع إنجلترا على حساب التجارة الداخلية. وزادت الاضطرابات المالية من الأزمة الاقتصادية في إنجلترا مع اقتراب نهاية القرن الخامس عشر، حينما حاول الملك دفع تكاليف الحروب الأجنبية من جيوب الشعب، بعد سبع سنوات من الركود، وفشل الحصاد وحلول المجاعة في اسكتلندا التي شهدت انتشارًا واسعًا للمجاعة وافتقار الكثيرين وإفلاسهم.

وفرت هذه الأزمة الاقتصادية أرضًا خصبة لأي شخص يتمنى إنهاء الوضع الراهن. لذلك، عندما علمت السلطات بمخطط باترسون في دارين، وافق الناس عليه بحماسة وطنية كوسيلة لاسكتلندا لإعادة تأكيد استقلالها والتحرر من روابط الاتحاد والسيطرة على مستقبلها.

لم يكن باترسون واحدًا من الأشخاص الذين يرون في ذلك المخطط ذاته أي علاقة بكرامة الأمة وإبائها، بل حاول عن طريق علاقاته الدولية نيل دعم بعض الدول الخارجية لتمويل المشروع وفشل في ذلك. لكنه لم ييأس، وحاول مرة أخرى جمع التبرعات والأموال لمشروعه في لندن حتى بعد حصوله على موافقة البرلمان الاسكتلندي عليه عام 1695 وإنشاء شركة التجارة الاسكتلندية الأفريقية والهندية، مع تسهيلات لا تصدق من البرلمان لتمرير المشروع. وهنا، في هذه المرحلة بالضبط، بدأت الأمور في اتخاذ منحى السقوط، وتجاهل أصحابها والقائمون عليها جميع إشارات التحذير الواضحة للعيان.

لم تكن الأمور سيئة في البداية؛ في الواقع.. كانت على أفضل ما يرام. فقد اتضح للجميع أن سمعة باترسون في لندن ومهاراته كبائع بالإضافة إلى حماس الشركات المساهمة ذات الطموحات العالمية، تعني أن شركة اسكتلندا لن تواجه مشكلة في العثور على المؤيدين، وجذب تعهدات باستثمارات يبلغ مجموعها حوالي 3(جنيه إسترليني، وهو مبلغ ضخم. ولكن.. ولسوء الحظ بالنسبة إليهم، لم يستطيعوا جذب انتباه شركة الهند الشرقية. بعبارة ملطفة، لم تكن شركة الهند الشرقية مهتمة بمنافستهم. فأصيبوا بالرعب من جراء المشاكل المالية التي حدثت خلال السنوات اللاحقة، وسجلوا خسائر فادحة مع نهاية العقد الأول من عملهم. في هذه المرحلة، لم تكن شركة اسكتلندا قد استقرت على بنما كهدف لها (للحفاظ على سرية المخططات)، لم تُذكر فكرة الحملة الأمريكية علانية أمام أحد. وبدلًا من ذلك، وكما

يوحي الاسم الكامل للشركة، فقد كانوا يسوِّقون للبرنامج باعتباره مخططًا يركز على إفريقيا أو جزر الهند الشرقية، فلم تهتم شركة الهند الشرقية بمشروعهم بأي شكل، لأنه لم يكن يحمل لها أي جديد. وهكذا فإن الشركة التي ارتبطت ثروتها وقوتها ارتباطًا وثيقًا بنجاح المشروع الإمبراطوري الإنجليزي فشلت في مقارعة الشركات الأخرى. كان هذا هو أول درس لشركة اسكتلندا في السياسة الواقعية الوحشية للتجارة العالمية: هذا لأنك تقول «نريد أن نحقق الكثير على صعيد التجارة الدولية» دون أن تأتي بجديد.

غضب البرلمان الإنكليزي من أحكام القانون الاسكتلندي، الذي أطلق العنان لنفسه من خلال منح الشركة حلم التجارة الحرة: الإعفاء التام من الرسوم الجمركية ورسوم الاستيراد والضرائب لمدة 21 عامًا. كان لذلك أكبر الأثر على العلاقات الجمركية والتجارية بين إنجلترا واسكتلندا، فأراد النواب الإنجليز أن يعرفوا كيف سُمح للبرلمان الاسكتلندي بتمريره؟ ونظرًا لعدم وجود حدود واضحة بين الدولتين، قاموا بتحذير التجار من أن "السلع المذكورة سوف يتم إحضارها بلا شك بواسطة الاسكتلنديين إلى إنجلترا بواسطة السرقة والتهريب... وعلى حساب جلالة الملك في الجمارك".

طرح البرلمان الإنجليزي استفسارات كثيرة وأمر بتقديم تقارير وهدد بتوجيه الاتهام إلى أي شخص شارك في الشركة. غضب الملك ويليام من رعاياه الاسكتلنديين وانحاز لصفّ البريطانيين. عند هذه النقطة، اختفت كل تلك التعهدات بالاستثمار من لندن في ظروف غامضة. تكررت القصة عندما حاولت الشركة جمع الأموال من الخارج، في العواصم التجارية في أمستردام وهامبورغ. إذ لم تكن شركة الهند الشرقية الهولندية أكثر سعادة حيال هذه المشروع من نظيرتها الإنجليزية، فتضافرت جهودها مع جهود دبلوماسي إنكليزي بارع لتنفيذ حملة تشويه سمعة المشروع، وعقدوا

الكثير من الاجتماعات مع باترسون وزملائه لاستقصاء معلوماتهم ومعرفة خططهم على وجه السرعة، وتركوهم في النهاية مع القليل من الأموال لتنفيذ تجارتهم تلك.

ولكن إذا كانت جهود الدولة الإنجليزية لسحق الأحلام الاسكتلندية قد نجحت في خنق الاستثمار الخارجي، فقد كان لها بالضبط تأثير معاكس داخل اسكتلندا. وبدافع من الإحساس المبرر بالظلم بسبب معاملتهم، احتضن سكان اسكتلندا الشركة، ليس فقط كفرصة مالية للجميع، ولكن كتعبير عن الهوية الوطنية. ربما لم يضع باترسون مخطط دارين لرفع راية العلم، إذ كان مهتمًا بوضع نظرياته حول التجارة موضع التنفيذ، ولكنه كان بائعًا تاجرًا.. كان يعرف متى يركب موجة مشاعر العامة، وسخر منهم لوقوعهم فرائس التجربة الاقتصادية وتصاعد الحماس الوطني والاستياء القومي من البريطانيين. وعندما فتح دفتر الاشتراك الوطني في الشركة في إدنبرة في 26 فبراير 1696 للعموم، اجتذب جموعًا كبيرة من الناس، وهو ما لم يكن طبيعيًا أبدًا. استثمر الاسكتلنديون كل أموالهم في المخطط رغم أن اسكتلندا لم تكن بلدًا ثريًا في ذلك الوقت، ولكن حتى خلال السنوات السبع الماضية، لم تكن بلدًا فقيرًا أيضًا. مثلها مثل بقية دول أوروبا، كانت تتمتع بطبقة وسطى مزدهرة، وكانت من بين أكثر المؤيدين المتحمسين للمخطط - على عكس الشركات المساهمة الأخرى مثل شركة الهند الشرقية، التي يميل مستثمروها إلى أن تقتصر المساهمة على التجار الأثرياء والأغنياء من الشعب.. وفقًا للمؤرخ والمؤلف دوغلاس وات، الذي تفحص سجلات الشركة أثناء أبحاثه لكتابة كتابه "سعر اسكتلندا"، كان أصحاب الأراضي الصغيرة الذين لا ينتمون لطبقة النبلاء هم أكبر مجموعة من المؤيدين. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. تعهدت شريحة كبيرة من المجتمع الاسكتلندي بتقديم أموالها للشركة - من المحامين والأطباء إلى رجال الكنيسة والمعلمين والخياطين والجنود وصانعي الساعات. كان الحماس معديا.. كانت حكايات الثروات الرهيبة التي تنتظر المستثمرين في المستعمرات حديث المدينة،

وكُتبت الأغاني والقصائد في مدح الشركة، ودعا الناس لها في الصلاة ليحالف الحظ كل رجالها.

من الصعب أن يكون الإنسان دقيقًا في حديثه عن تقلبات التاريخ التي أفضت إلى وجود عملتين في البلاد، لكن التقديرات تشير إلى ضخ سدس إلى نصف إجمالي الثروة النقدية في اسكتلندا في ذلك الوقت إلى خزينة الشركة، وعندما نضيف المبلغ الكامل الذي تم التعهد به (حيث إن جزءًا بسيطًا من النقد كان يدفع مقدمًا)، فمن المحتمل أن الأموال الموعودة قد تجاوزت بالفعل القيمة الإجمالية للعملات المعدنية في البلد. وكي نكون واضحين، لم يكن هذا شيئًا جيدًا. يبدو أن باترسون قد فهم جيدًا كيف يمكن له أن يغذي الهوس المالي عند الناس، واستخدم ذلك لصالحه. وفي الواقع، قام بمناقشة الأمر بعبارات مخيفة مثل استخدامه لعبارة "الانتقال الفيروسي"... حيث كتب في رسالة في عام 1695 "إذا لم يحدث شيء مع أول انتشار للحمى، فلا أعتقد أن الصندوق سينجح أبدًا، إذ عادة ما يكون الجمهور قابلًا للعدوى الفيروسية في بداية انتشار الخبر". ربما كان العامل الرئيسي للفشل هو فتح دفتر الاشتراكات للشركة للعوام، وقد تم نشره عن قصد بالفعل من قبل الشركة حتى يتمكن الجميع من معرفة هوية المستثمرين. واستهدف باترسون عن قصد الشخصيات العامة البارزة "المؤثرين" إن صح التعبير ليكونوا مؤيدين مبكرين لمشروعه، على أمل أن يكونوا قدوة للآخرين الذين سيقودونهم. وهكذا حوّل هذا الإجراء دعم الشركة من استثمار مالي شخصي إلى إعلان ولاء عام للبلاد، وجعل ممن لا يدعمونها خونة.. بسبب غيابهم.

قاد كل هذا إلى ضغط شعبي، وخلق مناخًا ديكتاتوريًا لا يسمح بوجود الأصوات المناهضة أو المشككة في الموضوع. وقد كتب جون هولاند عام 1696 في مذكراته (وهو الرجل الإنكليزي الذي أسس بنك اسكتلندا) أنه قوبل بالاتهام بأنه

جاسوس لشركة الهند الشرقية حين حاول انتقاد جدوى المشروع. "إنه حماس الأمة للتجارة الهندية والإفريقية"، وكتب قائلًا: "لقد تحيّز الكثيرون ضدي؛ ولأنهم لا يستطيعون الإجابة على ما لديّ ضد تصميمهم، فإنهم يسرّون لبعضهم البعض بعدم الاستماع لما يقوله السيد هولاند، لأنه رجل إنجليزي... لقد أصبح من الخطير على الرجل منّا التعبير عن أفكاره بحرّية في هذا الشأن. إن عدد الأشخاص الذين يتعرضون للرعب والخوف من إبداء رأيهم في ازدياد". وهكذا في 14 يوليو 1698، بينما كانت الحشود المبتهجة تلوّح في الميناء، أبحرت خمس سفن من ليث، حاملة على متنها وليام باترسون و1200 من الأرواح الأخرى باتجاه أمريكا الوسطى التي لم يزرها باترسون من قبل.

أوه نعم، لم نذكر هذا الشيء بعد.. وليام باترسون لم يسافر من قبل إلى دارين.

لماذا إذًا ثبّت فتانا باترسون أنظاره على دارين؟ والحقيقة إن الإجابة على هذا السؤال لا تزال عصية حتى اليوم. من المؤكد أنه قضى كثيرًا من الوقت كتاجر في منطقة البحر الكاريبي، ولكن لا يوجد دليل في سيرته الذاتية أو كتاباته العلنية على أنه زار برزخ بنما. بدلًا من ذلك، يبدو أنه سمع حكايات عنه من القراصنة على الأرجح. جرى كل هذا خلال العصر الذهبي للقرصنة، عندما كان قراصنة الكاريبي الحقيقيون (الدول المستعمرة) يفعلون ما يفعلونه، إما كعناصر مرتزقة أو كجيوش مدعومة من الحكومات التي أرسلتهم لمضايقة خصومهم الاستعماريين.

كما أننا لا نعرف كيف أقنع باترسون زملاءه في مجلس إدارة شركة اسكتلندا بدعم رؤيته لدارين كمركز لإمبراطورية اسكتلندا الاستعمارية العالمية استنادًا إلى الشائعات. من المؤكد أنهم كانوا يملكون الخيار لتغيير مسار الأحداث، لكنهم لم يفعلوا. وفي عام 1697، أي قبل عام من إبحار الأسطول، اقتربوا فعلًا من التخلي عن

مخطط دارين بالكامل والتركيز بدلًا من ذلك على أهداف أكثر تواضعًا. لقد أدركوا أن الشركة شبه المفلسة رغم جمع الأموال في إدنبرة وأصقاع البلاد اقتربت من الفشل وأنها غير قادرة على ضمان الأموال اللازمة لدعم طموحات المخطط بالكامل. فقد قرروا شراء سفن حديثة بكل حماقة، في حين أن معظم منافسيهم كانوا يستأجرون غالبية سفن أساطيلهم. ربما كان هذا محاولة لإثبات جدارتهم أمام الهولنديين والمستثمرين الألمان الكبار لنيل إعجابهم واحترامهم. كما قاموا بتوظيف خبراء عديدين ذوي ماضٍ عريق لدفع شبح قلة الخبرة عن قادة الحملة، وحثّوا الناس بدلًا من ذلك على التبرع لزيادة رأس المال والتقتير على البعثات التجارية الإمبراطورية إلى آسيا. لقد كانوا مدركين تمامًا لجميع مصاعب استعمار دارين، حتى أنهم نظروا في العديد من المواقع الأخرى في الأمريكتين التي بدت لهم أكثر ملاءمة... ومع ذلك، فإن هذه الوجوه الرصينة والمتعلمة والمُحبة بشكل رهيب، أقنعوا أنفسهم بأنهم كانوا على حق طوال الوقت، وقرروا المضي قدمًا.

وفي بداية نوفمبر من عام 1698، وبعد وقت قصير من وصول المستعمرين إلى شواطئ دارين، بدت جميع المشاكل واضحة للعيان بما لا يترك مجالًا للشك. لم يكن الكثير منهم على دراية بأن دارين كانت وجهتهم النهائية، لأن الأوامر لم تُعلن إلا بعد إبحار السفن، كجزء من جهود الشركة اليائسة للحفاظ على سرّية المخططات خوفًا من المنافسين. بادئ ذي بدء.. كانت الأمور تسير على خير ما يرام، إذ شعر المستوطنون بالذهول بسبب الجمال الطبيعي للموقع والأنواع الحيوانية الغريبة كالسلاحف البرية وحيوان الكسلان وآكل النمل العملاق. وبدا السكان الأصليون ودودين وحدّثوهم عن مناجم الذهب على بعد بضعة أميال. كان المستوطنون سعداء باكتشاف "أفضل ميناء"، وهو خليج محمي بشكل طبيعي طوله ميلان، وهو الخليج الذي قال القبطان هيو روز عنه أنه "قادر على احتواء 1000 سفينة عظيمة الحجم". وكتب مؤلف آخر مجهول: "التربة غنية، والهواء جيد ومعتدل، وكل شيء

يساهم في جعل إقامتنا صحية ومريحة".

لكن في استخدامه لكلمة "صحية" مبالغة لا يمكن إنكارها. فقد أصيب بعض المستعمرين بالمرض وضربهم الموت كالصاعقة لأتفه الأسباب. كانت زوجة ويليام باترسون واحدة من أوائل من أصيبوا بالأمراض بعد أقل من أسبوعين من نزولها إلى البر، ثم ماتت خلال شهر. وبعد ذلك بأيام قليلة، توفي آخر قسيس في المستعمرة. ولكن.. وعلى الرغم من هذه المآسي، ظل المستوطنون واثقين من اختيارهم للمكان، وأطلقوا اسم خليج كاليدونيا على مرفئهم الجديد، تيمنًا باسم اسكتلندا القديم، وبدأوا على الفور في إنشاء أول مدينة لهم، وأطلقوا عليها اسم إدنبرة الجديدة. كان من دواعي سرورهم أنهم اكتشفوا أن الإدارة أرسلت كبير المحاسبين ألكساندر هاملتون معهم بالبعثة، فعاد إلى أرض الوطن على متن سفينة قراصنة فرنسية عابرة لإيصال الأخبار السعيدة إلى الوطن. ظهرت أولى علامات الشؤم الواضحة حينما غرقت سفينة هاملتون حال مغادرتها الميناء. أدركوا حينها سبب عدم استخدام هذا الميناء الطبيعي الكبير من قبل أي قوة استعمارية أخرى، فقد كان دخوله يسبب حالة من الضيق للبحارة، كما هو حال الخروج منه، لكن المغادرة كانت مسألة أخرى تمامًا، كانت أصعب بكثير. فقد كان اتجاه الريح السائدة يجبر السفن المغادرة على العودة أدراجها إلى الوراء، بالإضافة لوابل الأمواج الضخمة التي كانت ترافق تلك الرياح. فتحطمت السفينة التي كانت تقل هاملتون وتحولت إلى قطع ونتف في ثلاثين دقيقة مما أدى إلى غرق نصف طاقمها تقريبًا. لكن هاملتون نجا بنفسه وعاد إلى اسكتلندا لاحقًا وأخبر الجميع عن حسن سير أمور الحملة. لقد حذّر البحارة ذوو الخبرة رؤساء الحملة بأن سفنهم الكبيرة والمكلفة ذات العوارض الضحلة غير ملائمة لظروف منطقة البحر الكاريبي، لكنهم تجاهلوا تلك النصيحة، واعتقدوا أن السفن سوف ترسو لأشهر طويلة في الميناء حين يتعلق الأمر بمستعمرة تجارية مقترحة، ولكن لا. كما أن مدى وضوح تفكيرهم في الحملة بكاملها هو أمر مشكوك فيه حتى

اليوم. وبالنسبة للتجارة، يشير بحث دوغلاس وات إلى أنهم أنفقوا مبلغًا صغيرًا بشكل ملحوظ من ميزانيتهم على السلع القابلة للتداول - والتي كانت تتألف في الغالب من القماش الذي اشتروه من أكبر المتاجر، ولكنها تضمنت أيضًا أكثر من 200 شعر مستعار، ومخزونًا كبيرًا من الأحذية العصرية، وعددًا كبيرًا من الأمشاط. وربما تم إحضار الأمشاط اعتقادًا منهم بأن الشعوب الأصلية في جميع أنحاء العالم تفقد قوتها حين تشاهد الأمشاط، مما سيدفع تلك الشعوب للتنازل عن أرضها. في نهاية المطاف، يبدو أن شعب غوبا لم يقترب من الأمشاط. وإذا كان هدف المهمة هو إقامة مستوطنة، فربما كان من الممكن فعل ذلك باستخدام عدد أقل من جمّات الشعر المستعار والأدوات الأخرى عديمة القيمة بدلًا من ذلك.

عندما بدأت مهمة بناء New Edinburgh، انخفضت الروح المعنوية بسرعة. ومع أن العمل كان رائعًا، وكان يتم في حرارة غير اسكتلندية، إلا أنهم اكتشفوا بعد شهرين من القرصنة غير المثمرة في غابة كثيفة أنهم كانوا يبنون مدينتهم الفاضلة تلك في المكان الخطأ طوال الوقت. تبخّرت الهمم وانخفضت الروح المعنوية. ثم بدأت الأمطار والمطر في بنما.. وهي لا تشبه الأمطار في اسكتلندا لا من قريب ولا من بعيد. غيّر الكاتب روز رأيه الإيجابي حول الموقع بسرعة كبيرة، فكتب في مذكراته: "أشجار المانجو والمستنقعات تغطي كامل الخليج الذي نريد إعماره، وهو أمر غير صحي على الإطلاق".

لكن المستنقعات كانت أسوأ من وصفه لها، بدرجات كبيرة. وبدأ المرض الغريب الذي قتل زوجة باترسون بالانتشار بين المستعمرين كالوباء، وراحوا يتساقطون موتى كالذباب بسببه. ولا يملك أحد حتى اليوم أدنى فكرة عنه، لأنهم لم يسجلوا عنه أي تفصيل أو وصف سوى على أنه "الحمى". لكن الكثير من الباحثين يعتقدون اليوم بأنه كان مرض الملاريا أو الحمى الصفراء التي ينقلها البعوض، وعلى

وجه الخصوص حين يجاور المرء مستنقعات خطيرة كتلك، مع العلم بأن كلا المرضين وصلا إلى العالم الجديد مع سفن البحارة والقراصنة الأوروبيين الأوائل، وانتشرا بغزارة لا توصف بسبب الطبيعة المناسبة. وهكذا، راح عدد المستوطنين يتناقص بمعدلات عالية مثيرة للخوف.

أما أولئك الذين لم يمرضوا من الحمى، فقد دمّروا صحتهم بطرق أخرى، وذلك بفضل أهم مزايا الرحلة التي وفرتها شركة اسكتلندا، وهو مخزون لا ينضب من المشروبات الكحولية. أغرق شعب كاليدونيا أحزانه في بحر الروم والبراندي الذي حملوه معهم، مما أبطأ أعمال بناء نيو إدنبرة. وبعد فترة من الوقت، قرر القادة التخلي عن بناء المدينة بالكامل والتركيز على إنشاء حصن، حيث أصبحوا قلقين بشكل متزايد من هجوم إسباني واسع النطاق.

آه نعم... الإسبان. لم نذكر في الواقع المشكلة الأكبر والأكثر وضوحًا في خطة باترسون حتى الآن: حقيقة أن الإسبان كانوا متأكدين تمامًا من أنهم يملكون دارين بالفعل بسبب نشاطهم في برزخ بنما لمدة قرنين تقريبًا. فقد كان طريقًا حيويًا لهم لشحن الذهب والفضة المنهوبة من أمريكا الجنوبية إلى إسبانيا. وقد احتلوا دارين في الماضي بالفعل، قبل أن يتخلوا عنها بسبب المشاكل التي اكتشفها الاسكتلنديون بعد فوات الأوان. وكان مجرد سماح إسبانيا لدولة مغرورة بالدخول وإنشاء مستعمرة جديدة يشكل صفعة سياسية وفكرة مضحكة. كيف فكرت شركة اسكتلندا أن الإسبان سوف يسمحون لها بالاستمرار والبناء في مكان يتوسط ثلاثًا من مدنها الرئيسية في المنطقة؟ كان مجرد التفكير في ذلك فضيحة سياسية حقيقية.

لكن هنا لدينا على الأقل فكرة عامة عن وجهة النظر الاسكتلندية، فقد اعتقدوا في ذلك الوقت أن قوة إسبانيا تحولت إلى مهزلة عسكرية بسبب حكايات القراصنة الرومانسية للهجمات الناجحة على الممتلكات الإسبانية في المنطقة، وأنها

إمبراطورية تتلاشى بعد أن باتت أفضل أيامها خلفها. وعلى الرغم من أن البحرية الإسبانية تفوقت على أسطول اسكتلندا في أول معركة، إلا أن الاسكتلنديين ظنوا بأنهم سيتفوقون على الإسبان.

لم يكن الإسبان بحاجة لمهاجمة المستعمرة الجديدة في الحقيقة، لأن المستعمرة كانت تعاني الأمرين من الأضرار التي أصابتها، ولأن هجومهم هذا لم يكن شيئًا مقارنة بما حدث بعد ذلك. أخبر الإسبان الملك ويليام عبر القنوات الدبلوماسية أن مشروع اسكتلندا الاستعماري الصغير الجديد كان نوعًا من حروب الهراء بعد فوز وليام بإحدى حروب إنجلترا المنتظمة مع فرنسا، حيث كان ويليام يحاول يائسًا أن يحافظ على السلام مع إسبانيا، ولذا فقد أصدر أوامره على الفور بعدم تزويد الاسكتلنديين بأي سفن إنجليزية أو حتى دعم البحرية بأي شكل. شعر المستوطنون باليأس حين وصلت أخبار هذه المؤامرة إلى كاليدونيا. وبالنظر إلى انقطاع الأخبار من الوطن منذ وصولهم، وعدم ورود أي إمدادات جديدة على الرغم من المناشدات المستمرة التي تم إرسالها إلى اسكتلندا، انتشر بينهم شعور الخذلان، فعوّلوا على أمل العثور على حلفاء في المنطقة.

قبل بدء الحصار الذي فرضه الإنجليز عليهم، كان المستعمرون قد قاتلوا ضد الإسبان بعد احتكاك بسيط بينهم وانتصروا على عدد ضئيل منهم، فتم تحذيرهم مسبقًا من طرف قبطان سفينة إنجليزية تم إرسالها للتجسس على أنشطتهم. ومن المثير للسخرية أنه وصل فعليًا إلى المنطقة قبل الإسبان. وقد أدى هذا الانتصار الصغير إلى تحسين الروح المعنوية لفترة من الوقت، لكنها تبخرت عندما تم الاستيلاء على إحدى سفنهم من قبل الإسبان بينما كانت سفينتهم تبحث عمن يبادلها السلع، وألقي طاقمها في السجن واستولى الإسبان على شحنتها. ومع وفاة نصف سكان كاليدونيا أو وقوعهم أسرى ورميهم في السجون، بينما أنهك النصف الآخر وتضوروا

جوعًا، كانت العزلة هي القشة الأخيرة، اعتقادًا منهم بأن الحكومة والدولة والشعب تخلوا عنهم تمامًا، فاختاروا الرحيل بشكل جماعي عن دارين وقاموا بالرحلة الحزينة إلى أرض الوطن، وذلك بعد تسعة أشهر فقط من وصول ويليام باترسون إلى المكان الذي كان يحلم به طيلة حياته، وهو الأرمل المريض الآن. فنُقل على متن سفينة تستعد لمغادرة البرزخ ونجا من الحمى، لكنه لم يشاهد دارين مرةً أخرى. كانت رحلة المستعمرين إلى الوطن عبر جامايكا صعبة للغاية، فقد استغرق قرابة الأسبوع لمجرد الخروج من الميناء، وتوفي مئات آخرون في الطريق، كما غرقت سفينة، ودمرت أخرى تقريبا. وفي النهاية، وصلت سفينة واحدة فقط إلى اسكتلندا. لكنها وصلت متأخرة، لأنها وصلت بعد انطلاق الأسطول الثاني الذي أبحر إلى دارين لمعرفة ما حدث لهم. هذا صحيح، قررت شركة اسكتلندا أخيرًا إرسال التعزيزات التي طال انتظارها بعد فوات الأوان. وصل هذا الأسطول الثاني في نهاية شهر نوفمبر عام 1699 إلى برٍّ خاوٍ تعصف به الرياح، ووجدوا بقايا نيو إدنبرة المهجورة والمحترقة، وبقايا حصن وعدد كبير من القبور الضحلة. رغم كل ذلك، قرر الوافدون الجدد البقاء وإعادة البناء ومحاولة التمسك بالأرض ريثما يتم إرسال اللوازم الجديدة ورغم موت الكثير منهم صرعى للأمراض والأوبئة، لكنهم رغبوا إثبات جدارتهم أمام الإسبان.

وبعد بضعة أشهر من بداية القرن الجديد، وصل الإسبان إلى المستعمرة وحاصروها. تمكن الاسكتلنديون الذين فجعتهم الحمى من الصمود تحت الحصار لفترة من الوقت، لكنهم أجبروا بحلول أبريل/نيسان على الاستسلام. وانتهت مع استسلامهم هذا كل أحلام بناء الإمبراطورية الاسكتلندية.

سمح الإسبان للمستوطنين بالرحيل لأنهم كانوا يعرفون تمامًا شكل الهزيمة والدعاية العظيمة التي يمكن لمنظر العدو المهزوم أن يقدمها لهم في فراره المشهود هذا وهو يجر أذيال الهزيمة، ولربما شعروا بالشفقة على "الأوغاد الفقراء والجوعى".

ثم مات المئات منهم من الحمى في رحلة العودة، ودمرت عاصفة عنيفة سفينتين أخريين وفقدوا ما يقرب من مئة شخص آخر، بما في ذلك المحاسب السيئ الحظ ألكساندر هاملتون، الذي عاد إلى اسكتلندا على الرغم من تحطم سفينته الأولى وعودته إلى دارين مع الأسطول الثاني. في المجموع، أبحر حوالي 3000 شخص من اسكتلندا إلى دارين، ويعتقد أن 1500 إلى 2000 منهم قد ماتوا في خليج كاليدونيا أو غرقًا في البحار. ولم يصل الكثير من الناجين إلى اسكتلندا. وحين وصلوا مع أخبارهم هذه إلى أدنبرة، أثار فشل المخطط موجة عارمة من الصدمة. وراحت القضية تتعاظم كل يوم في بيئة سياسية حديثة يسودها الترقب والتوتر، وانقسم رد الفعل بين أولئك الذين يلومون مديري الشركة على الفشل، وأولئك الذين يلومون الإنجليز الغادرين على تدخلهم. اندلعت أعمال الشغب في أدنبرة بسبب الغضب الشعبي العارم من الشركة، واتُّهم أحد المستعمرين الساخطين الذين مزقت منشوراتهم مديري الشركة بالتجديف؛ بينما حوكم ثلاثة من أنصار الشركة بسبب نشرهم رسمًا مهينًا يهاجم الحكومة، وحوكموا بتهمة الخيانة. لم تعد الحقائق مهمة بعد ذلك اليوم الذي عادت فيه السفن إلى المرفأ، ولم يعد هناك أي شيء آخر ذو قيمة ومعنى سوى الجانب الذي يتخذه المرء... في أي صف يقف.

لم تكن النتائج سياسية بحتة فقط، ولكن اقتصادية على حد سواء. وفي خضم أزمة اقتصادية كتلك، اكتشف الشعب جازعًا أن حصة كبيرة من ثروة البلاد قد رميت في البحر.. وضاعت. فخسر المستثمرون أموالًا طائلة دون أمل في استرجاع ما وضعوه في المشروع وضاعت هيبة اسكتلندا وباتت عرضة للإهانة وتعرضت لكثير من الإذلال.

لا تحدث التغييرات السياسية الكبرى لسبب واحد فقط، بل لأسباب عديدة، وقد بان هذا واضحًا حينها، حين تدخلت جميع الظروف والقوى المعقدة ودفعت

اسكتلندا نحو الاتحاد الكامل مع إنجلترا، ولم تنتشر أنباء ذلك الاتحاد في أعقاب مخطط باترسون الخادع، بل حاول الجميع إبقاء الأمر سرًا لأطول وقت ممكن. كانت الصراعات والحروب بين الممالك العلامة الفارقة التي ميّزت نهاية القرن السابع عشر، حينما كان النبلاء يغيرون الحدود والتحالفات كل أسبوعين. لكن دارين ساهمت في تأجيج هذا الجحيم، خاصةً عندما تبين أن إنجلترا عرضت على اسكتلندا خطة إنقاذ كجزء من صفقة الاتحاد بعد بضع سنوات، لا لإنقاذ البلاد وحسب؛ بل لمساعدة المستثمرين الأفراد في شركة اسكتلندا سيئة السمعة، والذين حصلوا بموجب ذلك الاتحاد - الصفقة على حصتهم الأصلية مع قدر كبير من الاهتمام من السلطات الإنكليزية. أطلق الكثيرون على ما جرى وقتها مصطلح الرشوة واستشهدوا بالتبجح الاسكتلندي: "لقد اشترينا الذهب الإنجليزي"، كما كتب بيرنز بعد ثمانية عقود في مذكراته. رأى البعض في الأمر برمته مؤامرة إنجليزية مظلمة لشل اسكتلندا لدرجة أنه لم يعد أمامها أي خيارات. فيما شعر آخرون بالسعادة لاستعادة أموالهم.

دافع باترسون عن الاتحاد إلى أن ظهرت المملكة المتحدة في شهر مايو من عام 1700، بعد مرور شهرين فقط، وبالتحديد في السابع من أغسطس، تم نقل عشرات العربات التي كانت تخضع لحراسة مشددة والتي تحتوي على قرابة400000 جنيه إسترليني إلى إدنبرة.

ما أريد قوله من سرد كل هذه الأحداث هو أن باترسون لم يكن مخطئًا، ليس بالضبط. لقد كانت بنما بالفعل موقعًا رائعًا لمستعمرة. في الواقع، قام عالم الآثار مارك هورتون بمسح المضيق في عام 2007 وخلص إلى أن توقعات باترسون للطرق التجارية المقترحة في دارين كانت واقعية بالفعل. كما أن توقعاته حول كيفية تطور التجارة العالمية لا تبدو بعيدة عما نراه اليوم؛ وما هو أهم من ذلك، لقد روجها بين النبلاء الإنكليز بصراحة ونزاهة كبديل مسالم خال من العنف والفظائع

التي تقوم بها الإمبراطوريات، وكتب للجميع بأن التجارة يمكن أن تجلب الثروة دون "حمل وزر كل تلك الفظائع والذنوب والدماء كما فعل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر". وهو ما يجعله بصراحة شخصًا واعيًا سابقًا لعصره محاطًا بمئات الطامعين في مناجم ذهب دارين غير المستغلة حتى اليوم، والذين ساعدوه ودعموه ليصلوا لتلك المناجم باي طريقة مهما نتجت عنها من دماء.

أعتقد أن ما أدى لفشل الحملة في واقع الأمر كان فشل داعمي المشروع الجماعي في تصور إجابات للمسائل الصعبة. فقد غضوا الطرف عن التفاصيل كنوع السفن اللازمة والمؤن الضرورية.. لقد تجاهلوا الصورة الكبرى ولم يلقوا بالًا للآثار الجيوسياسية لمخططاتهم. وبدلًا عن دراسة الآثار البعيدة للمخطط.. انتهى بهم الأمر بتصديق أوهامهم وإقناع أنفسهم بأن خطتهم خالية تمامًا من الأخطاء بدلًا من التفكر مليًا في حقائق الأمور. إن هذه القضية لمثال حقيقي عن التفكير الجمعي الفائق الغباء.

لا تزال قصة تلك المغامرة الاسكتلندية تثير الجدل حتى اليوم، فقد اتخذها طرفا الحكم السياسيان المتصارعان كحجة داعمة حين الاستفتاء على الاستقلال. فبالنسبة للقوميين، كانت تلك المغامرة مثالًا حيًا عن كيفية سعي إنجلترا الدائم لتخريب وقمع الآمال الاسكتلندية؛ أما بالنسبة للنقابيين، فقد اتخذوها كدرس تاريخي في مخاطر التخلي عن الاستقرار لصالح الطموحات غير الواقعية. وإذا ما تأملنا هذه الحادثة كقصة تاريخية، فإنها قابلة للاستعارة للبرهنة على الغباء الاستعماري. أعني، إنها قصة دولة تحولت إلى ولاية تابعة لأقرب شركائها التجاريين الجيولوجيين بناء على اتفاقية سياسية مجحفة بسبب رؤية خيالية ناتجة عن التأثير العالمي الذي روج له متعصبون للتجارة الحرة، مخلوطة بأحلام الإمبراطورية الاستعمارية التوسعية التي داعبت خيال أولئك الحمقى، الذين وضعوا خططهم

المبهمة وصاغوها في شكل خطب أشبه بالخطابة الوطنية المضطربة متجاهلين تحذيرات الخبراء حول الواقع.

لسوء الحظ، لا يمكنني التفكير في أي حادثة تاريخية مشابهة لما يجري في الوقت الحالي.

خمسة مستكشفين فشلوا في الاستكشاف

لويس أنتوان دي بوغانفيل

وهو مستكشف فرنسي، كان على وشك الحصول على لقب أول قبطان يدور حول العالم بسفينته، وصل إلى الحاجز المرجاني العظيم المجاور لأستراليا ثم عاد أدراجه قبل أن يكتشفها.

جون غيفانز

وهو مستكشف ويلزي قضى خمسة أعوام في منتصف تسعينيات القرن الثامن عشر بحثًا عن قبيلة ويلزية ضائعة في أمريكا، ألقى الإسبان القبض عليه وسجنوه بتهمة التجسس. وعندما خرج من سجنه وتابع البحث ووجد القبيلة المعنيّة بالبحث اكتشف أنها لا تمت للويلزيين بأي صلة.

فيليلمور ستيفنسن

مستكشف كندي ظن بأن القطب الشمالي قارة مناسبة للحياة، فقاد حملة لاستكشافها في عام 1913، وعندما علقت سفينته في الجليد اصطحب بضعة رجال وترك السفينة بمن عليها من بشر وأخبرهم أنه سيخرج مع هذه الثلة القليلة للبحث عن طعام.. ثم هجرهم عائدًا إلى وطنه دون أي ذرة تأنيب ضمير.

لويس لاسيتر

قاد لاسيتر مجموعة للبحث واستكشاف وسط القارة الأسترالية الصحراوي مدعياً البحث عن عرق ذهب عظيم وجده قبل سنوات وسط تلك الصحراء. لم تجد الحملة أي شيء، فهجره أفرادها تباعًا وتركوه وحيدًا مع الجِمال إلى أن فرت منه الجِمال أيضًا بينما كان يقضي حاجته، فمات عطشًا.

س. أ. أندريه

وهو مهندس سويدي ومغامر شهير قرر الوصول غلى القطب الشمالي إلى متن منطاد يعمل على الهيدروجين، وانطلق بمنطاده في الموعد المحدد رغم معرفته بأن المنطاد مثقوب بعض الشيء وأنه يسرّب الغاز، ومات مع فريقه في مكان في فيافي القطب القاحلة.

8
دليل رئيس غبي لتحقيق الديمقراطية

مع انتشار حمى السفر حول العالم في عصر الاكتشافات، انحسرت الفرص المتاحة لقدح شرارة جميع أنواع الحروب، لأنها زادت عدد البلدان التي يمكن لتلك الحروب أن تغضبها. على افتراض أن القائمين على أمر الدول والحكومات كانوا يرغبون في تقليص الحروب ومنع حدوثها، على افتراض أنهم كانوا يرغبون فعلًا تجنب نشوب الحروب، فاخترعوا الطرق الدبلوماسية لتحقيق مآربهم بلا دماء. الدبلوماسية هي فن توفيق أعداد كبرى من البشر مع بعضهم البعض في حين أنهم يضمرون الشر لبعضهم، أو الكراهية. تمكنت الطرق الدبلوماسية من المحافظة على الجميع بخير في بعض الأحيان، ولكن.. ولسوء الحظ، نحن كبشر لسنا جيدين في ذلك أيضًا.

تنبع المشكلة الرئيسية للعلاقات الدولية من معضلة عمومية وأساسية في التعاملات البشرية، وهي أنها تنطوي على مبدأين أساسيين:

1) الثقة في الناس هي أمر جيد ومفيد.

لكن لا تثق كثيرًا. 2)

هذه هي المعضلة التي لوّثت كل لحظة اتصال بين الثقافات المختلفة في التاريخ إلى حدٍ بعيد. ولسوء الحظ بالنسبة للأشخاص الذين عاشوا تلك اللحظات، لا توجد طريقة لمعرفة الخيار الصحيح الذي يجب عليهم اتباعه. إنها المشكلة التي لم نجد لها حلًا بعد، لكننا نملك ترف النظر إلى الوراء والبحث في خيارات الناس التي اتبعوها في الماضي وتجنب الوقوع في أخطائهم.

لنأخذ شعب التاهينو الذين قابلهم كولومبوس حين وصل إلى جزر الكاريبي لأول مرة على سبيل المثال، كانت مشكلتهم أنهم أولوه ثقتهم التامة، أي أنهم وثقوا في شخص غريب الشكل واللغة قادم من مجاهل البحار، وقد تأثر كولومبوس بالفعل بمودتهم واستقبالهم وكرمهم. لكن كولومبوس عاملهم بالطريقة المعتادة التي تعامل بها من يبادرك بالمودة والكرم، ما كان منه إلا أن سجل في مذكراته: «إنهم شعب مناسب للخدمة، سيخدموننا بشكل ممتاز». ثم أضاف لهذا بعد عدة أيام: «نستطيع بخمسين رجلًا فقط أن نجبرهم على اتباع أوامرنا وفعل ما نريده بالضبط».

وقد تكرر هذا السيناريو بعد عقود لا أكثر حينما وقع إمبراطور الآزتيك موكتزوما في نفس الخطأ مع هرنان كورتيز، حينما أولاه ثقته ورحب به في عقر داره.

امتدت إمبراطورية الآزتك الذين كانوا يطلقون على أنفسهم لقب (مكسيكا) على مسافات شاسعة، من المحيط إلى المحيط، فيما يعرف اليوم باسم المكسيك الوسطى أو وسط المكسيك. وقد حكم موكتزوما مملكته من عاصمته تينوشتيتلان، أكبر وأكثر المدن تطورًا حضاريًا في القارة بأكملها، وتقع هذه العاصمة في نفس مكان مدينة المكسيك اليوم. سار كل شيء على ما يرام إلى أن حط كورتيز رحال سفنه على

شاطئ يوكاتان عام 1519.

لم يكن كورتيز فاتحًا غازيًا فقط، بل كان غازيًا خارجًا عن القانون، بعد طرده من الخدمة البحرية ومنعه من متابعة مهمات الاستكشاف من قبل الحاكم الإسباني في كوبا بسبب قلة ثقة الأخير فيه. فما كان من كورتيز إلا أن استولى على القوارب بطواقمها ورحل بعيدًا في البحر. قام كورتيز بعد وصوله بفترة إلى المكسيك بإغراق سفنه جميعها لمنع طاقمه من العودة إلى كوبا. إني أقص عليكم هذه القصة لأقول أن كورتيز لم يكن تابعًا للدولة ولم يكن لاعبًا شريفًا ولا مفاوضًا جيدًا بأي شكل. وهكذا.. حين نفذت منه البدائل والخيارات والحلول جميعها، حين عاداه أبناء جلدته وفقد وسيلته للعودة إلى الوطن، لجأ إلى الخيار الذي لا يمت بصلة لمخططات الاستعمار كما عهدوها.

أصيب موكتزوما باليأس والتوتر حين سمع بوصول تلك السفن إلى شواطئه رغم بعدها أكثر من مائتي ميل عن البحر، ولم يتمكن لسوء الحظ من تقرير الخطوة اللازمة لسوء الحظ، واحتار ما بين إرسال الهدايا للضيوف وما بين إرسال تحذيرات تمنعه من التوغل وتطلب منه الرحيل. أما كورتيز، فكان مشغولًا في تلك الأثناء بمحاولة إيجاد نقاط الضعف المكسيكية. وقد واجه حينها المشكلة الرئيسية وعرفها.. أن المكسيك كانت إمبراطورية حقيقية، كالإمبراطورية الإسبانية تمامًا، في اتساعها وثرائها ووحشيتها. وبناء على ذلك، اكتشف كورتيز وجود العديد من القبائل الأصلية التي تكن العداء لموكتزوما. استعمل كورتيز مع هؤلاء كل اللطف والمودة والدهاء لكسبهم إلى جانبه، واضطر أحيانًا لاستعمال العنف وارتكاب المجازر لإقناعهم بالتحالف معه ضد موكتزوما.

كان يجب على موكتزوما أن يعرف حينها أن الأمر لن ينتهي بإقامة علاقات صداقة مع الغزاة، لكنه لم يحرك ساكنًا واكتفى بالانتظار. ومن المحتمل أن حيرته

وسكونه ذاك كان نتيجة للاعتقاد الشعبي آنذاك بأن كورتيز كان التجسد الجديد لإله السماء كويتزالكوتال، مع أن الإثبات الوحيد لانتشار تلك الفكرة بين صفوف الشعب الأصلي هو ما ذكره كورتيز في رسائله، ولا أثر لذلك في إرث ذلك الشعب. وكي أكون صريحًا.. هذا يبدو لي مجرد هراء.. هراء يهذر به المرء في أوراقه.

عندما وصل كورتيز أخيرًا إلى تينوشتيتلان برفقة بضع مئات من الجنود الإسبان وحلفائه الجدد، اتخذ موكتزوما أخيرًا قراره، على الرغم من أن كثيرًا من مستشاريه قالوا له إن هذه فكرة سيئة حقًا. وكي نكون عادلين، لا نعرف ما إذا كان هناك قرار صائب كان بإمكانه اتخاذه، لكن هذا كان القرار الخاطئ بالتأكيد: دعا موكتزوما الإسبان كضيوف شرف إلى قصره وأمطرهم بالهدايا وأعطاهم أفضل الغرف. وفي غضون أسبوعين، انقلب كورتيز عليه واحتجزه كرهينة في قصره وأجبره على الحكم كدمية ليلبي أطماعه.

طالب الإسبان أولًا بالعشاء بعد انتهاء الانقلاب مباشرة؛ ثم أصروا على معرفة مكان حفظ كل الذهب بعد انتهائهم من تناول الطعام.

انهار كل شيء في بداية عام 1520، ولسخرية القدر، فيما كان كورتيز مشغولًا بقتال قوة كبيرة من الجيش الإسباني التي أرسلها حاكم كوبا للقبض عليه ومنعه من وضع يده على الأراضي الجديدة، قام أحد ضباطه الذين تركهم لحراسة العاصمة والمحافظة على إحكام القبضة عليها بذبح جميع النبلاء في المعبد الكبير أثناء احتفالهم بأحد أعيادهم الدينية الهامة. ثار الشعب المكسيكي بسبب المذبحة وعاد كورتيز ليجد ثورة حقيقة في انتظاره فطلب من موكتزوما أن يأمر الشعب بوقف أعمال الشغب والاعتداءات فلم يتبعوا الأوامر، وكانت هذه هي نهاية موكتزوما. يقول الجنود الإسبان أن موكتزوما قتل رجمًا بالحجارة من قبل أفراد غاضبين من شعبه نفسه، لكن المنطق يقول أنه قُتل غدرًا على يد الإسبان حين أبى الشعب طاعته

وغدا غير قادر على السيطرة على شعبه. وفي خلال عام واحد من مقتله، استولى الإسبان بوحشية على ما تبقى من المكسيك، فما كان من الحكومة الإسبانية إلا أن أعادته إلى حضنها ونصبته حاكمًا على المكسيك.

ربما لم يكن بإمكان أحد أن يوقف الغزو الإسباني، لكن قرار موكتزوما بالترحيب بهم كضيوف هو أحد أسوأ سياسات العلاقات الدولية في التاريخ. ولكي نكون صادقين، إذا كانت الحكومة المكسيكية قد فكرت في شيء مشابه بعد 300 عام من تلك الحوادث، حينما بدأت في تشجيع الهجرة الأمريكية إلى تكساس، فإن الدرس الرئيسي في قصة Moctezuma المؤسفة: "حبًّا بالله، يا حكومة المكسيك، توقفي عن دعوة البيض إلى أرضكم" لم يلق من يسمعه أو من يفهمه. ولحسن الحظ.. بالنسبة لسمعة موكتزوما، فهو ليس وحده في موكب العلاقات الدولية السيئة التي انتهت بالمجازر. يمكننا تعلم أهمية اختيار الأصدقاء بحكمة من قصة الحاكم الروماني لألمانيا فاروس، في العام التاسع قبل الميلاد. كان فاروس يحاول تطبيق بنود القوة المهنية الكلاسيكية: كاختيار النبلاء المحليين وشدّهم ليكونوا في صفك، من أجل الحفاظ على الفلاحين هادئين نسبيًا. لسوء حظه، اختار أن يضع ثقته في زعيم قبيلة جرمانية يدعى أرمينيوس، على أساس أنه أصبح مواطنًا رومانيًا وقاد وحدة مساعدة في الجيش الروماني. على الرغم من تحذيره من أن مستشاره الموثوق به قد لا يكون وفيًا كما يعتقد، إلا أنه اختار تصديق أرمينيوس عندما أخبره أن هناك انتفاضة بين القبائل الألمانية وأنهم يجب أن يقضوا عليها. قاد فاروس جحافله الرومانية مباشرة إلى كمين، بعد أن خدع القائد القديم قائلًا: "سنتقدم إلى الأمام فقط لتفقد الخدعة". تم القضاء على ثلاثة جحافل رومانية كاملة، وهي أسوأ هزيمة عسكرية في تاريخهم حتى تلك اللحظة، فتوقف توسع الإمبراطورية الرومانية شمالًا إلى الأبد.

على النقيض تمامًا من الثقة المفرطة، هناك السياسة الخارجية الصينية

المهزومة ذاتيًا في عهد أسرة مينغ، والتي أصبحت حالة تدرّس في مخاطر الانعزالية. في العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي، كانت الصين تمتلك واحدًا من أعظم الأساطيل البحرية في تاريخ العالم، تحت قيادة قبطان الأسطول البحري الأسطوري تشنغ خه. تكوّن الأسطول من 300 سفينة، بما في ذلك سفن ضخمة ذات تسعة صوارٍ أكبر من أي قارب تم بناؤه لقرون في المستقبل، وقد حمل الأسطول ما يصل إلى 30000 رجل؛ حتى أنه شمل السفن التي تعمل كالمزارع العائمة، لزراعة الخضروات والحفاظ على قطعان الحيوانات. وما هو أهم من ذلك، خلال هذه الفترة، لم يستخدم الصينيون أسطولهم للغزو. ومن المؤكد أنهم قضوا الكثير من الوقت في قتال القراصنة، وكان الأسطول مفيدًا جدًا لدفع تهديد أي دولة غامضة بعيدة تفكر في مهاجمتهم. ولكن في جميع رحلات تشنغ خه السبع إلى آسيا والجزيرة العربية وشرق إفريقيا، اشتبك في معركة واحدة فقط. بدلًا من الحروب وساحات القتال، أمضى معظم وقته في زيارة الموانئ البعيدة مثل ملاكا ومسقط ومقديشو، وفي تبادل الهدايا. أحضر الصينيون المعادن الثمينة والملابس الجميلة، وحصلوا على مجموعة واسعة من الهدايا، بما في ذلك الكثير من الحيوانات الغريبة، وأحضروا ذات مرة زرافة معهم من كينيا.

عندما تتعرض القوى العظمى للقوة الإمبريالية، يبدو كل شيء لطيفًا مقارنة بالبدائل. ومن المحير بشكل خاص أنه بعد وفاة تشنغ خه في عام 1433، توقفت أسرة مينغ عن التجارة البحرية ورعاية الأسطول، في رد فعل مبالغ فيه إلى حد كبير على استمرار وجود القراصنة اليابانيين، وأعادوا إحياء سياسة هايجن القديمة ، وهي حظر شبه كامل على أي شحن بحري. ونظرًا لانشغالها بالمعارك المستمرة مع المغول في الشمال، كان ينظر إلى البعثات الدبلوماسية الأجنبية على أنها نفقات غير ضرورية، والأموال التي يتم إنفاقها على أنها أموال مهدورة يمكن لهم صرفها بشكل أفضل على مشروع ما، كبناء جدار حدودي كبير جدًا يفصلهم عن الآخرين.

تحولت الصين في السنوات اللاحقة إلى الاهتمام بما يجري داخلها فقط، مما أغلق أبوابها على العالم وكأنه غير موجود على الإطلاق. كان لقيامهم بذلك في الوقت الذي كانت فيه القوات البحرية الأوروبية تستكشف الكرة الأرضية تأثير مزدوج: كان يعني أنه عندما بدأ الأوروبيون في الظهور في المياه الآسيوية بعد بضعة عقود، لم تكن هناك قوة محلية كبيرة للوقوف في وجههم، وهذا يعني أن الصين قد فاتها الكثير من التطور العلمي والتكنولوجي الذي دار دولابه في الغرب بلا توقف. وسيمرّ وقت طويل قبل أن تستعيد البلاد مكانتها كقوة عالمية. وهذا يبرز مدى قلة الخيارات الدبلوماسية، إلى حد ما، حول محاولة التنبؤ بكيفية تحول موازين القوى في المستقبل. نظرًا لأنه من المستحيل القيام بأي شيء قريب من الدقة، فليس من المستغرب تمامًا أن يخطئ الأشخاص كثيرًا. في سويسرا في أواخر ربيع عام 1917، وفي منتصف الحرب العالمية الأولى مباشرة، قدّم رجل في منتصف العمر ذو لحية مضحكة اقتراحًا للحكومة الألمانية. لقد كان مواطنًا روسيًا يرغب بشدة في العودة إلى بلاده التي كانت تعيش أسوأ أيامها في قبضة الاضطرابات السياسية، لكن الحرب جعلت السفر عبر أوروبا مستحيلًا، وكان أفضل طريق للعودة إلى روسيا هو التوجه شمالًا عبر ألمانيا، لكن الرجل كان يحتاج إلى إذن ألماني للقيام بذلك. ولم تكن الحكومة الألمانية من مشجّعي سياساته.

كانت اللعبة بسيطة.. رغم كل خلافاتهم، كان الطرفان يملكان عدوًا مشتركًا، ألا وهو الحكومة الروسية التي لم تكن معجبة به بدورها وكان هو حريصًا على الإطاحة بها. كانت القيادة العليا الألمانية تخوض حربًا على عدة جبهات، وتوصلت إلى أن أي تشتيت للتركيز قد يحول الموارد الروسية عن الخطوط الأمامية سيكون مفيدًا، فوافقوا على اقتراحه. وضعوا الرجل وزوجته و30 آخرين من مواطنيه في قطار متجه إلى ميناء شمالي، حيث سافروا إلى روسيا عبر السويد وفنلندا. لم تكن رحلة ممتعة، لكنها كانت أفضل من البقاء في ألمانيا والتوق للعودة. حتى أن

السلطات الألمانية قدمت لهم بعض المال، وواصلت مساعدتهم ماليًا خلال الأشهر التالية. ربما تخيلوا أنه أحد المهووسين السياسيين بسبب قضيته القديمة الجديدة، وأنه سيثير بعض المشاكل ويخرج الروس عن طورهم لفترة ثم سيختفي بهدوء في بحر النسيان. بكل الأحوال، كان هذا الرجل هو لينين.

فلاديمير إلياك إليانوف، المعروف باسم لينين.

سارت الخطة الألمانية كما رسموها بلا أي شائبة، لا بل وأفضل مما كان متوقعا. في الواقع لم يزعج البلاشفة السلطات الروسية ويصرفوا انتباههم عن الألمان فحسب، بل مسحوهم من الوجود تمامًا. وخلال ما يزيد قليلًا عن ستة أشهر، اختفت حكومة روسيا المؤقتة، وجلس لينين على كرسي السلطة وأنشأ الدولة

السوفيتية. حصل الألمان على وقف لإطلاق النار، وهو أمر لم يحلموا به في أبريل حينما لوّحوا لقطار لينين مودعين إياه في المحطة.

ومع ذلك، لم تنجح الخطة نجاحًا باهرًا على المدى الطويل.

بالنسبة للمبتدئين في التاريخ، لم يساعد وقف إطلاق النار على الجبهة الشرقية في كسب الألمان للحرب. وسرعان ما تحولت العلاقة بين الدولة السوفيتية التوسعية الجديدة وأصدقائهم الألمان المفيدين بعد ذلك إلى شيء آخر. وبعد عقدين من الزمن وحرب عالمية أخرى لاحقا، وقعت نصف أراضي ألمانيا المقسمة حديثًا تحت السيطرة السوفيتية، ووقع الألمان في الفخ القديم باعتقادهم بأن عدو عدوهم سيكون صديقهم. هذا ليس خطأ دائمًا، فعادة ما يكون للصداقة فترة صلاحية قصيرة بشكل ملحوظ. وخداع العدو بهذه الطريقة جرى بالفعل في عدد مذهل من الحالات فيما يمكن تسميته بأسوأ القرارات في التاريخ، بالإضافة إلى شرح عدة قرون من التاريخ الأوروبي المربك للغاية. يمكن أن يكون الاسم الآخر لهذه الظاهرة «السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد الحرب». فخلال الفترة الممتدة من الحرب الباردة، تحالفت الولايات المتحدة مع أي شخص انطبقت عليه المعايير الصارمة المتمثلة في «عدم كونه شيوعيًا». كان العديد من هؤلاء الحلفاء مجرد أوغاد مساعدين (انظر كتاب: الحكام الدكتاتوريين المتنوعين في أمريكا اللاتينية، خلافة الحكام الفظيعين في فيتنام). لكن على رأس تلك المشكلة الأساسية تأتي مشكلة أخرى، وهي أن هؤلاء الحلفاء ينقلبون عادة عليك.. باعتبار أنهم لم يكونوا يومًا من أنصار أو محبّي أمريكا من البداية، لكن الظروف أجبرتهم على التظاهر بذلك.

تورطت الولايات المتحدة في نزاع مسلح ضد تنظيم القاعدة خلال العقود الماضية، والذي انبثق من جماعة المجاهدين في أفغانستان، وهي مجموعة كانت الولايات المتحدة قد دعمتها من قبل على أساس أنهم كانوا يقاتلون السوفييت.

(أوصي بشدة بمشاهدة فيلم James Bond لعام 1987، The Living Daylights إذا كنت من محبي الهتاف للولايات المتحدة لتشجيعها. في ذلك الفيلم، يتعاون بوند مع المجاهدين الذين يقودهم بطل ساحر يمكن وصفه بأنه "نسخة ناعمة من بن لادن وذو لهجة إنجليزية فاخرة". في ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة متورطة أيضًا في نزاع مسلح ضد العراق، وهو البلد الذي دعموه سابقًا لأنهم كانوا يقاتلون إيران، وهي دولة عارضت الولايات المتحدة على أساس أن الولايات المتحدة دعمت ديكتاتورية إيران السابقة، لأنها عارضت السوفييت أيضًا. وكانت الحكومة العراقية أيضًا في نزاع مسلح ضد داعش، التنظيم الذي نشأ عن أنشطة تنظيم القاعدة في عراق ما بعد الحرب ويقاتل الآن في سوريا في ما يمكن وصفه بأنه حرب ثلاثية الأطراف، تعارض فيها الولايات المتحدة النظام الذي دعمته سابقًا وحاولت بعد ذلك دعم أعدائه، لكن اتضح أن بعض أعداء نظام العدو كانوا أيضًا أصدقاء داعش، الذين هم أعداء للولايات المتحدة، على الرغم من أن بعض الأصدقاء الآخرين أعداء كليهما - يا إلهي - دون نسيان قتال روسيا أيضًا لأنها العدو التاريخي الأبدي. وهذا فقط في جزء واحد من العالم.

إن السياسة الدولية لهي أمر صعب حقا، إذ لا يوجد مجال كبير للتصرف وفق المُثُل العليا، كما أن السياسية البراغماتية الباردة القلب تعني أنه يجب عليك في كثير من الأحيان أن تتعامل مع الحلفاء الذين يمكنك الحصول عليهم، بدلًا من الحلفاء الذين تحتاجهم وتريدهم حقًّا. لكننا قد نتمكن من تفادي الكثير من المشكلات التي نواجهها مرارًا وتكرارًا إذا تذكرنا أن عدو عدونا هو مجرد طرف آخر في المعادلة كالعدو الأصلي. ولكن.. وعبر التاريخ الطويل الحافل بالأخطاء الدبلوماسية الفادحة، هناك خطأ بارز فوق العادة، خطأ لا يمكن غفرانه أبدًا.

في عام 1217، تلقى علاء الدين محمد الثاني، شاه الإمبراطورية الخوارزمية الشاسعة والقوية، رسالة من زعيم قوة جديدة كانت تنمو في الشرق المحاذي له: «أنا سيد أرض الشمس، بينما تحكم أنت تلك الأراضي التي تغرب فيها الشمس. دعنا نبرم معاهدة قوية من الصداقة والسلام». اقترحت الرسالة صفقة تجارية بين القوتين، لمصالحهما المشتركة الكبيرة. عند هذه النقطة اتخذ الشاه محمد الثاني أسوأ قرار على الإطلاق في تاريخ الدبلوماسية الدولية الطويل. كانت إمبراطورية خوارزم واحدة من أهم الإمبراطوريات في العالم في ذلك الوقت، حيث امتدت من البحر الأسود في الغرب إلى جبال هندو كوش في الشرق تقريبًا، ومن الخليج الفارسي في الجنوب إلى السهوب الكازاخستانية في الشمال. وغطت مساحة كبيرة تضم اليوم أجزاءً كبيرةً من إيران وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان وأذربيجان وأفغانستان وغيرها. في وقت كانت فيه أوروبا لا تزال على بعد قرن أو قرنين من الوصول إلى عصر النهضة، كانت خوارزم في مركز الصدارة بين دول العالم المتقدم. وكان طريق الحرير يمر عبر خوارزم، وهو الطريق العظيم الذي ربط بين الشرق والغرب، حيث تدفقت البضائع كما الأفكار. وكانت منطقة الشاه قلب العالم الإسلامي النابض وأغنى ثقافة وأكثرها تقدمًا. وكانت المدن مثل سمرقند وبخارى ومرو تمثل جواهر إمبراطورية خوارزم، كانت تلك هي المدن الكبرى في آسيا الوسطى التي اشتهرت بأنها مراتع العلم والابتكار والثقافة.

وإذا ما كنت تفكر بأن ذلك أمر غريب للغاية لأنك لم تسمع بإمبراطورية خوارزم من قبل، فهناك سبب لذلك.

لقد تلقى شاه خوارزم تلك الرسالة من جاره المعروف لدينا باسم جنكيز خان، وخلال عامين من رفضه لمحتواها والرد عليها بالقرار السلبي الذي اتخذه،

اختفت إمبراطوريته عن وجه البسيطة.

لا قيمة تاريخية لمشاعر جنكيز ونواياه في تلك الرسالة، نواياه لا تعني شيئًا إلى جانب ما اقترفه، مهما كان جادًا ومخلصًا في اقتراحه. كان جنكيز قد حقق جميع أهدافه الحربية، وهو المقاتل الشرس والمغوار، فقد احتل شمال الصين ووحّد شعوبها مع شعوب المناطق المحيطة بإمبراطوريته المغولية الأصلية في سلسلة من الحروب التي تراوحت شدتها بين المعارك الحامية الوطيس والدموية إلى المعارك البسيطة. وكان على وشك شن عدة معارك بسيطة شرقًا للانتهاء من أمر شرق آسيا بالكامل حين خطّ تلك الرسالة، دون أي نيّة للاتجاه غربًا. بالإضافة لأنه كان قد بلغ الستين من عمره وحقق كل ما يبتغيه، ولا بد أنه كان يفكر في قضاء ما بقي من عمره في الاستجمام والراحة بعد ذلك العمر الطويل على صهوات الأحصنة.

مشهد يمثل جنكيز خان في أرض المعركة، رسم يعود للقرن الرابع عشر بريشة رشيد الدين.

هدفت غزوته الأخيرة لقرية خيتاي التابعة لإمبراطورية البدو الصينيين النازحين إلى التوسع باتجاه قرغيزستان الحديثة للنيل من آخر المعاقل ضد حكمه، وهي الغزوة التي أتت بجنكيز إلى عتبة خوارزم وخلقت حدودًا جديدة بين المغول والعالمين الإسلاميين. ولأن الصدام امر لا يمكن تفاديه، ولا سيما على تخوم الحدود غير الواضحة ومن أجلها، وقعت مناوشات عسكرية فاشلة بين القوات المغولية والخوارزميين. حدث هذا عندما ظهر محمد الثاني وجيشه لخوض معركة ضد بعض أعدائه، ليجدوا أن المغول وصلوا إلى هناك قبلهم وقاموا بتوجيههم بالفعل. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا. بدا أن جنكيز عادة يظهر فجأة ويكسب الحرب التي كان محمد يخطط لها، وهو الأمر الذي قد يساعدنا على تفسير رد فعل الشاه السيئ على غصن الزيتون الذي ناوله إياه جنكيز بعد تلك المناوشات الأولية. كان غاضبًا قليلًا لأن المغول كانوا يسرقون مجده بتكتيكاتهم العسكرية العريقة. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن علاقات خوارزم والمغول عانت من المشاكل التي تواجهها دائمًا عندما تتوه المعاني بسبب أخطاء الترجمة. «أنا أحكم أرض الشمس وأنت تحكم الأراضي التي تغرب فيها الشمس»، ربما كان جنكيز في صدد وضع بعض قواعد الجغرافيا الأساسية للغرب والشرق ويعترف لندّه الخوارزمي بوضعه على قدم المساواة (تقريبًا). ولكن إليك ترجمة بديلة للرسالة: «أنا صاحب شروق الشمس وأنت صاحب غروب الشمس». بعبارة واحدة هكذا، وفجأة يبدو أن جنكيز يحاول مسح غريمه. وبالنسبة للحاكم الذي كان يشعر بالفعل بالقلق تجاه فوز شخص آخر في معاركه.. هل صادف أن فكّر: «أنا قوة صاعدة وأنت قوة باهتة، معقول»؟

جرى الحوار اللاحق بين محمد وجنكيز خان عبر سلسلة من المبعوثين الذين أُرسِلوا ذهابًا وإيابًا، في مسرحية كوميدية سلبية عدوانية. وشعر جنكيز بالإهانة بسبب هدايا الحرير الناعم التي أرسلها الشاه (هل يتخيل هذا الرجل أننا لم نرَ مثل

هذه الأشياء من قبل؟). فأجاب عن طريق إرسال هدية عبارة عن كتلة ذهبية هائلة، لإثبات أنهم يملكون أشياء لطيفة للغاية حتى لو كانوا يعيشون في خيام. عند هذه النقطة، فإن تكرار جنكيز لرغبته الجادة في السلام، قائلًا: لدي رغبة كبيرة في العيش في سلام معك، يجب أن أراك وجهًا لوجه يا بني».

لكن الشاه محمد لم يكن في الحقيقة معجبًا باستخدام لقب «بني».

ومع ذلك، ومع استمرار الشكليات والبروتوكول (على الرغم من وقوع الكثير منها في عثرات الجهل والخداع)، اعتقد جنكيز بوضوح أن طلبه للحصول على الاتفاق قد تم على أسس علاقة تجارية سلمية. وبالنسبة للمبتدئين، كان من الواضح أن جميع الأطراف قد خرجت فائزة بشيء ما. «أنت تعلم أن بلدي هو كومة من المحاربين ومنجم من الفضة، وأنه ليس لدي أي حاجة للطمع في سيادة البلدان الأخرى» كما قال لمحمد في رسالة لاحقة، وأشار إلى أنه «لدينا مصلحة متساوية في تعزيز التجارة بين رعايانا».

وهكذا، أرسل جنكيز أول مهمة تجارية إلى خوارزم مدعومة بأمواله الخاصة، وقادها مبعوثه الشخصي، وتألفت من 450 تاجرًا و100 جندي و500 جمل، مع عربات محملة بالفضة والحرير واليشب. كان هدفهم التأكد في المقال الأول من أن الحظر الذي فرضته خوارزم على التجارة عبر الحدود مع الإمبراطورية المغولية قد انتهى. كان الجميع حريصين للغاية على حدوث هذا، خاصةً خارج حدود خوارزم، لأن توحيد جنكيز لشمال الصين جعل المرور على طول طريق الحرير أسهل من الناحية النظرية، وكان التجار في جميع أنحاء العالم الإسلامي مهتمين جدًا بفرصة اقتحام السوق الصينية. لكن غفوة الشاه الإقليمية أغلقت الطريق. على هذا النحو، عندما دخلت قافلة التجار والبضائع مدينة أوتوار الشمالية في إقليم خوارزم في عام ، كان جميع من فيها يعتقد بأن الأوقات السعيدة عادت من جديد، ولكن.. بدلًا من

الترحيب بالمهمة التجارية، والسماح لهم بإيقاف جمالهم وتقديم فنجان جميل من الشاي للضيوف، اتبع الحاكم قير خان مقاربة مختلفة، فقتلهم جميعًا وسرق كل ما أحضروه معهم.

لقد باغتهم بهجوم مفاجئ وحشي نجا منه شخص واحد فقط من أصل 550 في القافلة، لأنه كان يستحم وقت المذبحة وتمكن من الاختباء وراء الحوض. صدمت الحادثة العالم، كغضب ضد الحشمة والضيافة وأيضًا الحس السليم. فسر الحاكم الأمر بأنه اشتبه في أن ركاب القافلة من الجواسيس، فكان عذره مثيرًا للسخرية. إذ لم يكن التجار أنفسهم من المغول، بل كانوا مسلمين إلى حد كبير من منطقة اليوغور. وكان احتمال تعرض التجار الإسلاميين في مدينة إسلامية على طريق تجاري رئيسي لخطر ذبحهم من قبل الحكومة المحلية بذريعة واهية - وذلك إذا عبرنا عما جرى بتعبير معتدل موضوعي - احتمالًا غير جيد للتجار ورجال الأعمال. لم يصدق يومها الناس بأن الحاكم سيفعل شيئًا مدمرًا للغاية كذاك - لإمبراطورية تعتمد ثروتها ومكانتها على التجارة - دون إذن من الشاه نفسه أو بأمر مباشر منه.

وسرعان ما تلاشت الشكوك الباقية حيال هجوم محمد على بدء حرب على المغول، فسرعان ما ذاب. لكن جنكيز خان كان على استعداد لمنحه فرصة ثانية رغم أننا نجد أنفسنا اليوم غير قادرين على تصديق أمر كهذا. كانت الصفقة التجارية لا تزال من أولويات المغول (بالنسبة للمبتدئين، لم تكن حملات الغزو مفيدة للزراعة في وطنهم، لذا احتاجوا إلى شراء المحاصيل والمواد الأساسية للطعام بدلًا من زراعتها). وهكذا أرسل جنكيز ثلاثة مبعوثين - أحدهم مسلم، واثنان من المغول - لوضع الأمور في نصابها الصحيح مع محمد، مطالبين بمعاقبة المجرم، وتعويض سلعهم والعودة إلى حالة السلم. وبدلًا من الاعتذار، قام الشاه بقطع رأس المبعوث المسلم وأحرق اللحى في وجوه المغول، وأعادهم إلى جنكيز مشوهين ومذلين.

لماذا؟ وأعني كلامي حرفيًا، لماذا فعل ذلك؟ هل بدأ محمد حقًا حربًا مع جنكيز خان لأنه كان يعتقد أن وصفًا لغروب الشمس كان نقطة اختلاف؟ إنه أمر ممكن بالتأكيد، وليس أغبى كثيرًا من أي تفسير آخر. ولكن في الوقت نفسه، تجدر الإشارة إلى أن جنون العظمة عند الشاه محمد هو جزء لا يتجزأ من إرثه العائلي. فهو من أصل تركي ويشك الكثيرون بأنه منحدر من عبد لا من أحد السادة، وكان ينظر إليه في كثير من الأحيان من قبل نبلاء البلدان الفارسية والعربية المجاورة في العالم الإسلامي على أنه ابن حرام من ظهر عبد. كانت إمبراطوريته منقسمة داخليًا، وكان لديه علاقة شائكة مع والدته، وهو أمر يزيد الأمور صعوبة. كما كان لديه أيضًا ثأر طويل الأمد مع الناصر، الخليفة العربي في بغداد، والذي يشتبه الآن في تآمره سرًا مع المغول لإسقاطه. (وللإنصاف، ليس من المستحيل أن الناصر تآمر فعلًا مع المغول، على الرغم من أن تواطأً كهذا كان سيؤدي إلى نتائج عكسية بالنسبة لجميع المعنيين). حاول محمد الاستيلاء على بغداد في عام 1217 لكنه فشل، إذ ضاعت قواته في ثلوج الجبال التي تفصل بين مملكتيهما، مما دفعه للشعور بالشك حيال براعته العسكرية.

بالإضافة إلى ذلك، ربما استهان الشاه بقوة جنكيز ومدى جدية تهديداته، وهو مثال جيد كي لا نتهور قبل أن نحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات قبل القيام بأي شيء مهم. فحين اتجه المبعوثون المغوليون المشوهون إلى ديارهم مع أخبار استفزاز الشاه محمد لهم وإهانتهم، كان أحد مبعوثي الشاه متجهًا في الاتجاه المعاكس حاملًا أخبارا عن مدى قوة القوات المغولية. ويبدو أن رد فعل الشاه لم يكن أكثر من الدهشة مما حمله له المرسال. وهكذا صعد جنكيز إلى قمة بورخان خلدون، وهو الجبل المجاور لمسقط رأسه، وهو المكان الذي يذهب إليه عند التفكير في الحرب، وصلى لمدة ثلاثة أيام وليال. ثم أرسل رسالة أخيرة إلى محمد - وهذه المرة، كانت واضحة بما فيه الكفاية بحيث لا يمكن إساءة تفسيرها. قال للشاه

«استعد للحرب.. أنا قادم مع جيش لا يمكنك الصمود أمامه». انطلق جنكيز إلى خوارزم مع جيشه في عام 1219. وبحلول عام 1222، تم القضاء على إمبراطورية خوارزم ومحوها عن الخريطة. تختلف التقديرات بشكل كبير، لكن يبدو أن جيش المغول كان يتألف من أكثر من 100000 جندي، بينما كان لدى الشاه ضعف العدد أو أكثر، وكان يقاتل على أرض مألوفة، على أرضه نفسها، لكن ذلك لم ينفعه، فقد قرر انتظار قوات المغول خلف أسوار المدينة المحكمة والعالية المنيعة، اعتقادا منه بأنهم كانوا جيشًا هزيلًا من المرتزقة. ولأجل الأمانة التاريخية، كانوا جيشًا من المرتزقة، لكن ما لم يعرفه الشاه محمد هو أن جنود المغول كانوا شبابًا سريعي الحركة ومهرة في استخدام مختلف أسلحة المعارك غير المألوفة بالنسبة للخوارزميين. استمر الحصار الأول لعدة أشهر. بعد ذلك، لم تأخذ المدن الأخرى أكثر من أسابيع أو أيام لتسقط أمام جحافل مرتزقة المغول.

كان الجيش المغولي رشيقًا سريع التكيف، منضبطًا عظيم الولاء. وقام جنكيز بتقسيم قواته للهجوم من اتجاهات غير متوقعة ومواجهة أهداف متعددة في وقت واحد. لقد أعطوا الأولوية للتواصل السريع وغيروا أساليبهم بسهولة، وفهموا استراتيجيات وأسلحة خصومهم بشكل سريع. لكن أهم ميزاتهم هي أنهم كانوا عديمي الرحمة بشكل لا يصدق. اجتاحوا خوارزم بسرعة مرعبة. وتم إعطاء كل مدينة استولوا عليها فرصة للاستسلام، وقاموا بنهب المدن التي عاملوها بكرم نسبي ولكنهم سمحوا لمعظم السكان بالعيش. لكن إذا لم تستسلم المدينة، أو إذا حاول سكانها التمرد لاحقًا، فكان رد المغول وحشيًا. وفي مسقط رأس عمر الخيام، في نيسابور، حيث قُتل صهر جنكيز المفضل في المعركة، سُمح لأرملته الحزينة باختيار مصير المدينة.. ونتيجة لذلك، تم إعدام جميع سكان المدينة وتكويم جماجمهم في سدٍّ كأهرامات مصر الهائلة. استغرقت المذبحة 10 أيام، وبعدها قتل المغول كل كلب وقطة في المدينة أيضًا. وفي غورجانج، وهي إحدى المدن القليلة التي تمكنت

من صدهم لعدة أشهر، دمر المغول السد الذي أعاق نهر أمو داريا الذي تم تحويله، مما أدى إلى موجة مميتة من المياه أدت إلى القضاء على المدينة بالكامل وتغيير مكانها على الطريق من النهر لعدة قرون. حدث كل هذا في نفس الشهر من عام 12. وبالمناسبة، يجب علينا جعل هذا الشهر واحدًا من أكثر الشهور تدميرًا في التاريخ. كان جنكيز يعرف قيمة الإرهاب حين تحمله الأخبار من مكان إلى مكان، وبدأ بالتفكير في المتابعة شرقًا باتجاه الغرب المسلم المتعلم والمتحضر، فكان يحب التأكد من أن الرسائل قد أوصلت حكايات غزواته المرعبة، لأنها تزيد من فرص استسلام المدن القليلة القادمة دون قتال.

حرص جنكيز في نفس الوقت على احترام الدين، وغالبًا ما كان يتعامل مع الأماكن المقدسة بشكل خاص. وعلى الرغم من وحشيته، كانت الإمبراطورية المغولية في عهد جنكيز متسامحة بشكل مدهش، لدرجة أنه ربما أنشأ أول قانون على الإطلاق في العالم يجسد حرية الدين. كان لهذا فوائد عملية بالطبع، فقد كان من السهل على المعارضين رؤية فوائد الاستسلام إذا علموا أنهم لا يخوضون حربًا مقدسة. كما تحولت الأقليات الدينية في كل مكان إلى حلفاء محتملين. فعندما سقطت مدينة بخارى، وهي مركز اللاهوت الإسلامي في ذلك الوقت، في الأشهر الأولى من عام 1220، أمر جنكيز أن يترك المسجد الكبير غارقًا في الدمار دون تغيير. حتى أنه زار المسجد نفسه - وهي المرة الوحيدة في حياته التي سجل فيها أنه دخل بالفعل إلى مدينة غزاها. كان جنكيز من كبار المعجبين بالخيام والسهول المفتوحة، التي كان إلهها السماء الزرقاء الخالدة كما يعتقد المغول، ولم يرَ أبدًا شكل المدن التي غزاها ودمرها. وماذا عن الشاه محمد، الذي كان غباؤه الدبلوماسي المحفز الأساسي لكل هذا؟ تحصّن الشاه في مدينة سمرقند المجاورة لبخارى، ثم هرب منها، وقضى العام التالي وهو يشارك في ما يمكن وصفه بالقتال ضد جيش خفيّ، وهو بديل لطيف عن كلمة (الهروب). فكرس جنكيز 20 ألف جندي لملاحقته عبر إمبراطوريته

المنهارة، مع أوامر بعدم العودة حتى يتم القبض عليه أو قتله. طاردوه حتى شواطئ بحر قزوين، حيث لجأ إلى سلسلة من الجزر. لكنه توفي بسبب التهاب رئوي في إحدى هذه الجزر في يناير 1221. لو أوقف جنكيز هجماته بموت غريمه، لورد اسم الشاه محمد في حواشي كتب التاريخ اليوم، لكن المشكلة هي أن جنكيز لم يتوقف. استمر في تدمير خوارزم طوال عام 1221، وتعاظمت حدة وحشيته، وكانت أوامره واضحة كنور الشمس الساطعة، بمحو المدن التي تقاومه عن بكرة أبيها، المدن التي ترفض الاستسلام، كنيسابور وغورانجي ومرو.

وبمجرد أن تم القضاء على إمبراطورية خوارزم، تابع جنكيز غزواته معجبًا بسهولة الاستيلاء على الأراضي. إن قلة اهتمامه الأصلي بتوسيع إمبراطوريته غربًا قد تحولت الآن إلى رغبة قوية جدًا لمعرفة مدى قدرته على التوسع غربًا. فأهمل جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامي، واندفع المغول إلى أوروبا. بعد وفاة جنكيز في عام 1227، واصل أبناءه وأحفاده التوسع. وكانت الإمبراطورية المغولية في أوجها أكبر إمبراطورية شهدها العالم على الإطلاق، امتدت من بولندا إلى كوريا. لكنها انهارت بعد بضعة أجيال، وانحدر بها الأمر إلى الاقتسام والاقتتال الداخلي كما يحصل للإمبراطوريات في كثير من الأحيان، إلا أن إرثه استمر في بعض المناطق لفترة أطول حتى في القرن العشرين. في إمارة بخارى مثلًا، حكم أحفاد جنكيز المباشرين حتى عام 1920، وانتهى آخر عهد لسلالة خان عندما وصل البلاشفة إلى كرسي السلطة.

في عام 1838، تمكن جندي بريطاني يدعى تشارلز ستيوارت، مبعوث في مهمة دبلوماسية للفوز بمدينة بخارى إلى الجانب البريطاني، تمكن هذا الجندي من تكرار حماقة الشاه محمد بصورة مصغرة، فقد أهان الأمير نصر الله خان بلا سبب واضح، وألقاه في مكان مزعج للغاية يُعرف باسم حفرة البعوض، حيث قضى عدة سنوات مرعبة والحشرات تأكله حيًا قبل إعدامه في النهاية. أي أنه وحكومته لم يتخذوا من

التاريخ عبرة ولا درسًا.. لم يفهموا أن العبث مع المغول.. مع خانات المغول غلطة لا تغتفر.

دُمِّرت ثقافة وتاريخ ومؤلفات العديد من الدول التي غزاها المغول بالكامل، ونزح السكان تمامًا، وبلغ عدد القتلى الملايين. لكن لكل هذه البشاعة وجه آخر، وجه إيجابي بعض الشي، فقد تمكن الحكام المغول من توحيد وبث الاستقرار في طرق التجارة ذاتها التي سببت كل تلك الحروب، وسمحوا بحدوث تبادل ثقافي عبر القارة مما ساعد في بدء العصر الحديث في معظم أنحاء أوراسيا. والجانب السلبي لذلك هو أن استتباب الأمن أدى لتسهيل التجارة مما ساعد على نقل الأمراض، بما في ذلك الطاعون، الذي أودى بحياة الملايين. وكل هذا بسبب رجل أناني هش قرر أن الدبلوماسية هي أسلوب الخاسرين، وأن الطلب البسيط للتوصل إلى صفقة تجارية يجب أن يكون نوعًا من المؤامرة الشنيعة.

لقد دمرت نصف العالم بغبائك يا شاه محمد.

أربع حكايات أخرى عن فشل العلاقات الدبلوماسية

أتاوالبا

وهو حاكم الإنكا الذي ارتكب خطأ مشابهًا لخطأ موكتزوما حين واجه قوة عسكرية إسبانية لأول مرة، لكنه زاد الطين بلة بسبب قراره بتناول الكثير من الكحول والوقوع فريسة للسكر قبل مواجهتهم، فقاد جنوده وهو شبه غائب عن الوعي ووقع في فخ

الإسبان.

فورتغرن

وهو حاكم بريطاني من القرن الخامس الميلادي، قرر دعوة المرتزقة السكسون للبقاء في بريطانيا للقتال إلى جانبه بعد انسحاب الجيش الروماني من بريطانيا، فقرر السكسون الاستيلاء على البلاد والبقاء فيها بدلًا من بقائهم أتباعًا للملك.

فرانسس سولانو لوبيز

وهو حاكم الباراغوي الذي قرر الزجّ ببلاده الصغيرة نسبيًا بحرب ضد الدول العظمى المحيطة به كالبرازيل والأرجنتين والأورغواي، وتقول الإحصائيات إن نصف سكان بلاده قضوا في تلك الحرب.

تلغرام زيمرمان

أرسلت ألمانيا تلغرافًا سريًا إلى المكسيك عام 1917 لتعرض عليها تحالفًا عسكريًا إذا ما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، ووعدتهم بمنحهم تكساس ونيومكسيكو وأريزونا. اعترض البريطانيون التلغراف السري واكتشفوا أمره، فأخبروا الأمريكان الذين حرضهم التلغراف نفسه على دخول الحرب، فيما لم ينل التلغراف اهتمام المكسيك بأي شكل.

9
حرارة التكنولوجيا

إن الدافع الدفين لدى الإنسان للاستكشاف بحثًا عن آفاق جديدة دائمًا هو إحدى الخصائص المميزة. كانت تلك الرغبة في استكشاف وجمع المعارف الجديدة هي ما دفع وكالة ناسا لإطلاق مسبار لتسجيل طقس المريخ، فيدور حوله في مدار لانهائي قاطعًا الفراغ الأسود والفضاء الشاسع بيننا وبينه في عام 1998. وبعد بضعة أشهر، انتهى المطاف بالمسبار متحطمًا مع حمولته من الصخور، كأي اختراع أحمق.

وفي عرض مذهل لقدرة الإنسانية على ارتكاب نفس الأخطاء مرارًا وتكرارًا، بعد أكثر من خمسة قرون من تلاعب كريستوفر كولومبوس بوحدات القياس التي أوصلته إلى أمريكا، ارتكب مهندسو ناسا نفس الخطأ فأخطأوا في القياسات وانتهى الأمر بالمسبار بالهبوط على سطح المريخ دون أن يكون مجهزًا لذلك.

الخطوة الإنسانية التالية الكبيرة في رحلتنا عبر التاريخ، ألا وهي الثورة العلمية، بدأت في القرن السادس عشر في الرسائل والكتب التي تبادلها الفلاسفة في جميع أنحاء أوروبا. بادئ ذي بدء، لم تكن حقا ثورة بقدر ما هي محاولة للحاق

بالركب؛ كان الكثير منها مجرد إعادة اكتشاف المعرفة التي سبق أن تم التوصل إليها من قبل الحضارات السابقة. ولكن جنبًا إلى جنب، ومع سهولة السفر حول العالم والاستعمار والتجارة وازدياد عدد المتعطشين دائمًا للمعرفة الجديدة والتكنولوجيا الجديدة على مدى القرون القليلة التالية، أنتجت البشرية توسعًا كبيرًا في فهمها للعالم. لم يمنحنا هذا الكثير من العلوم وحسب، بل منحنا فكرة وافية عن مفهوم العلم بحد ذاته، على أنه طريق شاق له أساليب وأصول، بدلًا من الفكرة التقليدية بأن العلم مجرد تكوين فكرة عن شيء ما.

استمرت وتيرة التغيير التكنولوجي في التسارع إلى أن بدأت ثورة أخرى في البلدات الواقعة في شمال بريطانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي يغذيها القطن الأمريكي الرخيص من مزارع الرقيق، حيث ظهرت الآلات التي زادت الإنتاج على نطاق واسع، وانتشرت هذه الآلات في جميع أنحاء العالم وأثرت على مدننا وبيئتنا واقتصادنا وقدرتنا على الشراء. لقد أتاح انبثاق فجر العصور العلمية والتكنولوجية والصناعية فرصًا لم يحلم بها أجدادنا، لكن هذا العصر الجديد قدم لنا أيضًا فرصة للإخفاق والتدمير على نطاق لم يكن متوقعًا من قبل.

حين أخطأ كولومبوس في قياس المسافات، انحصرت أخطاؤه على سطح الأرض ومن عليها، أما الآن، وكما تخبرنا القصة المؤسفة لمسبار المناخ حول المريخ، فقد وصلت أخطاؤنا إلى الفضاء.

بدأت أعطال المركبة المدارية في الظهور بعد عدة أشهر من بدء المهمة، عندما حاول المهندسون إجراء تعديلات دقيقة على مسار المركبة الفضائية من أجل الحفاظ عليها في مسارها الصحيح، فلم يتمكنوا من التأثير على المسار كما كانوا يرغبون. لكن أمر الخطأ انفضح تمامًا عندما وصلت المركبة إلى المريخ وحاولت الدخول في المدار، وفقدت الاتصال بالمراقبة الأرضية على الفور تقريبًا. كشف

التحقيق بعد ذلك عما حدث: كان المدار يستخدم وحدة القياس القياسية لثواني نيوتن لقياس الدوافع (الزمن الإجمالي للتوجه المطبق في المناورة). لكن البرنامج الموجود على الكمبيوتر الأرضي، والذي تم توفيره بواسطة مقاول، كان يستخدم قياسات الثواني الأرضية. أي أن التأثير كان أسرع بأكثر من أربعة أضعاف ما كانوا يعتقدون في كل مرة حاولوا فيها تغيير شيء في المسار - مما أدى إلى انتهاء المركبة حطامًا على سطح المريخ، وبعيدة بأكثر من مئة ميل عن بقعة هبوطها الأصلية. وبينما كانت تحاول الدخول إلى المدار، أصابها الغلاف الجوي للمريخ بشدة بسبب سرعتها الفائقة، فدمرت المركبة وتحولت إلى شظايا على الفور تقريبًا، وهي المركبة الفضائية المتطورة البالغة قيمتها 327 مليون دولار.

يمكن لمثل تلك الحادثة أن تسبب الحرج لناسا، لكنهم خرجوا من الحرج بالاعتراف بأنهم يكادون لا يعرفون شيئًا حيال الموضوع برمته.

إليكم مثال آخر بعيد عن الفضاء، سباق مختلف تمامًا بين العلماء في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ونظرائهم السوفييت في عام 1969، حين وجدوا أنفسهم فجأة في خضم صراع على اكتشاف ثوري جديد، وهو شكل جديد ومختلف تمامًا من أشكال الماء.

جرى ذلك في ذروة الحرب الباردة، ولم تتلاعب المواجهة الإيديولوجية التي استنزفت البلدين بالمناورات الجيوسياسية فقط، بل دفعت بكلتا الدولتين إلى حافة حرب نووية وأغرقتهما في عالم التجسس الغامض. كما ولدت مسابقة بين العالمين الشيوعي والرأسمالي لإظهار براعتهما العلمية والهندسية وتفوقهما على بعض. كانت الاكتشافات الجديدة والإنجازات التكنولوجية تولد بمعدل مذهل، وكان هناك رعب دائم من التخلف عن العدو؛ في يوليو من ذلك العام، مشى الإنسان على سطح القمر بسبب رد فعل الحكومة الأمريكية المفاجئ على سلسلة من الرحلات السوفيتية

الأولى إلى الفضاء.

في خضم كل هذه الاختراقات الكبرى الشبيهة بما يجري في الأفلام السينمائية، بدا اكتشاف شكل جديد من الماء أكثر من مجرد اكتشاف بسيط آخر. وقد تم اكتشافه لأول مرة في عام 1961 من قبل نيكولاي فيدياكن، وهو عالم يعمل في المختبر السوفيتي الإقليمي بعيدا عن المراكز الرئيسية للعلوم، لكن أحدًا لم يدرك أهمية اكتشافه إلى أن وصلت أخباره إلى بوريس درياجين من معهد الكيمياء الفيزيائية في موسكو. وسرعان ما قام الأخير بتكرار عمل فيدياكين للتوصل لذلك الشكل الغريب من الماء وحصل على الفضل في هذا الاكتشاف. لكن الاكتشاف نفسه لم يكن ذا أهمية خارج الاتحاد السوفياتي. ولم يلفت أنظار العالم سوى حين قدم النتائج التي توصل إليها في مؤتمر عقد في إنجلترا عام 1966، وهناك.. جلس المجتمع العلمي الدولي منصتًا مشدوهًا وبدأ في تدوين الملاحظات. أشاروا إليها في البداية باسم «المياه الشاذة» أو «المياه الفوارة»، وكان للاكتشاف خصائص رائعة. وجد كل من العالمين الروسيين أن عملية التكثيف أو تمرير المياه العادية من خلال أنابيب الكوارتز الضيقة جدًا تسبب بطريقة ما في إعادة ترتيب جزيئات الماء لنفسها، وتغيير خصائصها الكيميائية جذريًا. الماء الجديد لم يتجمد عند درجة حرارة 0 مئوية؛ وتجمد بدلا من ذلك عند درجة 40 درجة مئوية. وكانت نقطة الغليان أكثر تطرفًا، إذ كان يحتاج لتسخينه 150 درجة مئوية على الأقل أو ربما أكثر، وربما تصل حرارته إلى 650 درجة مئوية. كما كان أكثر لزوجة من الماء، إلى درجة أننا لا يمكن أن نطلق عليه صفة السيلان، وكان أكثر سماكة ودهنية - إلى درجة أن بعض العلماء أطلقوا عليه بعض أوصاف الفازلين، فإذا قمت بتمرير شفرة في وسطه، فستبقى العلامة.

في البداية في إنكلترا، ثم في الولايات المتحدة.. راح العلماء يحاولون تقليد التجربة الروسية التي لم يكن تنفيذها سهلًا، لأن تمرير الماء من خلال أنابيب

الكوارتز الضيقة الأشبه بالشعر في رقتها كان يعني أن الكمية الناتجة عن التجربة في كل مرة لم تكن تتجاوز القطرات في كل مرة. بالإضافة لانتشار خبر فشل العديد من المخابر في تنفيذ التجربة، بينما تابع الآخرون وحصلوا على كميات أكبر من هذا الماء الغريب. إلى أن سمع العالم باسره عن الكشف الجديد الذي نتج عن التجارب في أحد هذه المعامل التي تابعت التجربة رغم صعوباتها، وكان هذا المخبر في الولايات المتحدة. حيث تمكن العلماء من تصنيع ما يكفي من الماء الجديد وعرّضوه لتحليل طيفي للأشعة ما تحت الحمراء. نشر هؤلاء العلماء نتائجهم في دورية العلوم الشهرية في شهر أيلول عام 1969، قبل شهر واحد من إنزال أرمسترونغ على القمر. أدى نشر نتيجة الأبحاث إلى انشغال جميع العلماء على الإطلاق بتنفيذ التجربة للتأكد بأنفسهم من نتيجتها، لأن التجربة لم تثبت اختلاف طبيعة الماء الجديد جذريًا عن الماء العادي فقط، بل وفّرت شرحًا لطبيعته المختلفة، فقد استنتج العلماء أن الماء الجديد كان شكلًا جديدًا من الماء أشبه بمادة البوليمر الشبيهة بالبلاستيك، حيث تتماسك جزيئات الماء في سلاسل شعرية كبرى مما يجعل الماء أكثر استقرارًا، وهكذا عرف الماء الجديد باسمه الذي نعرفه اليوم: poliwater.

جاء في مجلة العلوم في عام 1969 أن اكتشاف البوليوتر سيؤدي إلى ثورة في الكيمياء. وتحدثت بإسهاب عن استخداماته المحتملة في أنظمة التبريد ومواد تشحيم المحركات، أو كمادة مساعدة على التعديل في المفاعلات النووية. كما أن المقال شرح جوانب كثيرة من ظواهر العالم الطبيعية: لأن البوليوتر موجود في الطين، وهكذا عرف سبب احتفاظ الطين بليونته ليكون أشبه بالعجينة حتى يتعرّض لدرجات حرارة عالية جدًا كافية لتبخير البوليوتر.

وقد يكون البوليوتر مسؤولًا بشكل ما عن تقلبات الطقس، لأن كميات صغيرة منه كافية لتشكيل الغيوم. وهو موجود في جسم الإنسان بالتأكيد. ومن

المرجح أن هذا الاكتشاف قد أدى إلى خلق فرع جديد تمامًا في الكيمياء، حيث أفادت بعض المعامل بأنها تمكنت من إنتاج نسخة بوليوتر من سوائل حيوية كيميائية أخرى: البوليميثانول، والبولي أسيتون.

لكن المخاوف كانت موجودة منذ البداية، لأن يكون له تطبيقات عسكرية، أو أن يكون سلاحًا بحد ذاته، فقد اكتشف العلماء أن البوليوتر مركّب كيميائي مستقر في حالة طاقية أقل من الماء العادي، مما يعني أن اختلاطه بالمياه العادية يمكن أن يؤدي إلى سلسلة من ردود الفعل التفاعلية، التي قد تحفز المياه العادية لإعادة ترتيب جزيئاتها لاعتماد شكل البوليمر. وضع العلماء بناء على افتراضهم هذا نظرية تفيد بأن نقطة واحدة من البوليوتر يمكن لها القضاء على مخزون شعب من الماء، على نهر مثلًا، أو خزان ماء كبير، وتحويل كمية الماء كلها إلى حساء غليظ لا يمكن استهلاكه. وهكذا.. فكر العلماء بأنهم قادرون على تخريب إمدادات المياه لبلدان بأكملها.

تدخلت الحكومة الأمريكية في أعقاب نشر المقال في الدورية العلمية، وقام عملاء المخابرات المركزية الأمريكية باستجواب الباحثين المشاركين في دراستها، حرصًا على إبقاء جميع المعلومات في أيدي الأمريكيين. نوقشت طبيعة البوليوتر بعصبية عبر وسائل الإعلام من صحيفة نيويورك تايمز إلى صحف المدن الصغيرة: هل كانت الولايات المتحدة تتخلف عن السوفييت؟ فتم إعطاء الأولوية لأبحاث Polywater وتخصيص الأموال لتمويلها، ثم نشرت المئات من المقالات العلمية في عام 1970 وحده. وكتبت صحيفة وول ستريت جورنال في عام 1969 "أخبار سارة: في أعقاب حصول العلماء على التمويل الأولي، من الواضح أن الولايات المتحدة قد استدركت المشكلة، ويقوم البنتاغون بتمويل الجهود لدفع تكنولوجيا المياه المتعددة في هذا البلد قبل حصول الاتحاد السوفيتي عليها".

من الواضح إلى حد ما أن قصة البوليوتر لم تنتهِ بانتصار علمي، رغم مساعدة العلماء لبعضهم وانتشار تخمينات حصول الجميع على جوائز نوبل. ولكن الحقيقة لم تعرف حتى أوائل السبعينيات، بعد سنوات طويلة من البحث من قبل أرقى العلماء في أفضل المختبرات في قارات متعددة وصرف مبالغ مالية مهولة على تلك الأبحاث، أصبحت الحقيقة واضحة.

الحقيقة هي أن البوليوتر لا وجود له على الإطلاق، وأن المادة التي اكتشفها درياجين وفيدياكين، وما كرس الكثير من العلماء سنوات من حياتهم لدراسته وصناعته كان مادة يمكن وصفها بالماء الوسخ. وتبيّن للجميع بأن السبب في لزوجة البوليوتر هو القاذورات الموجودة فيه، مما يمنحه تلك الخاصية.

وتمكن عالم أمريكي اسمه دينيس روسو من الحصول على نفس نتائج تجربة تعريض المادة للأشعة ما دون الحمراء باستخدام عدة نقاط من عرق جسمه بعد أن عصرها من قميصه بعد مباراة كرة قدم. هذا هو ما كانت كل من القوتين العالميتين في الحرب الباردة تتصارعان عليه، وتتسابقان للحصول عليه.. العرق.

هذا غريب.

واجه المشروع الكثير من المعارضة، فقد شعر الكثير من العلماء بأن اكتشاف البوليوتر بخصائصه العجائبية تلك كان أمرًا لا يصدق البتة، وأعلن أحدهم أنه سيترك العمل في الكيمياء إلى الأبد إذا اتضح أن البوليوتر مادة حقيقية. لكن دحض الكشوفات العلمية أمر صعب، وخصوصًا حين يتفق الجميع على أن سبب فشلك في إنتاج البوليوتر هو عدم قيامك بإنتاجه بشكل صحيح. وكانت صعوبة إنتاج كميات لا تذكر من البوليوتر بالإضافة للجو الكئيب الذي فرضته الحرب الباردة على البحوث العلمية قد أدت لانتشار العلماء في القارات الخمس ولمشاهدة النتائج التي أمروهم

بمشاهدتها، وكتابة نتائج مبالغ فيها، بجمل غامضة مبهمة، والتوصل غالبًا إلى نتائج متناقضة لأهداف خفيّة.

حتى بعد نشر الأوراق الأولى التي تتراجع عن وجود polywater (أيضًا في مجلة Science، في عام 1970)، فقد مرّت سنوات قبل أن يعترف الجميع أخيرًا بأن الأمر برمته كان خطأً. إليسون تايلور، أحد المشككين الذين شاركوا في دحض وجود البوليوتر في النهاية، كتب في مجلة المختبر القومي في أوك ريدج في عام 1971: "علمنا أنهم كانوا مخطئين منذ البداية، وأفترض أن الكثير من الناس لم يسبق لهم أن وقعوا في مثل هذه المعضلة، ولكن كبار المسؤولين لم يمنحونا الإذن للاعتراف بذلك. "حتى أن مجلة العلوم الشعبية نشرت مقالًا بعنوان "كيف يمكنك أن تصنع البوليوتر بنفسك". وفي يونيو من عام 1973، ظهر عنوان فرعي باسم: "يزعم بعض الخبراء أن هذه المادة النادرة غير موجودة. ومع ذلك، إليك كيفية الحصول على ما يكفي منها لتجاربك الخاصة).

وبعيدًا عن وقت حدوث هذا، كانت القرون الأولى للعلم (حتى قبل اختراع مصطلح "العلم") مليئة بالنظريات الشائعة التي اتضح أنها خاطئة تمامًا في القرن الثامن عشر، مثل مادة phlogiston، وهي المادة الغامضة التي تكمن داخل كل الأشياء القابلة للاحتراق وتتطاير حين احتراق المادة. في فضاء القرن التاسع عشر العلمي المضيء، انتشر خبر وجود مادة غير مرئية تتخلل الكون وتنتقل عبره كالضوء، لكن هؤلاء العلماء امتازوا بمحاولتهم شرح الأشياء التي لا يمكن تفسيرها بالعلم الذي امتلكوه في ذلك الوقت، ولم يحاولوا اختراع التفاسير جزافًا لإرضاء الحكومات. وهو تمامًا ما يجب أن يكون حال العلم عليه.

إن سبب نيل العلم تلك المكانة الحصيفة والرزينة هي انطلاقه من الافتراضات المقبولة عمومًا، والافتراض الضمني بأن جميع تصوراتنا لحقيقة العالم

والكون خاطئة، وأن ذلك سيظهر تباعًا مع الوقت. يحاول العلم تلمس طريقه بهدوء في معظم الوقت ليضمن صحته وصوابه وتقبّل خطئه حين يتم إثبات ذلك. وبالنسبة إلى العلماء فإني أنصحهم بأن يحاولوا دحض نظرياتهم الجديدة قبل نشرها، وحين يفشلون في دحض نتائجهم فعليهم محاولة ذلك مجددًا بطرق مختلفة. بعد القيام بذلك لفترة لا بأس بها، يمكن للعالم نشر نتائجه وإرفاقها بمحاولات دحضها بجميع السبل. وحين يفشل الناس جميعًا في دحض اكتشافاتهم العلمية الجديدة فيمكن للناس حينها تقبل فكرة احتمال صواب ما اكتشفه العالم.

الأمور لا تسير بتلك الطريقة في الواقع. لا يكون العلماء أقل عرضة من البشر الآخرين لمخاطر افتراض خطأ نظرتهم إلى العالم، وتجاهل أي شيء مخالف. لهذا السبب تم وضع جميع نظريات العلوم - مراجعة النظراء وتكرارها وما شابه - في مكانها لمحاولة وقف ذلك. لكن النتائج بعيدة كل البعد عن أن تكون مضمونة، لأن القفز الجماعي والتفكير الجماعي والضغط السياسي والتعمق الإيديولوجي كلها أمور موجودة في العلم أيضًا. هكذا يمكنك الحصول على عدد كبير من العلماء في مؤسسات مختلفة في بلدان مختلفة، جميعهم يقنعون أنفسهم بأنهم يستطيعون رؤية نفس المادة التخيلية. ملحمة polywater ليست الوحيدة في هذا المجال، فقبل ستة عقود، كان المجتمع العلمي قد اكتشف نوعًا جديدًا تمامًا من الإشعاع. هذه الأشعة الجديدة الرائعة كانت تسمى أشعة N.

تم اكتشافها في فرنسا، وأخذت اسمهما من الحرف الأول من اسم مدينة نانسي حيث تم اكتشافها وحيث عمل العالم الذي اكتشفها لأول مرة (رينيه بلوندلوت)، الباحث الحائز على الجوائز والذي اشتهر على نطاق واسع بأنه فيزيائي تجريبي ممتاز وجاد. كان هذا عام 1903، أي بعد أقل من عقد من اكتشاف أشعة إكس التي أرسلت موجات عبر حقل المادة، لذلك كان الناس على استعداد لتقبل

فكرة اكتشاف أشكال جديدة من الإشعاع هنا وهناك وفي كل مكان. وأكثر من ذلك، كما هو الحال مع polywater، كان هناك الكثير من التنافس الدولي في المعامل والمخابر والهمس بأن أشعة إكس اكتُشفت أولًا في ألمانيا، لذلك كان الفرنسيون متحمسين للحدث.

رينيه بروسبر بلوندلوت 1849- 1930

اكتشف بلوندلوت أشعة N عن طريق الصدفة أثناء إجراء أبحاث حول الأشعة السينية. واشتملت معداته التجريبية على شرارة صغيرة من شأنها أن تصبح أكثر إشراقًا عندما تمر الأشعة، ولفت انتباهه التماع الشرارة في وقت لا يمكن أن تؤثر فيه الأشعة السينية. تعمق بلوندلوت في أبحاثه أكثر، وجمع المزيد من الأدلة، وفي ربيع عام 1903 أعلن اكتشافه للعالم في الأكاديمية الفرنسية. أصيب المجتمع العلمي بالجنون بالأشعة السينية. وخلال السنوات القليلة التالية، نُشرت أكثر من 300 ورقة بحثية حول الخصائص الرائعة للأشعة السينية من قبل أكثر من 120 عالمًا (قام بلوندلوت نفسه بنشر 26 منها). من المؤكد أن الصفات التي أظهرتها N-ray كانت مثيرة للاهتمام. فقد تم إنتاجها بواسطة أنواع معينة من اللهب، وصفيحة ساخنة من الحديد، والشمس. ووجد زميل بلوندلوت، أوغسطين شاربينتيري، أنها تُنتج أيضًا عن طريق الكائنات الحية: عن طريق الضفادع والأرانب وعضلات العضلة ذات الرأسين والدماغ البشري، وأن الأشعة قادرة على اختراق المعادن والخشب، ويمكن أن تنتقل عبر الأسلاك النحاسية، ولكن تم حظرها عن طريق الماء والملح الصخري. ثم اكتشفوا إمكانية تخزينها في الطوب.

لسوء الحظ، لم يحقق الجميع نجاحًا كبيرًا في إنتاج ومراقبة الأشعة السينية. ولا يبدو أن العديد من العلماء ذوي السمعة الطيبة قد أمضوا الوقت في العمل عليها، على الرغم من أن بلوندلوت كان مفصلًا جدًا في وصف أساليبه. ربما كان السبب في ذلك هو صعوبة التوصل إليها. عند هذه النقطة من الزمن، كان بلوندلوت قد تمكن من توليد الأشعة بواسطة استخدام ورقة فسفورية من شأنها أن تتوهج بشكل ضعيف عندما تتعرض للأشعة. تكمن المشكلة في أن التغيير في توهج الورقة كان باهتًا لدرجة أنه كان من الأفضل رؤيته في غرفة مظلمة تمامًا، وبعد ذلك فقط.. بعد الانتظار لمدة 30 دقيقة تقريبًا حتى تعتاد العيون على الظلمة الدامسة، كان يمكن للمرء أن يرى ما طبع على الورقة.

لقد كان الأمر أفضل إذا لم تنظر إلى الورقة مباشرةً. بالطبع، لم يقتنع الكثيرون بالجلوس لمدة نصف ساعة في مكان دامس الظلمة بانتظار رؤية ما ستكشفه لهم الأشعة، لأن الكثير من المتشككين قالوا بأن الانتظار في الظلمة وحده كاف تمامًا للسماح للدماغ لرسم ما يشاء أمامك من تخيلات بسبب الظلام. لم يكن باستطاعة المتشككين الكثر في الأشعة N أن لا يلاحظوا الميزة التي تجمع كل العلماء الذين أنتجوا هذه الأشعة، فجميعهم كانوا فرنسيين، فيما عدا استثناءان في إنجلترا وإيرلندا. لا أحد في ألمانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية تمكن من رؤية الأشعة على الإطلاق. انتهى هذا التشكيك بحالة من الغضب التام، وفيما منحت الأكاديمية الفرنسية بلوندلوت واحدة من أفضل الجوائز في العلوم الفرنسية عن عمله، استدعى القيصر Heinrich Rubens، أحد المتخصصين البارزين في مجال الإشعاع الألماني، وأَجبره على إهدار أسابيع من وقته في محاولة لإنتاج الأشعة السينية قبل الاستسلام للعلماء الفرنسيين بإذلال.

دفع كل هذا اللغط أحد علماء الفيزياء الأميركيين، وهو روبرت وود، إلى زيارة مختبر بلوندلوت في نانسي أثناء زيارته لأوروبا لحضور مؤتمر. كان بلوندلوت سعيدًا بزيارة العالم الأمريكي له، فعرض عليه أحدث الإنجازات التي حققها؛ لكن وود كان يخطط لشيء مختلف.

إحدى أغرب خصائص الأشعة السينية هي انكسارها من خلال موشور الألومنيوم مثلما ينكسر الضوء من خلال المنشور الزجاجي، مما ينتج مجموعة من أنماط الأشعة على الورقة. أطلع بلوندلوت ضيفه على ذلك وقرأ له قياسات سقوط أنماط الطيف. ثم سأله وود عما إذا كان يرغب في تكرار التجربة، فوافق بلوندلوت على ذلك بسهولة، حيث قدم له وود عرضًا علميًا مناسبًا - أو بعبارة أخرى، خدعه بخدعة مضحكة جدًا. في الظلام، دون أن يلاحظ بلوندلوت، مد وود يده إلى جانب

الموشور ومنع التجربة من الاكتمال. لم يكن بلوندلوت يعلم بأن أجهزته تعاني من حاجز يمنعها من إتمام مهمتها، فاستمر في قراءة نتائج تجربة الطيف الذي لم يكن له وجود في تلك اللحظة.

لخص وود النتائج التي توصل إليها في رسالة شريرة مهذبة إلى مجلة العلوم المحترمة Nature، في خريف عام 1904: "بعد قضاء ثلاث ساعات أو أكثر في مشاهدة تجارب مختلفة، لا أستطيع الجزم بعدم وجود الأشعة المفترضة فقط، لكني غادرت المكان مع قناعة راسخة بأن العالم المسؤول مصاب بمرض ذهني يجعله يرى الكثير من الخيالات".

اختفى الاهتمام بالأشعة N، على الرغم من استمرار بلوندلوت وصحبه المخلصين في محاولة إثبات وجود الأشعة وأنهم لم يكرسوا كل ذلك الوقت لدراسة السراب.

قصص كل من polywater وN-ray هي قصص تحذيرية حول كيف يمكن للعلماء أن يقعوا فريسة للانحياز للرأي العام الذي يؤثر علينا جميعًا. كما أنها قصص علمية مثبتة تاريخيًا مئة في المئة لحرج وقع فيه العديد من العلماء البارزين بسبب الهرج الذي طالهم من زملائهم العلماء الآخرين الذين تمسكوا بالماضي وعلومه. وفي غضون سنوات قليلة، توضح للجميع أن البوليوتر هو مجرد وهم، وأن الشيء الذي اطلقوا عليه اسم الوهم كان حقيقة لا يمكن نكرانها، وهو الأشعة السينية.

ولكن، إذا كانت هذه الأمثلة خالية من الأذى، لم تتسبب في إيذاء أحد، فقد تركت الكثير من الاكتشافات الأخرى علماءها مصابين بأشياء أخطر من السمعة العلمية المهترئة، مثل اكتشافات العالم فرانسس غالتون.

كان غالتون عبقريًا بلا مجال للشك، لكنه كان شخصية مجنونة غريبة

الأطوار، ذا أفكار رهيبة أدت لنتائج وخيمة. وغالتون هذا هو الأخ غير الشقيق لتشارلز دارون، الذي أحرز نتائج رائعة في مجال علم الإحصاء العلمي بما فيه اختراعه لمبدأ الروابط المتبادلة وإسهاماته في مجالات شتى من علم النيازك إلى علم الأرصاد الجوية التي لا تزال تساعدنا اليوم، كدورها في رسم خرائط الطقس اليومية، وأخيرًا وليس آخرًا إسهاماته في تحديد هوية الأشخاص بالاعتماد على بصمات الأصابع.

كان مهووسًا بقياس الأشياء وتطبيق المبادئ العلمية على كل شيء يقابله، وتتضمن رسالته التي نشرتها مجلة Nature تقديرًا لإجمالي عدد ضربات الفرشاة في لوحة (بعد أن شعر بالملل في جلسات طويلة لرسمه)، ومقالًا آخر في عام 1906 بعنوان "قص الكعكة المستديرة حسب المبادئ العلمية" (باختصار: لا تقطع الكعكة بشكل زوايا، بل اقطع شرائح مستقيمة عبر القطر في الوسط، حتى تتمكن من دفع النصفين المتبقيين معًا لمنع جفافهما). ولكن هوسه هذا دفعه إلى ما هو أبعد من سخافات شاي الساعة الرابعة عصرًا حسب التقاليد البريطانية.

إذ قام في أحد تحقيقاته الأكثر شهرة بجولة في البلدات والمدن البريطانية في محاولة لإنشاء خريطة للأماكن الأكثر جاذبية. كان يجلس في مكان عام ويستخدم جهازًا مخبأً في جيبه يسمى "pricker" - وهو جهاز صغير مزود بإبرة، وتقوم الإبرة بوخز ورقة في كل مرة يشاهد فيها العالم امرأة تثير غرائزه الجنسية. وكان المنتج النهائي لهذا تقديم "خريطة الجمال في البلاد" للناس، كما رسم خرائط الطقس فيما سبق، والتي كشفت أن النساء في لندن كنّ الأكثر جاذبية، بينما كانت النساء في أبردين الأقل جاذبية. على الأقل، وفقًا لذوق خبير إحصائي يدون بصراحة ملاحظاته عن المرأة، والتي ربما لا تكون أكثر التدابير موضوعية.

كان هذا المزيج نفسه من الصفات - إجبارًا على قياس الصفات الإنسانية

والافتقار التام إلى احترام الإنسانية الفعلية للأشخاص الذين يتم قياسهم - هو الذي دفع غالتون إلى إسهامه الأكثر شهرة في عالم العلوم: وهو دعوته إلى تحسين النسل. كان يعتقد اعتقادا راسخا أن العبقرية موروثة تماما، وأن نجاح الشخص جاء من طبيعته الداخلية وحدها، بدلًا من الثروة أو الظروف. ولذا فقد كان يعتقد أنه ينبغي تشجيع الزيجات بين الأشخاص الذين يعتبرون مناسبين للتكاثر، ربما بمكافآت مالية، من أجل تحسين مخزون الجنس البشري؛ وأن أولئك الذين كانوا غير مرغوب فيهم، مثل ضعيف التفكير أو الفقير، ينبغي منعهم من التكاثر بشدة.

في أوائل القرن العشرين، كان هناك استيعاب عالمي لحركة تحسين النسل، مع اعتبار غالتون (الذي قارب نهاية حياته) بطلًا من أبطال العصر. أقرت 31 ولاية أمريكية قوانين التعقيم الإجباري، وبحلول الوقت الذي تم فيه إلغاؤه في الستينيات، تم تعقيم أكثر من 60.000 شخص في مؤسسات عقلية في الولايات المتحدة، معظمهم من النساء. وتم تعقيم عدد مماثل في جهود السويد لتعزيز "النظافة العرقية"، حيث لم يتم إلغاء القانون حتى عام 1976. وبالطبع في ألمانيا النازية... حسنًا، أنت تعرف ما حدث. مما لا شك فيه أن غالتون كان سيصاب بالرعب لو عاش فترة طويلة بما يكفي لرؤية ما جرى باسم "العلم" الذي ابتكره، لكن هذا لا يجعل أفكاره الأصلية أقل خطأ من تطبيقاتها. وهناك Trofim Lysenko، العالم الزراعي السوفياتي الذي ساهمت أفكاره السيئة بشكل عميق في المجاعة في كل من الاتحاد السوفيتي والصين (كما ذكرنا في الفصل 3). وعلى عكس جالتون، لم يكن لدى ليسسينكو أي نظرية علمية بل كان مخطئًا بشكل غير عادي. جاء ليسينكو من عائلة فقيرة، لكنه سرعان ما تقدّم في صفوف الهندسة الزراعية السوفيتية بفضل بعض النجاحات المبكرة في تحفيز البذور على النمو دون الحاجة إلى زراعتها في الشتاء البارد. أصبح في نهاية المطاف مفضلًا لدى ستالين، الذي منحه قوة كافية لبدء فرض أفكاره على بقية المجتمع العلمي السوفياتي. تلك الأفكار لم تكن صحيحة - لم

تكن قريبة من الصحة بأي شكل - لكنها كانت تتمتع بميزة الجاذبية إلى التحيزات الإيديولوجية لأصحاب الحكم الشيوعي. على الرغم من أن علم الوراثة كان راسخًا إلى حد كبير في ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أن ليسينكو رفضه تمامًا، لا بل وأنكر وجود جينات، على أساس أن هذا يعزز رؤية فردية للعالم. اقترح علم الوراثة أن سلوكيات الكائنات الحية كانت ثابتة ولا تتغير، بينما وجد ليسينكو أن تغيير البيئة يمكن أن يحسن الكائن الحي وينقل تلك التحسينات إلى نسله، ويمكن أن يؤدي إلى تحول نوع من المحاصيل إلى نوع آخر، بالنظر إلى البيئة المناسبة. ووجه تعليمات للمزارعين بأنه ينبغي زراعة صفوف المحاصيل بشكل أفضل، لأن النباتات من نفس "الفئة" لن تتنافس مع بعضها البعض على الموارد.

لم يكن أي من استنتاجاته هذه صحيحًا، كما أنها كانت تبدو للآخرين زائفة تمامًا، وسرعان ما بدت نتائجها السيئة لغير المختصين حين ماتت أولى المحاصيل التي زرعوها حسب توجيهاته. لكن هذا لم يمنعه من المحافظة على قوته وسلطته السياسية والتغلب على نقاده. إلى أن غرق الآلاف من علماء النبات السوفييت في مستنقع قذارته، وانتهى أمر الآخرين الذين رفضوا توجيهاته إلى السجن أو حتى القتل، حين يرفضون التخلي عما تعلموه في صفوف علم الوراثة النباتية واعتماد نظرياته. ولم يتمكن العلماء القلائل الباقون على علومهم من تغيير رأي السلطة فيه حتى أُجبر خروتشوف على التنازل عن زمام السلطة عام 1964، فأقنع هؤلاء العلماء زعماء الحزب بغباء ليسينكو وجهله. أدى تنفيذ أوامره إلى موت الملايين، وتراجع البيولوجيا السوفييتية عقودًا إلى الخلف.

ولكن، إذا نفذت أوامر ونظريات ليسينكو بسبب انتمائه للحزب الشيوعي وسلطة الحزب المتغلغلة في كل مكان، فإن قصتنا التالية مكنتها يد وحش آخر، ألا وهو الوحش الرأسمالي. إنها قصة الرجل الذي لم يرتكب خطأ مدمرًا واحدًا، بل

خطأين مدمرين لم يحدث مثلهما في تاريخ العلوم، وقد فعل ذلك خلال عقد واحد من الزمن لا أكثر.

القائد الضال

توفي المهندس العبقري والكيميائي والمخترع توماس ميدغلي الابن عام 1944 في منزله وعلى فراشه وهو بعمر الخامسة والخمسين. إنه الرجل الذي ساعدت اكتشافاته على تشكيل العالم كما نراه اليوم من حولنا إلى حدّ بعيد.

الوفاة في الفراش تبدو نهاية هادئة كما يعتقد الجميع، لكن هذا لم يجرِ في حالته، فقد كان ميدغلي مشلولًا ولا يستطيع النهوض من سريره والعودة إليه إلا بمساعدة الآخرين مما كان يشعره بالإهانة، فقام باختراع جهاز من الحبال والأربطة لسحبه من الفراش يوميًا في الصباح ووضعه فيه مساء. وقد سار الأمر على ما يرام لفترة طويلة إلى أن حل نوفمبر وحصل خطأ ما في الجهاز، مما أدى لالتفاف الحبال حول عنقه، فمات مشنوقًا بحبال خلاصه ذاتها. يا لسخرية القدر، كانت نهايته شنيعة، لكنها ليست سبب إدراجي لاسمه في هذا الكتاب. ووقوعه فريسة لجهاز اخترعه بنفسه لا يقترب حتى من شناعة أسوأ خطأين في حياته.

وكي أكون صادقًا، أعتقد أنه الشخص الذي يجب إدراجه في كتب التاريخ على أنه أكثر شخص مدمر عبر التاريخ.

توماس ميدغلي الابن 1889- 1944

كان ميدغلي رجلًا هادئًا ذكيًا قضى معظم حياته في كولومبس في ولاية أوهايو. وهو ينحدر من عائلة من المخترعين، فلم يحصل في حياته على تعليم جامعي في الكيمياء، لكنه تمكن من إيجاد حلول لكثير من المشكلات الكيميائية العويصة عن طريق الملاحظة المستمرة والمنظمة للمشكلة وتطبيق كافة الحلول الممكنة حتى يتم إصلاح الخلل.

كان يعمل خلال أول عقدين من القرن العشرين على حل مشكلة في محرك السيارة، إذ أن محركات السيارات كانت تأن وتتوقف عن العمل كلما تعرضت السيارات للضغط، مما أدى لعزوف الناس عنها وانخفاض كفاءة الوقود. وكانت هذه الأخيرة معضلة كبيرة لأن الناس في ذلك الوقت كانوا يعتقدون أن الوقود الأحفوري

سينفد عاجلًا أم آجلًا.

اشتبه ميدغلي ومدير عمله تشارلز كيترنج في أن ذلك العطل ناتج عن عدم احتراق الوقود بشكل متساو في جميع أنحاء حجرة الاحتراق، بدل التفكير بأن الوقود لا يتوزع بشكل متساو في أرجاء المحرك، فراحا يبحثان عما يمكنهما إضافته للتخفيف من تلك الأعراض. فكر الاثنان أولًا، ولأسباب لا تمت للموضوع بصلة، أن إضافة اللون الأحمر ستحل المشكلة، فخرج ميدغلي لإحضار بعض من الطلاء الأحمر لكنه لم يجد أيًا منه في المتجر، لكن صاحب المتجر أقنعه بشراء اليود بدلًا من الطلاء لأن اليود أحمر اللون، كما أنه يذوب بشكل جيد في الزيت، فقبل ميدغلي اقتراح صاحب المتجر. ثم أحضر اليود وأضافه إلى البترول في السيارة، فنجح الأمر.

كانت ضربة حظ صافية. لكنهما أثبتا للعالم بأنهما كانا يسيران على الدرب الصحيح مع أن اليود نفسه ليس مادة عملية. فهو غالي الثمن وصعب الإنتاج، لكن عمل المحرك المبهر دفع الناس لاستخدامه. ومع ذلك، فقد جرب الاثنان في السنوات اللاحقة (وصدّق ما سأخبرك به الآن) ما بين 144 و33000 مادة مختلفة لإضافتها إلى الوقود. وإذا سألت نفسك عن سبب عدم تأكدنا من عدد المواد التي استخدماها في أبحاثهما فذلك لأن الشركة الداعمة لهما تتحفظ على أبحاثهما لأغراض جنائية.

استقر بهما الأمر أخيرًا على استخدام الرصاص السائل، وهو سمّ زعاف يسبب ارتفاع ضغط الدم ومشاكل في الكلى وأضرارًا بليغة في الدماغ واختلالات أخرى، كما أنه يؤثر على الأطفال بشكل كبير.

تُروَى قصة ميدغلي عادة على أنها قصة الشخص الذي وقع ضحية المضاعفات غير المرغوب فيها والنتائج غير المقصودة للبحث العلمي.. لكن القصة ليست هكذا في الحقيقة. لقد سمم ميدغلي أجيالًا من البشر في أنحاء الأرض جميعًا

مع أن ذلك لم يكن هدفه. كما أن الشركات المنتجة للوقود المدعم بالرصاص لا تقرّ بما اقترفته ولا تتأسف على الضحايا الذين قتلهم ذلك الوقود.

لم تكن طبيعة الرصاص السامة اكتشافًا جديدًا، فقد كانت معروفة منذ آلاف السنين. وقبل أن تبدأ محطات الوقود الأولى في تزويد السيارات بالوقود الجديد في أوائل عام 1923، حذر خبراء طبيون من أن استخدام الرصاص فكرة رهيبة. وكتب ويليام كلارك من دائرة الصحة العامة الأمريكية في رسالة إلى رؤسائه مفادها أن استخدام الرصاص رباعي الإيثيل يمثل «خطرًا مرعبًا على الصحة العامة» وتوقع أنه «في الطرق المزدحمة، من المحتمل جدًا أن يترسب غبار أكسيد الرصاص في الجزء السفلي من طبقات الإسمنت كما جرى تمامًا. وفي تنبؤ مزعج آخر وأكثر دقة، توقع أحد كبار علماء السموم في عام 1924 أن «تطور التسمم بالرصاص سيحدث على نحو مرعب لأن البنزين المزوّد بالرصاص سيدخل نطاق الاستخدام العالمي قبل أن يتنبّه الجمهور والحكومة إلى هذا الوضع».

في الحقيقة.. لم يكن الرصاص هو الحل الوحيد المتاح. في السنوات التي تلت استخدام اليود، توصل فريق ميدغلي إلى الكثير من المواد الفعالة، وكانت إحداها مثيرة للإعجاب في بساطتها، ألا وهي الإيثانول كوقود قابل للتطبيق في حد ذاته، فقد كان الإيثانول كحولًا جيدًا لتعقيم الجروح الجسدية وتطهير الجروح العاطفية مؤقتًا، كما أنه يعمل بشكل جيد أيضًا كمضاد لتعطل المحركات - مع ميزة إضافية تتمثل في أنه سهل الاستخدام ورخيص بشكل لا يصدق ويمكن إنتاجه على نطاق واسع بكل سهولة. دعم فريق ميدغلي استخدام الإيثانول كحل مثالي لمشكلة طرق المحرك لسنوات طويلة، فلماذا إذًا تخلوا عنه لصالح مادة عرف الجميع بأنها سم زعاف؟ سوف تصدم عندما تعلم أن السبب هو المال.

المشكلة أن الإيثانول كان رخيصًا وسهل الإنتاج.. والأهم من ذلك، لم يكن

بحاجة لبراءة اختراع. تم شراء شركة تشارلز كيترينج، Delco، من قبل شركة جنرال موتورز العملاقة في عام 1918، وكان هناك ضغط على فريق العلماء فيها للبحث عن طرق لتوليد المال الكثير، بدلًا من مجرد حفنة من الدولارات كل عام. والإيثانول - مادة يسهل صنعها حتى أن الناس قادرون على صنعه منزليًا، ولا أمل في تحويله إلى منتج مرخص باسمهم، فاختاروا الاعتماد على الرصاص ليصنعوه بأنفسهم ويرخصوه لأنفسهم ويزودوا به الوقود ويربحوا كل ما هم قادرون على ربحه.

في حال كنت تعتقد أن توماس ميدغلي المسكين كان ببساطة مخترعًا غير مؤذٍ أسيئ استخدام اختراعاته من قبل بعض الأثرياء البغيضين، فاعتقادك خاطئ. كان هو في الواقع من اقترح ودافع بقوة لاستخدام الرصاص. حتى أنه حسب جميع الحسابات، وقرر أنهم قادرون على إضافة ثلاثة سنتات لسعر غالون الوقود، وتوقع أن يتمكنوا من الاستحواذ على 20 في المائة من سوق البنزين بحملة إعلانية قوية. على هذا النحو، مثل الكثير من الأشياء، كان مخطئًا بسبب التقليل من شأن تأثير عمله: خلال عقد من الزمان، كان البنزين المحتوي على الرصاص رباعي الإيثيل - تحت اسم العلامة التجارية إيثيل، دون ذكر استخدام الرصاص، قد استحوذ على 80 في المائة من سوق الولايات المتحدة. أصرت شركة جنرال موتورز وميدغلي على أن وقودهم هو اكثر أنواع الوقود أمانًا طوال الوقت، على الرغم من الكثير مما قد نسمّيه "علامات تحذير". علامات تحذير بأضواء النيون الضخمة، كما جرى في فبراير 19، عندما تم طرح Ethyl لأول مرة للبيع، قضى ميدغلي بنفسه شهرًا كاملًا في الفراش بسبب سوء الحالة الصحية الناتج عن أبخرة الرصاص. أو مثل حقيقة أن العمال في المصانع التي صنعت الوقود ماتوا واحدًا بعد الآخر. توفي خمسة عمال بسبب التسمم بالرصاص في مصنع بايواي في نيو جيرسي، وتم نقل 35 منهم إلى المستشفى، وأصيب الكثيرون منهم بالآثار الجانبية للرصاص - "يصبح المريض مهووسًا بعنف، ويصرخ، ويقفز من السرير، ويحطم الأثاث، ويتصرف بهذيان. توفي ستة عمال في

مصنع نيوجيرزي ديب ووتر، حيث كانت الهلوسة الناتجة عن الرصاص شائعة جدًا لدرجة أن العمال أطلقوا عليها اسم "بيت الفراشات".

وصلت أخبار الوفيات إلى الصفحة الأولى لصحيفة نيويورك تايمز. ولمواجهة أزمة العلاقات العامة تلك، تم تعليق بيع وقود الإيثيل، وأنشأ المدعي العام الأمريكي لجنة لتقييم مدى أمان المادة على عجل.

وبعد ذلك، تمكنت الشركات المنتجة للإيثيل، كل من شركة وقود الإيثيل وجنرال موتورز وستاندرد أويل وشركة دوبونت الكيميائية من تحويل أزمتهم تلك لانتصار منقطع النظير، بسبب تلاعبهم بكل ما يمكن لك أن تتصوره.. في واقعة يمكن لنا تسميتها بأهم مسودة ونموذج لفساد الشركات الصناعية واستحواذها على القرن العشرين.

لقد كان مثالًا كلاسيكيًا على فساد المسؤولين الذين أجابوا على السؤال الخطأ تمامًا. كان تركيز اهتمام الجمهور على الوفيات في مرحلة التصنيع قويًا للغاية، لكنها كانت القضية الوحيدة التي أصدرتها لجنة الأطباء الشرعيين العامة بالفعل. واقتناعا منها بتأكيدات الشركات بأن تدابير السلامة الإضافية ستتخذ في مصانعها - قال ميدغلي في شهادته عن الإيثيل: "ليس سمًا خطيرًا بقدر ما هو مادة مساعدة مع الوقود". فقررت اللجنة عدم حظر تصنيعه. أما السؤال الأكبر حول تأثيره على الناس الذين يتنشقون الدخان فلم يجد إجابة قط. كان هذا، حسب التقاليد التجارية القديمة، مشروعًا للبحث في المستقبل. لكن قرار اللجنة طرح على الجمهور والسياسيين ومنح البنزين المحتوي على الرصاص ترخيصًا قانونيًا تمامًا.

في حال كنت تتساءل عن هذا "البحث المستقبلي"، فلا بد أن تعرف أن الشركات كولته بالفعل على مدى العقود الأربعة التالية، الشركات ذاتها التي قامت

بتصنيع البنزين المحتوي على الرصاص، أو تم تنفيذه من قبل موظفيها. خرج الباحثون علينا بالنتائج بعد أربعة عقود ليقولوا أن النتائج غير حاسمة، وأن خطر المادة لم يثبت بعد.. يا لها من أخبار! يا لها من أخبار سارّة للشركة المنتجة للوقود والممولة للبحث! سيتمكنون بأثر ذلك من مواصلة تصنيع ذلك الوقود الحريري اللامع وتحقيق أحلام الجميع.

انهارت جميع الحواجز والصعوبات ووصلت طلبيات الإنتاج إلى ما لانهاية لأن البنزين المزود بالرصاص حصل على جميع التراخيص اللازمة. ولم يتوقف الأمر عند محركات السيارات فحسب، بل مكّن أيضًا من تطوير جيل جديد بالكامل من المحركات الأكثر قوة، والتي حولت السيارات من عربات غير عملية إلى مركبات سريعة وسلسة وأنيقة. لعبت حملة إعلانية قوية على مخاوف المشترين من امتلاك سيارة بطيئة إذا لم تكن من السيارات التي تعتمد على الوقود المزوّد بالرصاص. وحصلت أنواع الوقود الأخرى على أقل قدر ممكن من المشترين لأنها كانت تظهر في الحملات الإعلانية المضادة كمنتج دون المستوى المطلوب. وعندما أثيرت مخاوف صحية في بلدان أخرى بشأن إدخال الوقود المزوّد بالرصاص هناك، استخدم المناوئون القبول الأمريكي العريض لذلك الوقود لتخفيف تلك المخاوف.

ثم قام المدّعي العام، هيو كومينغ، بالتواصل مع نظرائه في الخارج لإخبارهم بمدى أمان الوقود، ودعم كلامه ببعض الحقائق العلمية المريعة، والرغبة الجادة في كسب المال، وحقيقة أن السيارات القوية باردة وتتيح لك السفر إلى أبعد من ذلك، فأصبح الوقود المحتوي على الرصاص هو المعيار في جميع أنحاء العالم. وبفضل التقدم في استخراج النفط، لم يحصل النقص المفترض في الوقود، والذي دفع الشركات في البداية للعمل على إيجاد مادة مساعدة في المقام الأول، فأدى استخدام الرصاص الحتمي في الوقود إلى تصنيع محركات أكثر قوة.

وبدأ عصر السيارات هنا وفي جميع أنحاء العالم، وبدأ المزيد والمزيد من الناس يتنفسون أبخرة الرصاص. مشكلة الرصاص هو أنه لا يتلاشى، بل يتراكم بلا نهاية. وفي حين أن بعض السموم تصبح أقل خطورة مع مرور الوقت، يتراكم الرصاص؛ في الهواء، وفي التربة وفي أجسام النباتات والحيوانات والبشر.

في عام 1983، خلص تقرير صادر عن الهيئة الملكية البريطانية للتلوث البيئي إلى أنه "من المشكوك فيه أن ينجو أي جزء من سطح الأرض من التلوث بالرصاص". وتتعرض أجساد الأطفال للخطر بشكل خاص، لأنها تمتص خمسة أضعاف كمية الرصاص التي تمتصها أجسام البالغين. وفي الولايات المتحدة وحدها، يقدر الباحثون وجود مستويات سامة من الرصاص في دماء سبعين مليون طفل في العقود بين 1920 و1970.

تقدر منظمة الصحة العالمية أن مئات الآلاف من الناس يموتون سنويًا في جميع أنحاء العالم بسبب أمراض التسمم بالرصاص، مثل أمراض القلب. وبالإضافة إلى الآثار الصحية الجسدية، يؤدي الرصاص أيضًا إلى الإضرار بنمو الأطفال العصبي - فهو يسبب انخفاضًا في مستويات معدل الذكاء بين السكان المتضررين، ويقدر أنه سبب أكثر من 12 في المائة من الإعاقات الذهنية التنموية في جميع أنحاء العالم.

كما أنه يسبب مشاكل سلوكية، مثل السلوك العدواني ضد للمجتمع، والذي يؤدي إلى واحدة من أكثر العواقب المحتملة الكوابيس لعمل توماس ميدغلي الابن. من المهم الإشارة إلى أن هذه، حتى الآن، مجرد فرضية غير مثبتة، ولكن أشار عدد من الباحثين إلى أن الارتفاع الهائل في مستويات الجريمة الذي حدث في معظم أنحاء العالم في فترة ما بعد الحرب يتبع انتشار التلوث بالرصاص. إن مستويات الجريمة التي أدت إلى العديد من افتراضاتنا الثقافية غير الرسمية - المراهقون الوحشيون والجحيم في المدينة وكل ما كان يتحدث عنه في التسعينات من "الحيوانات المفترسة

الفائقة" - هي في الواقع شذوذ تاريخي، ومضة عالمية يصعب تفسيرها. ولكن في بلد تلو الآخر، وبغض النظر عن الظروف الاجتماعية أو الاتجاه السياسي، بدأت الجريمة في الارتفاع بعد عقدين من إدخال البنزين المحتوي على الرصاص هناك - وبعبارة أخرى، عندما وصل أول أطفال تعرضوا له بكميات كبيرة إلى سن المراهقة وفي أوائل العشرينات. وينطبق الارتباط في الاتجاه المعاكس أيضًا: شهدت العقود القليلة الماضية انخفاضًا ثابتًا في جرائم العنف في أنحاء كثيرة من العالم، ومرة أخرى بغض النظر عن السياسات الاجتماعية التي قد تنفذها كل دولة. لكن يبدو أن الانخفاض في الجريمة يحدث بعد حوالي عقدين من الزمن من حظر استخدام الرصاص في البنزين - يحدث ذلك عاجلًا في الأماكن التي حظرت الرصاص في وقت مبكر، وبسرعة أكبر في الأماكن التي توقفت عن استخدامها فجأة بدلًا من التخلص التدريجي منها.

نكرّر أن العلاقة بين الأمرين ليست مؤكدة، وهذا لا يزال مجرد تكهنات. نظرًا للقضايا الخطيرة التي أتناولها هنا، لا يمكننا أبدًا تلويث عدد كبير من الأطفال بالرصاص ثم انتظار عشرين عامًا لمعرفة عدد الجرائم التي ارتكبوها، وقد لا يتم إثبات اتهامي للرصاص أبدًا بطريقة أو بأخرى. لكن بالإضافة إلى ملايين الموتى، وحقيقة أننا قمنا بتلويث كل ركن من أركان الكوكب، ومعرفة أن أجيالًا متعددة من الأطفال قد سممت دمائهم التي أثرت على ذكائهم (تلك هي الأجيال التي كانت مسؤولةً عن العالم في السنوات الأربعين الأخيرة)، واحتمال أننا قد تسببنا في موجة جريمة عالمية استمرت لعقود وأعادت تشكيل نظرتنا إلى المجتمع تمامًا، وذلك ببساطة لأن توماس ميدغلي أراد أن يزيد ثلاثة سنتات على سعر الجالون. يا لها من مزحة طويلة جدًا ومظلمة جدًا.

أما ميدغلي نفسه، فلم يبقَ طويلًا في المجال نفسه بعد اختراع البنزين المزوّد

بالرصاص. إذ انتقل بسرعة إلى مجالات أخرى للبحث والعمل والاكتشاف، وكانت الأيام تخبئ له خطأً كارثيًا ثانيًا.

على عكس حال البحث عن وقود أفضل، والذي استمر لسنوات، فقد جاء هذا الاختراع سريعًا. في الواقع، وفقًا لأسطورة الشركات، استغرق ميدغلي ثلاثة أيام في البحث قبل أن يجد حلًا للمشكلة الجديدة. وخلافًا للرصاص، فإن هذه الحالة هي بالفعل حالة من العواقب غير المقصودة: لم يتم تجاهل أي تحذيرات وخيمة أو مخاطر التستر. لقد كان خطأه مجرد نتيجة لافتراض مسبق في غياب أي دليل، أن كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت المشكلة الجديدة التي واجهها ميدغلي في هذه المرة هي تبريد الأشياء وخفض حرارتها. جرى هذا في عام 1928 بعد فترة وجيزة من بدء عصر التبريد الميكانيكي للأشياء، وقد كانت تجارة الثلج قبل ذلك رائجة وذات مردود كبير لكل من عمل بها، حيث كانوا يحملون قطعًا كبيرة من الجليد من أبرد المناطق في العالم ويشحنونها بحرًا ليتمكن الناس الذين يعيشون في المناطق الدافئة والحارة من تبريد الأطعمة وحفظها. واجه ميدغلي مشكلة غلاء ثمن المواد المستعملة للتبريد وخطورة العبث بها. فقد كانت جميع المواد قابلة للاشتعال السريع أو سامة. وقد جرى بالفعل أن توفي أكثر من مائة شخص في مستشفى في كليفلاند بسبب تسرب مادة كلوريد الميثيل من إحدى الثلاجات بعد أن قرر ميدغلي الشروع في بحث هذا الموضوع في عام واحد.

أدت جميع هذه الحوادث والمخاطر إلى إحجام الناس عمومًا عن شراء تلك الثلاجات واعتمادها في منازلهم. وكان هدف ميدغلي هو البحث عن مادة رخيصة غير قابلة للاشتعال وغير سامة لصناعة ثلاجات مناسبة. قامت شركة جنرال موتور في نفس الوقت بشراء شركة تبريد وأطلقت عليها اسمًا تجاريًا وعرفت أنها لن تلاقي

النجاح إلا إن وجدت حلًا لهذه المشكلات.

كان ميدغلي أكثر حذرًا في تلك الآونة بعد أن قضى أكثر من عقد من الزمن في العمل في المخابر الكيميائية. فدرس الخصائص الكيميائية للثلاجات المعروفة وقرر أن مادة الفلورين هي المادة المناسبة، إذا خلطها مع الكربون للحد من مخاطرها السامة. قام بالفعل بما خطط له وشرع مع فريقه في إنتاج المادة للفحص، والتي نسميها اليوم بمادة: الفريون.

عرض ميدغلي خصائص مادته الجديدة وسلامتها أمام الجمعية الكيميائية الأمريكية في أحد اللقاءات الدورية، وقام باستنشاق كمية منها بشكل مسرحي ثم نفث ما استنشقه على شمعة مشتعلة فأطفأها. أكد ميدغلي في عرضه المسرحي هذا أمام كبار العلماء في علم الكيمياء بأن اختراعه الجديد غير سام وغير قابل للاشتعال. كان العرض رائعًا بالفعل، لأنه لم يكتشف مادة جديدة فقط، بل اكتشف مجموعة منها، تشترك في الخصائص. وأصبحت تلك المواد معروفة فيما بعد باسم كربونات الكلوروفلور.

لسوء الحظ، لم يكن أحد في ذلك الوقت على دراية أو علم بوجود الشيء الذي ندعوه اليوم بطبقة الأوزون، لم يكن أحد في الثلاثينيات من القرن الماضي يعي أهمية جزيئات الأوكسجين الموجودة في تلك الطبقة الرقيقة والدور الذي تلعبه لحماية سطح الأرض من أشعة الشمس ما فوق البنفسجية الضارة. ولهذا.. لم يكن لهم أن يعرفوا أن تلك المادة الجديدة معدومة الضرر على مستوى سطح البحر ستصبح اكثر مادة ضارة للكرة الأرضية حين ترتفع لتصل إلى الغلاف الجوي العلوي وتلتقي بالأشعة الفوق بنفسجية لتقوم هذه الأخيرة بتفكيكها إلى عناصرها الرئيسية، وأن أحد هذه العناصر، وهو الكلورين بالتحديد، سيدمر جزيئات الأوزون وسيحرم الكوكب من غلافه الذي يحميه.

وكي نكون منصفين، لم يتوقعوا أن يكون لتلك المواد الكيميائية الجديدة تطبيقات شتى، وبعيدًا تمامًا عن عالم التبريد. فقد أدرك العاملون في مجال التطبيقات الكيميائية أن لهذه المواد طيفًا واسعًا من الفعالية، وعلى وجه الخصوص كدافع للغازات في صناعات الرذاذ. ولسخرية القدر، استخدمت المواد كثيرًا خلال الحرب العالمية الثانية لرش المبيدات الحشرية، فأضافت لخليط المواد الغازية السامة التي أطلقتها الحرب حول العالم، مما أدى لولادة الملايين من الناس ذوي الإعاقات في السنوات اللاحقة، في كابوس ضرب ما لا حصر له من الناس فيما عرف فيما بعد باسم كارثة DDT.

عرفت صناعات الرذاذ والبخاخات بعد نهاية الحرب العالمية الثانية انطلاقة لم يشهدها التاريخ لصناعة بعينها، فقد انتشر استعمال البخاخات من مجال صناعة الطلاء إلى مزيل العرق. شقّت جميع هذه الأبخرة طريقها إلى الغلاف الجوي وبدأت تأكل غلافنا الجوي رويدًا رويدًا.

أدركت البشرية لحسن الحظ خطر هذه المواد قبل أن تتسبب بمقتل الناس الجماعي.. يا لنا من جنس ذكي ومحظوظ!! اكتشف ثقب الأوزون في سبعينيات القرن الماضي وتم ربطه مباشرة بتلك المواد المتطايرة، مع إداك الناس أيضًا لخطر الرصاص في الوقود، ففكر الجميع بالعواقب الوخيمة لما اقترفته أيدينا، وأدركوا أن البشر سيتعرضون لكميات حارقة من الأشعة ما فوق البنفسجية إذا ما استمر ثقب الأوزون في الاتساع على نفس المعدل، وأن مرض السرطان سينتشر كالنار في الهشيم إلى جانب العمى التام لشعوب بأكملها.

وهكذا.. بدأت الحكومات حول العالم ما بين السبعينيات والتسعينيات بمنع وحظر استخدام المواد التي اخترعها ميدغلي إلى أن باتت المواد ممنوعة تمامًا في جميع أنحاء العالم مع اقتراب نهاية القرن الماضي. ورغم ذلك، ما زلنا نواجه وجود

الكميات القاتلة من الرصاص حولنا أنّى نظرنا في الطبيعة، لأنه لا يتحلل ولا يتبخر ولا يختفي، كما أن تنظيفه والتخلص منه شبه مستحيل. لكن ما يطمئننا اليوم هو أن الأطفال لا يتنشقونه كما جرى للأطفال منذ سبعين عامًا، وأن مستويات الرصاص في دماء البشر اليوم لا تتجاوز الحد المتعارف عليه. أما طبقة الأوزون، فهي تشفي نفسها بنفسها ببطء شديد، مع التأكيد على حظر تلك المواد وعدم استعمالها مجددًا. وإذا ما سارت الأمور على ما يرام، فإنها ستعود لسابق عهدها ما قبل ميدغلي في منتصف القرن الحادي والعشرين.

أما سمعته كمخترع، فهو يحظى اليوم بلقب "الرجل الذي تسبب وحده بكوارث بيئية عدة"، كما وصفته مجلة نيوساينتست (العالِم الجديد). أو كما وصفه المؤرخ ج. ر. ماكنيل في كتابه "شيء جديد تحت الشمس" بأنه الرجل الذي كان لتأثيره وحده على الغلاف الجوي أثر أكبر من أي منظومة حية في تاريخ الكرة الأرضية.

لكنه ساهم أيضًا في تشكيل العالم من حولنا اليوم، عالمنا الحديث هذا، ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه ذلك. فقد أدت الحلول التي وجدها للسيارات لأن تتحول السيارات إلى وسيلة النقل الشخصية المعتمدة في كثير من بقاع الأرض، وعدم التفكير بها كأداة فقط، بل كرمز للشخصية والفردية. كما لم تدفع اختراعاته بالثلاجات إلى مطبخ كل واحد منا فحسب، بل أدت لاختراع المكيفات التي ساعدت على إنشاء مدن وبنائها في أماكن صحراوية لا يعيش فيها نبات ولا طير. كما ساعد دمج اختراعيه مع بعضهما على جعل قيادة السيارة ممكنة لوقت أطول في أسوأ الأماكن مناخيًا حين تزود السيارة بمكيف للهواء، لا بل وأصبحت قيادة السيارة أمرًا مرحًا يدعو للبهجة، بلا مشاكل على الطريق، وبلا حرارة خانقة. وإذا فكرنا جيدًا، لوجدنا أن قطاعات كبيرة من غرب الولايات المتحدة ومدن الشرق الأوسط لم تكن

لتوجد لولا اختراعات توماس ميدغلي.

كما أسهم هذان الاختراعان في تغيير الممارسات الحضارية في المدن، فعلى وجه المثال، أدى اختراع المكيفات إلى انتشار صالات السينما ورواج ارتيادها بسبب تكييف صالاتها وخصوصًا خلال الكساد الكبير، حين أصاب اليأس الناس، فبزغ عصر السينما الذهبي مما أدى لجعل الفنون السينمائية الوجه الترفيهي الأساسي للقرن العشرين. أريد أن أقول من وراء كل ذلك أن ميدغلي اخترع لوس أنجلوس، بكل ما تعنيه تلك المدينة وما توحيه.. مدينة مبنية على مكيفات الهواء والسيارات، وهي مهد ومنطلق صناعة الأفلام.

لهذا.. في المرة المقبلة، حين تجلس في صالة السينما لتشاهد فيلمًا عن شرطي متمرد يحاول كبح لجام موجة من أعمال الجريمة، فتذكر أن كل شيء من حولك وأمامك موجود لأن ميدغلي تصور في يوم من الأيام أن استخدام بعض المواد الكيميائية لن يضر أحدًا، وأنها ستوفر عليه ثلاثة سنتات في الغالون الواحد.

ستة علماء قتلهم العلم

جيسي وليام لازير

أثبت جيسي وليام لازير بما لا يدع مجالًا للشك بأن الحمى الصفراء مرض وبائي ينقله البعوض، وذلك بأن سمح لبعوضة حاملة للمرض بقرصه، فمات متأثرًا بالمرض ومثبتًا نظريته بموته.

فرانز ريشلت

وهو خياط فرنسي هنغاري حاول في عام 1912 تجربة مظلة الهبوط التي صنعها بنفسه بالقفز عن برج إيفل. لكنه لاقى حتفه بدلًا من ملاقاة النجاح.

دانييل السيد كاريون غراسيا

وهو طالب طبّ من البيرو صمم على البحث في مرض كاريون، لم يعرفه الناس في ذلك الوقت باسم كاريون بالطبع، بل أصبح اسمه هكذا بعد أن حقن الطالب نفسه بحقنة تحتوي على دم من مريض مصاب، فأصيب بالعدوى ومات.

إدون كاتسكي

وهو طبيب رغب في عام 1936 في معرفة سبب التأثيرات السلبية للكوكايين، باعتبار أن مادة الكوكايين كانت تستعمل في ذلك الوقت في المستشفيات على أنها مادة مخدرة. حقن كاتسكي نفسه بكمية كبيرة من الكوكايين وأمضى ليلته في كتابة ملاحظات على جدران مكتبه ومخربشًا أشياء لا مثيل لها، ثم مات.

كارل وليام سخيل

وهو عالم سويدي عبقري اكتشف العديد من العناصر، بما فيه عنصر الأوكسجين والباريوم والكلورين، لكنه كان معتادًا على اختبار كل مادة يكتشفها بنفسه، فمات عام 1786 بسبب تعرضه للرصاص وحمض الهيدروفلوريك والزرنيخ

كليمنت فالنديغام

وهو محام أسسّ لما عرف فيما بعد بعلم الطب الجنائي، حين كان يدافع عن مجرم متهم بالقتل، وأثبت للقاضي بأن الضحية أطلق النار على نفسه خطأ، وذلك بأن مثل الواقعة بنفسه كما يراها، فأطلق النار على نفسه على سبيل الخطأ ومات وأطلق القاضي سراح المتهم لثبوت نظرية المحامي المتوفى.

10
موجز تاريخ قصر النظر

لنعترف جميعًا أن العالم المعاصر مكان مربك. فنحن نعيش في زمن تتسارع فيه التطورات التكنولوجية وتتوالى جنبًا إلى جنب مع التطورات الاجتماعية بسرعة مذهلة، وغالبًا ما نشهد تغييرات درامية في الحياة التي نحياها خلال جيل واحد أو أقل من ذلك، وربما خلال عقد واحد من الزمن، وفي بعض الأحيان، حصلت التغييرات المهولة خلال عام واحد. كل شيء حولنا يبدو جديدًا، ومع ذلك.. وفي نفس الوقت، يصعب علينا الهروب من إحساسنا بأننا نعيد ارتكاب الأخطاء التي ارتكبها من سبقونا، وبمعدل متسارع. ونفشل في بعض الأحيان في توقع فشل اختراعاتنا والتسبب بأخطاء لا تُمحى ولا يمكننا التغلب على مضاعفاتها.

كما قلت في الفصل الأول، لم نكن يومًا بارعين في التنبؤ بما سيأتي والتخطيط له بوعي، كما لم يساعدنا معدل التغيير المتسارع في عالم التطورات التكنولوجية في التغلب على هذه المشكلة. فنحن ننسى جميع حواسنا وملكاتنا العقلية حين يحيط بنا كل ما هو لامع ومدهش، وحينما تنهمر علينا المعلومات من كل حدب وصوب

فلا غرو أننا نعاني من صعوبة في هضم جميع تلك المعلومات، فنتراجع خطوات إلى الوراء وننتقي من كل ما نتلقاه من العالم المحيط النتف التي تدعم وجهات نظرنا المتحيّزة لأنها أسهل ما يمكن على أدمغتنا فعله. كيف لأحدنا اليوم أن يتأكد من وقوعنا ضحايا لتأثير دننينغ - كروغر من عدمه إذا كنّا مطالبين بتعلم أشياء جديدة على الدوام؟

نحن نعيش في عالم من الاستهلال.. هناك شخص أو شيء يفعل لأول مرة كل يوم.. كل يوم هناك ما نسمع عنه لأول مرة أو نجربه لأول مرة، ومعظم هذه الأشياء كانت بعيدة عن أذهاننا وتصوراتنا للمستقبل، ولربما تجاهلنا في سبق الناس الذين تنبأوا بما يجري اليوم. ولسوء الحظ، ليس كل ما نختبره لأول مرة في هذه الأيام جيدًا لنا.. لا بد لنا من سؤال ماري وارد عن ذلك.

كانت ماري وارد شخصية تقدمية في كل شيء، فقد وُلدت لعائلة أرستقراطية في ريف مقاطعة أوفالي في أيرلندا عام 1827، لكن عائلتها لم تكن أي عائلة، فقد كانت محاطة بالعلماء من طفولتها، سواء من الأقارب أو الزوار، وكانت محظوظة برعاية عائلتها لشغفها بالعلم، إذ اشترى لها والداها ميكروسكوبًا من أفضل ما كان متوفرًا في البلاد في ذلك الوقت. وكان وقتًا عظيمًا، ليس لأنها كانت شغوفة بالعلم فقط، بل لأنها كانت ترسم كل ما تراه أمامها على الميكروسكوب. كما رسمت التلسكوب العملاق الذي بناه ابن عمها ويليام بارسون، عضو الجمعية العلمية الملكية، والذي بلغ طوله اثنان وسبعون إنشًا، والذي بقي أكبر تلسكوب في العالم حتى عام 1917.

تواصلت ماري مع العديد من العلماء مع دخولها في مرحلة الشباب، ودفع ذلك العديد منهم لأن يطلبوا منها تنفيذ الرسومات التوضيحية في كتبهم. وفي عام 1 قررت ماري طبع كتاب خاص بها بعد خيبة أملها بالكتب العلمية التي كانت تصور

الميكروبات في ذلك الوقت. وخوفًا من نفور الناشرين منها لأنها امرأة - وهذا خوف مبرر بالطبع - طبعت بنفسها 250 نسخة من كتابها. نفقت الطبعة من المكتبات بسرعة البرق ولفت الكتاب نظر أحد الناشرين وقرر أن يتجاهل حقيقة أنها امرأة بسبب رسوماتها الرائعة والطريقة الجميلة التي كانت تكتب بها. طبع لها هذا الناشر أول كتاب رسمي لها تحت اسم «عالم العجائب كما يكشفه لنا الميكروسكوب» وانتشر في المكتبات بشكل لا يُضاهى، وأعيد طبعه ثماني مرات خلال عشر سنوات، مما جعله أحد أهم الكتب المنشورة في ذلك المجال وأشبه بما ندعوه اليوم بقسم الكتب العلمية الشائعة البسيطة.

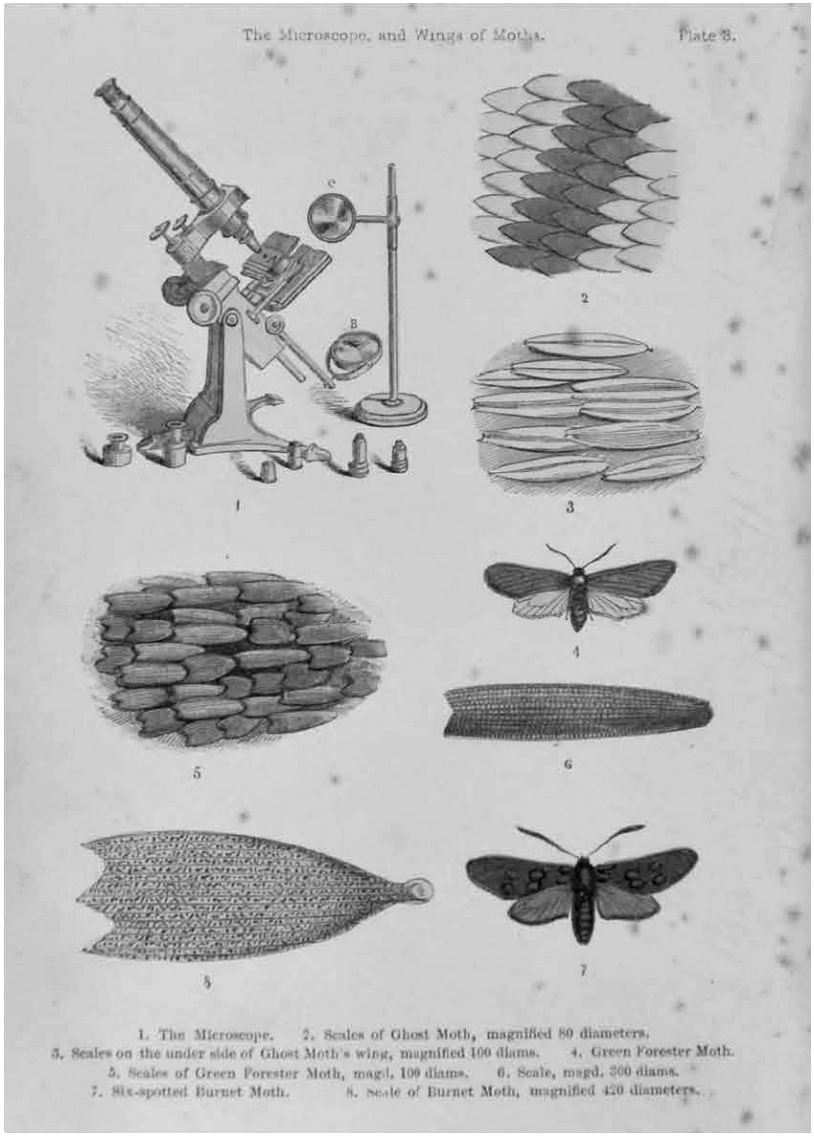

صفحة من كتاب ماري وارد 1859

لم يكن ذلك آخر كتاب لها، فقد ألفت كتابين آخرين وأرفقت بكل نسخة من كتابها الجديد ميكروسكوبًا صغيرًا ليتفحص الناس ما تنصحهم به، وعرضت ذلك في معرض القصر الكريستالي عام 1862، كما قامت بتنفيذ عدد لا يُحصى من الرسوم

للعلماء ونشرت عددًا لا حصر له من المقالات في الدوريات العلمية، مما أهلها لتصبح واحدة من ثلاث نساء فقط ممن سمح لهن بتلقي نشرة الجمعية الفلكية الملكية البريدية، كانت المرأة الثانية على تلك اللائحة هي الملكة فيكتوريا. لم تحصل وارد على درجة علمية رغم كل ذلك لأن العصر لم يكن يسمح للنساء بالحصول على درجات جامعية.

كل ما رويته حتى الآن عن ماري وارد كان مجرد تمهيد، فقد كانت امرأة موهوبة ذات سيرة حياة ملفتة، لكنني لا أذكرها هنا لذلك، بل أذكرها بسبب ما حدث في مينة بارسونتاون يوم 31 آب من عام 1869. في ذلك اليوم، كانت مع زوجها الكابتن هنري وارد في عربة ذات محرك بخاري، ومن صناعة منزلية، وقد صنعتها بنفسها مع أولاد ابن عمها ويليام بارسون.

كان استعمال عربات بخارية في ذلك الوقت أمرًا خارجًا عن المألوف، وكان علامة دالة بلا شك على الزمن الذي سيأتي. كانت العربة البخارية قد اخترعت قبل قرن من ذلك في فرنسا، لكنها كانت ما تزال بعيدة كل البعد عما ندعوه اليوم بالسيارة، وكانت الحكومة البريطانية قد شرعت بعضًا من القوانين قبل عدة أعوام، وبالتحديد في عام 1865 لتنظيم سيرها في الشوارع رغم ندرتها وكونها تحت التجريب. ومن بين بلايين وبلايين البشر الذين ولدوا على هذا الكوكب، كانت وارد واحدة من الأوائل الذين ركبوا السيارات.

تقول السجلات أن العربة البخارية تهادت في شارع السوق في بارسونزتاون بسرعة ثلاثة أميال ونصف في الساعة، وانعطفت عند زاوية شارع كامبرلاند إلى جانب الكنيسة. ربما كانت الحادثة برمتها ضربًا من ضروب القدر، وربما كان الشارع غير ممهد بما فيه الكفاية، ربما لم يكن مناسبًا سوى للأحصنة والعربات، ربما لم يفكر مهندسو الطرقات في ذلك الوقت بمن يمكن لهم الانعطاف بتلك السرعة وبتلك

الحدة، لأن انعطاف الأحصنة والعربات مختلف كليًا عن انعطاف السيارات، كما أن الأخطار المحتملة مختلفة للغاية. ربما كانت ماري سعيدة بتجربة عربتها البخارية لا أكثر، ومتشوقة لمعرفة ما ستؤول إليه أمور العربة في المستقبل، فاتكأت قليلًا إلى الخارج لترى الطريق تحت العربة، لتشاهد السرعة بأم عينيها.

مهما كان السبب، وفيما انعطفت العربة، اختل توازنها وارتفع أحد جانبيها فوقعت ماري أرضًا وداستها عجلات العربة الخلفية. فصلت رقبتها عن جسدها بلحظة وماتت بلمح البصر.

ماري وارد هي أول ضحية لحوادث السيارات في التاريخ. كانت رائدة بطرق شتى، لكن المرء لا يختار الأمور التي يتقدم بها على الآخرين في معظم الأحيان. واليوم، يموت ما يصل إلى مليون وثلاثمائة ألف شخص سنويًا في حوادث السيارات، وما يزال المستقبل يحمل إلينا أشياء ويوصلها لنا بأسرع مما كنا نتصور، وما ننفك نحاول التنبؤ بما سيحمله إلينا، ولكن هيهات.

أكدت صحيفة كوارترلي عام 1825 لقرائها أن القطارات اختراع غير ذي فائدة ولن يكون له مكان في المستقبل، وسألت على لسان محررها: «ما الذي قد يكون أكثر سخفًا وعبثية من مركبة تسير بضعف سرعة العربة التي تجرّها الجياد؟».

بعد سنوات قليلة، وفي عام 1830 بالتحديد، قام ويليام هسكيسون، عضو البرلمان البريطاني ووزير الدولة السابق بحضور حفل افتتاح شركة قطارات مانشستر وليفربول. وركب بنفسه قطارًا من ليفربول إلى مانشستر برفقة دوق ولينغتون وعدد لا يحصى من الشخصيات البارزة. توقفوا في منتصف الطريق لتبريد المحرك بالماء، وطلب من الركاب عدم مغادرة المقصورات، لكنهم لم يتقيدوا بذلك. وخرج هسكيسون من مقصورته لمصافحة دوق ويلنغتون فرحًا بذلك الإنجاز. وقف

هسكيسون على الخط الحديدي المجاور غير عارف بما يمكن أن يسبب له هذا من أخطار، وخلال لحظات، سمع صفارة إنذار تنبئ باقتراب قطار من الجهة المعاكسة، فأصيب بالارتباك نظرًا لعدم خبرته بخطوط الحديد وعدم اعتياد الناس على السرعة التي تتحرك بها القطارات، فلم يدري أين يذهب بنفسه، وربما فكر بأن القطار القادم سيتوقف احترامًا له كما يحدث في ذلك الزمن حين تقترب منه عربة ما، وبدلًا من أن يتجه إلى بقية الركاب الواقفين بعيدًا عن السكة، خطر له أن يتسلق المقصورة التي يجلس فيها صديقه، ففتح الباب إلى الخارج ووضعه في وجه الصاروخ القادم من الجهة المعاكسة. ولهذا يذكر اسم ويليام هسكيسون على أنه من أوائل الناس الذين قتلتهم القطارات في التاريخ.

قال «ألفريد نوبل» عن اختراعه للديناميت في عام 1871: «ربما ستجد مصانعي حلًا للحروب قبل مجلس النواب. ستقوم الحكومات بسحب قواتها من ميادين القتال بلا شك في اليوم الذي يهدد فيه الطرفان المتصارعان بعضهما بأصابع الديناميت القادرة على محو الطرف الآخر».

انهارت الأسواق المالية حول العالم في عام 1873 حين انفجرت فقاعة التكهنات واستمرت فترة الكساد الاقتصادي تلك لسنوات طويلة.

وبعد مرور سنوات على ذلك، وفي عام 1877 بالتحديد، كتب ريتشارد غاتلنغ مخترع المسدس الحديث إلى صديقه آملًا في أن يفتتح اختراعه حقبة جديدة في عالم الحروب الإنسانية. قال في رسالته أنه كان يتأثر بشدة عندما كان يشاهد القوات وهي في طريقها إلى الجبهات بشكل يومي، وعودة الجرحى والقتلى بأعداد لا تحصى قائلًا: «خطر لي أن أخترع آلة صغيرة، مسدسًا يدويًا فرديًا يُمَكّنُ حامله من تأدية عمل مائة جندي لسرعته وخفة وزنه، مما يقلل حاجة الحكومات لأعداد كبيرة من المجندين، ويقلل من تعرض أعداد كبيرة من البشر للمعارك ويخفف من حدة الآثار

الناتجة عن ذلك».

كما رفض كارل أورتن في عام 1877 عرض ألكسندر غراهام بل، شراء حقوق اختراع الهاتف قائلًا: «ما الفائدة التي يمكن لشركتي أن تجنيها من لعبة كهذه؟».

وفي مجال آخر، احتاجت مجموعة من المبشرين المسيحيين في شيكاغو عام 18 إلى المال، وتوصلوا إلى فكرة طلب سنت واحد من ألف وخمسمائة شخص يعرفون عناوينهم، لكنهم فكروا في أن يطلبوا من هؤلاء توجيه الرسالة نفسها لثلاثة أصدقاء آخرين نيابة عنهم، فجمعوا ستة آلاف دولار، ولم يعرفوا أنهم اخترعوا في ذلك الوقت ما بات يعرف اليوم بالرسالة الجماعية المعاد توجيهها، كما نفعل جميعًا اليوم على أجهزتنا.

في عام 1897، تنبأ العالم البريطاني المرموق اللورد كالفن أن الراديو لا مستقبل له. كما مدحت جريدة نيويورك تايمز اختراع حيرام ماكسيم عام 1897 للمسدس الأوتوماتيكي وقالت أنه الاختراع الذي سيمنع وقوع الحروب وسمّت اختراعه «صانع السلام والحافظ من شرور. وقالت حرفيًا: «بسبب تأثيره المدمر، ستفكر الحكومات والأمم ألف مرة قبل شنّ أي حرب وقبل التفكير بخطط الغزو».

كما أكّد اللورد كالفن المرموق المذكور آنفًا في عام 1902 في مقابلة صحفية أن عبور المحيط الأطلسي بالطائرة أمر مستحيل تمامًا قائلًا: «لن يتمكن أي منطاد أو طائرة مهما بلغ حجمها أو قوتها من عبور المحيط.» وبعد سنة ونصف، قام الأخوان رايت برحلتهما الأولى بالطائرة التي صنعاها معًا. وقال أوفيل رايت في رسالة لصديق في عام 1917 مسترجعًا تلك الأحداث: «عندما بنينا تلك الطائرة، أنا وأخي، وحلقنا لأول مرة بآلة قادرة على حمل إنسان، فكرنا بأن اختراعنا سيجعل الحروب أمرًا مستحيلًا في المستقبل، ومما أكد لنا تصوراتنا هو أن الجمعية الفرنسية للسلام قلدتنا

ميدالياتها لاختراعنا هذا، لأن الجميع تصوروا بأن الحكومات كانت ستصاب بالخوف من الطائرات، ولن تشن الحروب بسببها.

رافق الملازم توماس سيلفريدج أورفيل رايت عام 1908 في رحلة بالطائرة لعرض ما هي قادرة على فعله، فتعطلت الطائرة بهما فوق فرجينيا ومات الضيف سيلفريدج، أما رايت فنجا من التحطم، وكان سيلفريدج أول شخص يموت بحادث تحطم طائرة في التاريخ.

وتنبأ ماركوني مخترع الراديو في عام 1912 أن: «إن بدء عصر الاتصالات اللاسلكية سيمنع حدوث الحرب، وسيجعلها من المستحيلات في المستقبل، لأنها ستكون سخيفة جدًا». وفي عام 1914، دخلت كل تلك الأمم في حرب كبرى ندعوها اليوم بالحرب العالمية الأولى.

أما عالم الاقتصاد المرموق في جامعة ييل، إرفن فيشر، فتنبأ في السادس عشر من أكتوبر عام 1929 بأن الأسهم المالية وصلت إلى حدها الأعلى وأنها لن تتجاوز ذلك الحد مجددًا في المستقبل، أبدًا!، وبعد ثماني أيام فقط، انهارت الأسواق المالية في العالم حين انفجرت فقاعة الدين السهل بعد سلسلة من التكهنات بمواعيد سدادها، واستمر الكساد لسنوات طويلة بعد ذلك. وكنتيجة لهذا، اتجه الناخبون في الانتخابات التالية في الدول الديمقراطية لانتخاب السياسيين الشعوبيين والاستبداديين.

وقد قال ألبرت آينشتاين في عام 1932 أن: «لا وجود لدليل ضعيف واحد على قدرتنا على تحصيل الطاقة النووية».

وبعد ست سنوات فقط، وفي عام 1938، عاد رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين إلى منزله حاملًا لأوراق الصفقة التي عقدها ووقعها مع أدولف هتلر

وقال: «أعتقد أننا توصلنا لما سيفرض السلام الأبدي.» قبل أن يرقد في فراشه وينام قرير العين. بعد عام واحد فقط، في عام 1939، اندلعت الحرب العالمية الثانية.

نيفيل ملوحًا بورقة اتفاقية ميونخ التي حملت توقيعه وتوقيع هتلر عام 1938

وكتب روبرت أوبنهايمر عام 1945، وهو الرجل الذي قاد مجموعة العلماء لصناعة القنبلة النووية في مختبرات لاس ألاموس: «إذا لم يقنع هذا الاختراع البشر بوضع حد للحروب، فلن يقنعهم أي اختراع آخر».

لكن ما جرى في التاريخ كان معاكسًا لأمله هذا، كما عاكست أحداث التاريخ جميع تنبؤات من سبقوه، من نوبل إلى غاتلنغ وماكسيم ورايت، فما زالت الحروب

تلتهم عالمنا، ومع أننا لم نقع ضحايا لحرب نووية بعد، إلا أننا ما نفتأ نتمنى أن يصحّ توقع أوبنهايمر.

اختبار نووي في نيفادا عام 1951

لقد تنبأ المصمم المرموق ريتشارد باكمنستر فولر عام 1966 أن السياسة ستلقى حتفها قبل دخول الألفية الجديدة، وأن السياسيين سيختفون من العالم بحلول عام 2000.

أما علماء الفضاء الروس جورجي دوبرفولسكي وفيكتور باتسييف وفلاديسلاف فولكوف فقد كانوا أول الناس الذين ماتوا في الفضاء، بعد تحطم مركبة سويوز بهم في طريق عودتهم من محطة الفضاء الدولية عام 1971.

أما كين أولسون، مدير شركة المعدات الرقمية، فقد صرح عام 1977 أن عالم الحاسوب سيقتصر دومًا على الجهات المختصة وأن استخدامه لن يكون شعبيًا واسع النطاق مهما جرى، قائلًا: «لا وجود لسبب واحد يدفع الفرد العادي لاقتناء حاسوب في منزله.» وفي عام 1978، أي بعد عام واحد من ذلك، قام غاري ثيرك موظف التسويق في الشركة ذاتها بإرسال رسالة تحتوي على نصيحة شخصية منه بشراء منتجات شركته إلى 400 شخص من مستخدمي شبكة أربانت، وهي أحد أوائل الشبكات البسيطة التي تحولت فيما بعد في مجموعها إلى الإنترنت كما نعرفها اليوم، ولم يعرف أنه أرسل أول رسالة دعائية في التاريخ، مما جعلها أول رسالة تدخل تحت بند الرسائل غير المرغوب فيها كما نقول اليوم، لكن رسالته هذه أدت إلى مبيعات بملايين الدولارات لشركته.

وفي عام 1979، كان روبرت ويليامز العامل في مصنع فورد للسيارات في مشيغان أول إنسان يموت بسبب إنسان آلي.

وقد كتب المعلق الاقتصادي لاري كودلو في شهر ديسمبر عام 2007 في جريدة ناشيونال ريفيو التالي: «احتمال وقوع فترة كساد جديدة بعيد جدًا، والمتشائمون على خطأ بالتأكيد، لأنه لن يحصل أبدًا، فكل أصناف التجارة مزدهرة

بعد ست سنوات متتالية من الربح المتواصل.، نعم.. نحن نعيش في حقبة من الرخاء».

لكن اقتصاد الولايات المتحدة دخل في حقبة من الكساد بعد أيام قليلة من ذلك، في نفس الشهر ونفس العام من ذلك التعليق، وللمعلومات فقط، في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب فإن لاري كودلو يشغل منصب مدير المجلس الاقتصادي العالمي في الولايات المتحدة. انهارت الأسواق المالية بسبب الديون الهائلة عام 2008 واستمرت حالة الكساد أعوامًا واتجه الناخبون بعد تلك الفترة لانتخاب أكثر المرشحين شعوبية واستبدادًا كما هي عادة الشعوب حين تضربهم صواعق الضيق المادي.

وفي عام 2016، توفي صبي في الثانية عشرة من عمره وأسعف أكثر من عشرين شخصًا من قبيلته في مراعي سيبيريا بسبب انتشار فيروس الأنتراكس هناك، بعد اختفاء ذلك الوباء من المنطقة لأكثر من خمسة وأربعين عامًا، وقد انتشر المرض هذه المرة بعد ارتفاع درجات الحرارة بشكل غير مسبوق، وتجاوزها لحاجز الخمس وعشرين درجة. لقد أذابت موجة الحر تلك طبقة الجليد القديمة التي كانت تغلف مجاهل سيبيريا، وكشفت طبقات قديمة من الثلوج وأذابتها بعد أن كانت مجمدة هناك منذ عشرات السنين، كانت تلك الطبقات القديمة تحتوي على جثث حيوانات الرنة الميتة قبل عقود، والتي ماتت بمرض الأنتراكس في عام 1941 بالتحديد.

يمكن للجليد أن يحفظ جسيمات المرض على قيد الحياة، لكنها لا تبقى في حالة نشطة، بل تدخل في حالة السبات، وقد تبقى كذلك لسنوات وعقود أو حتى قرون.. وربما اكثر. لقد صمد المرض تحت طبقات الجليد طوال كل تلك السنين، بقي هناك بانتظار فرصته، بعد أن رأى النور آخر مرة حين كان الشتاء الروسي المميت يكسر جيش هتلر حين حاول غزو روسيا. وقد حدث ذلك بالفعل في عام 2016 حين

ارتفعت درجات الحرارة إلى أعلى درجة مثبتة عالميًا على مدار السنين. وقد أصاب المرض أكثر من ألفي حيوان رنّة قبل أن ينتقل صدفة إلى البشر.

يمكننا القول أن الناس غير قادرين على التكهن بالكوارث، ولكن.. وقبل عامين فقط من تلك الحادثة، تنبأ عالمان بحدوث أمور مشابهة إذا بقي الاحتباس الحراري وذوبان الثلوج على حاله، أي إذا تابع التغيير المناخي انحداره نحو الكارثة، وقالا إن المناطق المتجمدة ستتراجع مما سيطلق إلى المياه والهواء ميكروبات وجراثيم وفيروسات كانت هاجعة من عصور قديمة. وأن ذلك سيحدث حتمًا إذا ما تابعت درجات الحرارة ارتفاعها وأن ذلك سيعيدنا إلى ما قبل عهد توماس ميدغلي واكتشافاته الكيميائية، وإلى ما قبل أحلام وليام باترسون بإمبراطورية جديدة، وربما إلى ما قبل عصر الكتابة، لنتلقف جميع آثار الثورة الصناعية ونغرق بسببها. لن نعرف عدد الناس الذين سيقتلهم الاحتباس الحراري والتغيير المناخي في القرن المقبل، ولن نعرف الطريقة التي سيؤثر بها على مجتمعنا وشكله، لكننا نعرف حتمًا أن أحد أوائل ضحاياه ماتوا بسبب ذويان الثلوج، بسبب سلسلة من قراراتنا التجارية وتبعاتها، بسبب استدعائنا للفيروس من عالم الموت بغبائنا وانعدام بعد نظرنا، ولن يكون ذلك الصبي الضحية الأخيرة بالطبع.

بعد أقل من قرن بقليل على وفاة ماري وارد في حادث السيارة المشهود ذاك، وفي السابع من مايو عام 2016، قام رجل يدعى جوشوا براون بقيادة سيارته على طريق مجاور لويليستون في فلوريدا بسيارته من نوع تسلا ذات الموديل S، وكان يقودها عن طريق السائق الأوتوماتيكي. استنتجت التحقيقات أنه وضع يده على المقود لمدة خمس وعشرين ثانية بعد سبعة وثلاثين دقيقة من الاعتماد على السائق الأوتوماتيكي، وأنه كان يعتمد على برنامج القيادة الآلي للتحكم بالسيارة بقية الطريق. بعد قليل.. اندفعت شاحنة إلى الطريق من مكان لا يسمح لها بذلك.. لم

يشاهد براون الشاحنة كما لم تلحظها أجهزة التحكم في السيارة، فمات الرجل في الحادث.

إن جوشوا براون هذا هو أول إنسان قتلته أنظمة قيادة السيارة الآلية في التاريخ، ولن يكون الأخير.

أهلًا بكم في عالم المستقبل.

الخاتمة
تدمير المستقبل

في شهر أبريل عام 2018، أعلنت صفقة إعادة افتتاح منجم فحم قديم في أستراليا. وكان هذا خبرًا غير عادي للعديد من الأسباب، مع محاولة العالم أجمع الابتعاد بخيارات وقوده عن الوقود الأحفوري، لهذا بدا الخبر غريبًا جدًا، لكن أغرب ما في الخبر كان السبب الذي دفعهم لشرائه وإعادة افتتاحه.. كان أصحابه الجدد يبحثون عن طريقة رخيصة لتوليد الطاقة لشركة عملة إلكترونية.

عملة البيتكوين هي أكثر العملات شهرة ما بين جميع العملات الإلكترونية الموجودة اليوم، لكن النظام البيئي الجديد والمتوسع للأشياء الغريبة كالشركات التي تفتتح شركات جديدة بمعدل ناري يثير العجب، في أمل حصد الأموال الكثيرة من بيع الأموال الرقمية. وهذه الأموال الرقمية ليست مدفونة بالمعنى الحرفي للكلمة، ولا يجري استخراجها من الأرض والتنقيب عليها (باعتبار أن كلمة التنقيب عن العملات الإلكترونية هي الكلمة الرائجة في الإنكليزية) كما ينقب الناس عن الذهب، بل هي مجرد نتفات من الشيفرة الإلكترونية، أغلبها مبني على سلسلة من المعلومات

التكنولوجية، حيث لا تمثل كل عملة افتراضية منها شيئًا ملموسًا ذا قيمة رمزية فقط، بل وسجلًا لتاريخ التداول الخاص بها. كان العقل الإلكتروني بحاجة لخلق تلك العملة، ذلك الشيء.. ولتداول سجلات تداولها وهذا أمر مذهل بحق، لكنه يحتاج لكميات مهولة من الطاقة الكهربائية، إنه يمتصها بمعدل جنوني، وذلك لتشغيل مراكز المعلومات الخاصة بالتنقيب عن العملات الإلكترونية المتوسعة يومًا بعد يوم، ولتبريد تلك المعالجات من شدة الحرارة المتولدة عن عملها المتواصل.

ليس للعملات الإلكترونية أي قيمة خاصة بها، ولا تملك أي منها سلطة مركزية لتنظيم دفقها إلى السوق، والعامل الوحيد الذي قد يحد من تدفقها هو كلفة الحسابات اللازمة لخلقها وتداولها. لكن إيمان بعض الناس بأنها عملة المستقبل هو ما دفع أسعارها للارتفاع، لأن جميع المختصين أكدوا أنها تساوي شيئًا ما في عالمنا المادي. وهكذا.. اكتسبت العملات الإلكترونية قيمة تعتمد كليًا على مزاج السوق. وأنا أرى أنه جنون جماعي اقتصادي كلاسيكي، فقاعة مالية جديدة، ستكبر وتكبر ثم ستنفجر مخلفة حقبة كساد جديد، مع انضمام جميع الناس لذلك الجنون خوفًا من العواقب المستحيلة وانتقاد الآخرين لعدم مجاراته للزمن.

ولكن.. مثل أي جنون جماعي آخر، لها تأثيرات جانبية حقيقية. إذ لم تفتتح أستراليا وحدها معاملها القديمة، بل ها نحن نرى مناجم الذهب القديمة في الغرب الأمريكي والتي طال زمن إغلاقها تعود للحياة من جديد، بعد 170 عامًا من اندفاع الناس إلى فيافي الغرب الأمريكي في ما عرف وقتها بحمى الذهب، طامعين بالثروات التي سمعوا أن غيرهم حصلها في ليلة وضحاها.. وها نحن اليوم نشهد حمى ذهب جديدة طامعة في الحصول على طاقة كهربائية رخيصة مع سكن رخيص وأماكن للبناء. إن شركات العملات الإلكترونية تستثمر اليوم مئات الملايين من الدولارات لإنشاء مناجم لإنتاج الطاقة الرخيصة في بلدات الريف الصغيرة والمغمورة في مونتانا

ونيفادا وواشنطن. وقد أبلغ سكان إحدى البلدات أن هذه المعالجات العملاقة تمنعهم من النوم على مدار الساعة بسبب هميمها الذي لا ينقطع، وأنها تؤثر على صحتهم وتدفع الحيوانات البرية للابتعاد عن المنطقة وهجرة مساكنها الأصلية.

مع نهاية عام 2018، تنبأ أحد التقديرات أن التنقيب عن العملات الإلكترونية وحده سيستهلك طاقة مساوية للطاقة التي تستهلكها النمسا بكاملها.

لقد كتبت هذا الكتاب لأحكي عن الأخطاء التي ارتكبناها في الماضي، ولكن، ماذا عن الأخطاء التي نرتكبها اليوم؟ وماذا عن الأخطاء التي سنرتكبها في المستقبل القريب؟ كيف ستبدو أخطاء المستقبل وكيف ستؤثر عليه؟

لقد لاحظت أن التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور في المستقبل هي إحدى الطرق التي تدفع المؤرخين لاعتباري أحمق بجدارة. وربما سيرتكب البشر في العقود والقرون المقبلة سلسلة من الأخطاء الأصيلة والمبتكرة كليًا، وربما وجدنا طرقًا لمنع ارتكاب الأخطاء في المستقبل، ولكني أعتقد أننا سنتابع الوقوع في الأخطاء ما حيينا وربما سنرتكب نفس الأخطاء التي ارتكبناها في الماضي.

دعونا نبدأ بما أعتقد أنه سيجري.

من بين جميع المواد التي رميناها وخلفناها في الطبيعة بناء على افتراضنا بأن كل شيء سيجري على ما يرام، أعتقد أن ثاني أوكسيد الكربون الذي تنفثه معاملنا منذ بدء الثورة الصناعية هو العامل الذي سيدمر كل ما نبنيه اليوم.

إن التغيير المناخي الذي سببه الإنسان حقيقة علمية مثبتة لا تحتاج للبرهان، وتأثيره الضار على المجتمعات والعوامل الحضارية خارج عن النقاش، وقد تجاوزنا نقطة العودة بأشواط، إنها ليست مشكلة البوليوتر ولا الإشعاع الخرافي حيث يصاب العلماء بحرج بعد فترة من الزمن حين يكتشف زيف الأمر، ومع ذلك، ما زال هناك

العديد من الناس الذين يشككون في الأمر لأسباب اقتصادية أو سياسية أو عناد بحت لا يعتمد على أساس علمي.

لهذا.. نصمّ آذاننا كي لا نسمع الحقيقة، فيما يجدر بنا أن نتراكض حيارى بذعر لا قبل له وكأن بيوتنا تحترق أمام أعيننا. مع العلم أن بيوتنا تحترق بشكل أو بآخر، لكننا لا نرى ذلك بعد. لقد حلت علينا سبع عشرة سنة من أكثر السنوات حرًا منذ العام 2000. ولأول مرة في تاريخنا كله، تجاوز مستوى ثاني أوكسيد الكربون في الغلاف الجوي حاجز 410 جزيء في المليون في أبريل عام 2018، ولا بد لي من أن أخبركم بأن آخر مرة كانت مستويات الكربون فيها في الجو بهذه الكثافة كانت في العصر البلستوسيني الحار، قبل ثلاثة ملايين عام ونيّف، في نفس الوقت الذي وقعت فيه لوسي عن الشجرة. ربما فكر الواحد منكم بأن الأمر ليس سيئًا كما نصفه باعتبار أن المستويات وصلت إلى هذا الارتفاع من قبل ولم يحصل شيء، لكن الحقيقة أن مستوى مياه البحار كان أعلى بستين قدمًا مما هو عليه اليوم.

لكن التغيير المناخي ليس النتيجة الوحيدة لتكاثر ثاني أوكسيد الكربون. إن مياه المحيطات تمتصّه.. أنباء رائعة أليس كذلك؟ لكنها ليست كذلك. إن مياه المحيطات أقرب للبيئة القلوية منها للبيئة الحمضية، لكن امتصاص كل تلك الكميات من ثاني أوكسيد الكربون يجعلها أكثر حامضية، وكلما باتت أكثر حامضية، ازداد التأثير على الحياة البحرية، من أصغر دقائقها حتى أعظم حيتانها.

كما أن ارتفاع درجة حرارة المحيطات يزيد الأمر سوءًا، وإذا رغبنا في ضرب مثال عن ذلك فعلينا النظر في أمر الحيد المرجاني العظيم الذي يعد واحدًا من أعظم العجائب على سطح الأرض، فالحيد المرجاني العظيم يتآكل ويتقلص بمعدل متسارع بعد تلاحق الكوارث البيئية عليه.

أعتقد يا أصحابي أننا دمرنا الأمور بالفعل.

هذا بعي تمامًا عن ما نفعله بأنفسنا بلا تفكير، فقد أكد العلماء في مايو عام أن انبعاثات كربونات الكلوروفلور تزداد بشكل ملحوظ في الهواء، أي أن أحدهم قد قرر تصنيع الكارثة الكيميائية التي اخترعها ميدغلي، ولا بد أن ذلك يجري على الأرجح في مكان ما في آسيا. لا بد أن طبقة الأوزون ستستغيث خلال عقد من الزمن. ويا له من عمل رائع.

أو خذ مثلًا مقاومة مضادات الميكروبات. كانت المضادات الحيوية وغيرها من الأدوية المضادة للميكروبات واحدة من أعظم الخطوات إلى الأمام في القرن العشرين، حيث أنقذت أعدادًا لا تُحصى من الأرواح. ولكن، مثل سكان جزيرة الفصح الذين قطعوا أشجارهم، لقد استخدمناها كثيرًا. في كل مرة تستخدم فيها مضادًا حيويًا، فإنك تزيد من فرص مقاومة أحد هذه الميكروبات له، ثم تقتل منافسيه. إنه تطور متسارع، حيث أن أعمالنا تولد سلالات جديدة من البعوض الخبيث المقاوم للمضادات الحيوية التي لديها القدرة على إعادة جميع الأمراض القديمة السيئة إلى الوجود حتى لو كانت من عصر ما قبل الطوفان. ونتيجة لذلك، فإن العالم يفتقد بسرعة إلى المضادات الحيوية الفعالة، وجزء من المشكلة هو أن المضادات الحيوية ليست تجارة مربحة بما يكفي لشركات الأدوية لاستثمار موارد كافية لإنشاء موارد جديدة.

تشير التقديرات إلى أن 700000 شخص يموتون كل عام بسبب أمراض مقاومة للميكروبات. أو ربما سنلاقي حتفنا لأننا واصلنا الاستعانة بالكمبيوترات وخوارزمياتها لاتخاذ قراراتنا بدلًا منا، على أمل أن يجعلها الحاسوب أفضل وأكثر حكمة، واحتمال رمي اللوم على الحاسوب حين تفشل الخطط. وكمثال على ذلك، لدينا الخوارزميات التي تتحكم في السيارات ذاتية القيادة. في عالم التجارة مثلًا، تقرر

الخوارزميات ما هي الأسهم المراد شراؤها وبيعها، والأخبار التي نراها على وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بنا. نحن نريد أن نعتقد بأن الخوارزميات أكثر عقلانية من البشر؛ لكنها ستزيد من الأخطار في الواقع، ومن المرجح أن تضخّم جميع التحيزات والافتراضات الخاطئة التي نتغذى بها.

إن القلق من ترك الأمور لخوارزميات الحاسوب لحسم أمورنا واتخاذ القرارات عنا لا يتوقف هنا مع تقدم البحوث على الذكاء الاصطناعي بهذا المعدل السريع. الخوف هنا هو أنه إذا نجحنا في إنشاء إنسان آلي أكثر ذكاءً وقدرة من البشر، فقد نكون مخطئين في الاعتقاد بأنه سيكون في صالحنا. قد يكون قادرًا على التلاعب بنا لتحقيق غاياته الخاصة، أو قد يرانا كتهديد ويرغب في تدميرنا، أو قد يفشل ببساطة في إدراك أن البشر مهمون، وسننتهي إلى أن نكون مجرد علف لهدفه المتمثل في إنشاء أكبر عدد ممكن من الدبابيس الورقية (أو أي مهمة أخرى قمنا بتكليفه بها من قبل). قد يبدو احتمال انقراضنا واختفائنا في غياهب النسيان بعيدًا، لكن يبدو أن هناك عددًا كبيرًا من الأشخاص الأذكياء الذين يأخذون هذا الاحتمال على محمل الجد.

أو ربما سننفجر أنفسنا في حرب نووية قبل حدوث أي شيء. وربما لن تكون النهاية مثيرة إلى تلك الدرجة. ربما سنقود أنفسنا بهدوء نحو مستقبل مجنون من خلال كسلنا. منذ أن مزقنا روابطنا بأمنا الأرض ودخلنا عصر الفضاء، كان نهجنا تجاه الأشياء التي لا نحتاج إليها في الفضاء يشبه إلى حد كبير نهجنا تجاه كل القمامة الأخرى التي نخترعها: نحن نرميها بعيدًا حين نفرغ منها. والفضاء كبير جدًا، فما أهمية ذلك؟ هذا هو المكان الذي تظهر فيه متلازمة كيسلر. هذا ما تنبأ به عالم ناسا دونالد كيسلر في عام 1978، ومع ذلك لم يمنعنا هذا من رمي قمامتنا في الفضاء. المشكلة هي أنه عندما تتخلص من الأشياء في المدار، فإنها لا تذهب إلى أي مكان.

الأمر لا يشبه إلقاء كيس قمامة من نافذة السيارة، فبقايا القمامة التي رميناها في الفضاء تدور حول الأرض بنفس السرعة تقريبًا وعلى نفس مسار المركبة التي أُلقيت منها. مما يعني أنها ستصطدم مع أجزاء أخرى من القمامة والمركبة. المشكلة في ذلك هي أنه بسبب سرعة تحرك الأجسام الموجودة في المدار، يصبح التصادم مدمرًا بشكل لا يصدق.

تصادم بسيط واحد مع أصغر قطعة من المواد يمكن أن يكون كارثيًا، وقد يؤدي إلى تدمير الأقمار الصناعية أو محطات الفضاء. وتُنتج تلك التصادمات القاتلة الآلاف والآلاف من القطع الإضافية غير المرغوب فيها، والتي يمكن أن تسبب المزيد من التصادمات. هذا ما تنبأ به دونالد كيسلر: في النهاية سوف يصبح الفضاء مزدحمًا للغاية بحيث تصل هذه العملية إلى نقطة تحول، حيث يخلق كل تصادم المزيد والمزيد من التصادمات، حتى تحيط كوكبنا سحابة قمامة عالية السرعة. نتيجة ذلك: تصبح الأقمار الصناعية عديمة الفائدة، ويصبح الانطلاق في الفضاء خطرًا مميتًا. يمكن لهذا أن يدفعنا للاهتمام بكوكب الأرض. في بعض النواحي، يبدو الأمر وكأنه سيكون نهاية شعرية غريبة لهذه الرحلة التي بدأتها لوسي منذ ملايين السنين. كل هذا الاستكشاف، كل هذا التقدم، كل تلك الأحلام والأفكار الكبرى تصل إلى نهايتها: أبناء لوسي البشر محاصرون على كوكبهم داخل سجن صنعوه من القمامة الخاصة بهم.

بغض النظر عما يخبئه مستقبلنا، أيًا كانت التغييرات المحيرة التي تحدث في العام المقبل والعقد القادم والقرن التالي، فمن المحتمل أننا سنواصل القيام بالأمور نفسها. سنلوم الآخرين على مشاكلنا، ونبني عوالم خيالية مفصلة حتى لا نضطر للتفكير في خطايانا. سوف ننتخب السياسيين الشعوبيين في أعقاب الأزمات الاقتصادية. وسوف نتصارع من أجل المال. وسنخضع للتفكير الجماعي والهوس

والتحيز. وسنطمئن أنفسنا بأن خططنا جيدة جدًا ولا يمكن لها أن تفشل.

أو... ربما لن نفعل؟ ربما تكون هذه هي اللحظة التي نتغير فيها، ونبدأ في التعلم من تاريخنا. ربما يكون كل هذا مجرد تشاؤم، وبغض النظر عن مدى ما قد يبدو عليه العالم من الغباء والاكتئاب في بعض الأحيان، في الواقع، قد نتحول لنصبح أكثر إنسانية وأكثر استنارة، وقد نكون محظوظين بما فيه الكفاية للعيش في فجر عصر جديد من الحكمة. ربما نملك حقا القدرة على أن نكون أفضل.

ربما سنتسلق شجرة في يوم من الأيام دون أن نسقط.